# في رحاب السيرة النبوية

**مقالات نشرت في مجلة "الأمة"**

**1401 - 1405 هـ**

# البيانات التوثيقية لهذه المقالات

| الرقم | عنوان المقال | كاتب المقال | رقم العدد | تاريخ صدور العدد | أرقام الصفحات |
|---|---|---|---|---|---|
| 01 | محمد رسول الله المثل الكامل والقدوة الحسنة | الحسين عصمة | 40 | ربيع الآخر 1404هـ | 80-79 |
| 02 | محمد ﷺ الرسول الإنسان | صلاح أحمد الطنوبي | 39 | ربيع الأول 1404هـ | 35-33 |
| 03 | محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم محرر الإنسان والزمان والمكان | محمد أحمد العزب | 15 | ربيع الأول 1402هـ | 16-14 |
| 04 | الهجرة النبوية معناها وأهدافها | نبيه عبد ربه | 01 | محرم 1401هـ | 86-84 |
| 05 | تأمين قاعدة الإسلام بالمدينة بعد الهجرة النبوية | محمد جمال الدين محفوظ | 25 | محرم 1403هـ | 16-13 |
| 06 | خصائص الخطابة النبوية | أحمد محمد الخراط | 39 | ربيع الأول 1404هـ | 31-30 |
| 07 | درسان حيويان مقتبسان من قادة النبي ﷺ (1) | محمود شيت خطاب | 37 | محرم 1404هـ | 21-18 |
| 08 | درسان حيويان مقتبسان من قادة النبي ﷺ (2) | محمود شيت خطاب | 38 | صفر 1404هـ | 13-8 |
| 09 | درس في اختيار القادة من النبي ﷺ | محمود شيت خطاب | 40 | ربيع الآخر 1404هـ | 12-8 |
| 10 | مواقف من غزوة الأحزاب | عمر عبيد حسنه | 35 | ذو القعدة 1403هـ | 7-4 |
| 11 | الرسول ﷺ ينتزع المبادأة من يد أعدائه | محمد جمال الدين محفوظ | 39 | ربيع الأول 1404هـ | 13-11 |
| 12 | فتح مكة وعبرته لحاضر المسلمين ومستقبلهم | محمود شيت خطاب | 12 | ذو الحجة 1401هـ | 12-6 |
| 13 | الردع الإسلامي في غزوتي بدر والفتح | محمد جمال الدين حفوظ | 57 | رمضان 1405هـ | 21-17 |
| 14 | قراءة في غزوة الفتح المبين | عمر عبيد حسنه | 45 | رمضان 1404هـ | 7-4 |
| 15 | تحليل نوعي وكمي لغزوات الرسول ﷺ | محمد جمال الدين محفوظ | 06 | جمادى الآخرة 1401هـ | 81-80 |
| 16 | السيرة النبوية والنقل الحضاري بين الأجيال | عبد العزيز شرف | 25 | محرم 1403هـ | 59-54 |
| 17 | قبسات من موقع القدوة(1) | عمر عبيد حسنه | 51 | ربيع الأول 1405هـ | 7-4 |
| 18 | قبسات من موقع القدوة(2) | عمر عبيد حسنه | 52 | ربيع الثاني 1405هـ | 7-4 |
| 19 | مشكلات السيرة النبوية بين جهل الأصدقاء وافتراء الأعداء | محمد الطيب النجار | 22 | شوال 1402هـ | 13-10 |

**ملاحظة:** رتبت المقالات ترتيبا موضوعيا دون مراعاة الترتيب الزمني في نشرها.

# مُحمّد رَسُول الله

### شخصية الرسول ﷺ شخصية متعددة الجوانب

قد نجد في أي مجتمع من المجتمعات وفي أي عصر من العصور ، رجلاً أو رجالاً أوتوا حظاً كثيراً من النجاح والتفوق ..

لكن هل في كل الميادين ؟ إن من يتفوق في حياته العملية قد لا يتفوق في حياته الخاصة ، ومن يكون له بعض الإلمام في ميدان من الميادين قد يكون جاهلاً لأبسط الأشياء في ميدان آخر .

ومن يهتم بجانب من جوانب الحياة قد يهمل بعض جوانبها الأخرى ، لكن هذه القواعد كلها وما شابهها تندثر وتتلاشى حينما يتعلق الأمر بمحمد ﷺ ، ذلك أن من يقرأ ويسمع عن عادات الرسول ﷺ مثلاً : من قيام بالليل ، وصيام بالنهار ، وتلاوة للقرآن وأذكار وأوراد ، يخيل إليه أن هذا النبي لم يكن يبارح محراب المسجد ليله أو نهاره ، وأنه نسي كل واجباته تجاه أسرته الصغيرة والكبيرة . وأن من يعلم عدد نساء الرسول ﷺ وجلساتهن معه وأحاديثه إليهن يحسب أنه لن يستطيع التفرغ لشؤون أخرى ، وأن من يطلع على عدد الحروب والغزوات التي خاضها عليه الصلاة والسلام ، وكيف نظمها وقادها بنفسه ثم انتصر في جلّها .. يكاد يجزم أن هذا النبي أفنى شبابه كله في تعلم فنون القتال ومكايد الحروب ، وأنه ليس من شانه إلا الاستعداد لغزوة كلما عاد من غزوة ..

وأن من يطلع على التراث الضخم الهائل الذي تركه ﷺ للإنسانية في مختلف أنواع المعارف والعلوم يحسب أن هذا النبي لم يكن شغله الشاغل إلا العلم والتوجيه والتربية .. فكيف استطاع هذا النبي الأمي أن يخوض كل ميادين الحياة فينجح فيها نجاحاً باهراً لم يحظ به أحد من العالمين ؟

### سر هذا النجاح العظيم

مما لا شك فيه أن ثمة سر من وراء كل هذا النجاح الذي هو في حد ذاته معجزة خارقة للرسول الكريم ﷺ . إنها - من جهة - العناية الإلهية التي لا تفتأ تحرسه وترعاه - أينما حل وأينما ارتحل - ومن جهة أخرى تلك الثقة بالله التي لم تبلغ أوجها ، ولم تصل ذروتها إلا نفسه الطاهرة ... عناية من الله لعبده ، وثقة وإيمان من العبد بربه ، لعمري ما أرى أعظم من هذين سلاحاً يمكن أن يتسلح بهما إنسان فيخرج دائماً منتصراً في جميع ميادين الحياة .. بهذين السلاحين ، حقق أعظم الرجال محمد ﷺ أعظم انتصار لدعوته الخالدة .

### معجزة الانتصار ..

كان رجلاً واحداً لا حول له ولا قوة ، فقيراً لا مدد له ولا عون ، أمياً لا علم له ولا تجربة ، وحيداً لا أنصار له ولا أعوان ، واستطاع مع ذلك أن يغير مجتمعاً فاسداً بأكمله ، استطاع أن ينقله من ظلام الجهل والجاهلية إلى نور الهدى واليقين ، استطاع أن يقتلع عادات شاذة ، تضرب في أعماق الزمن ليزرع بدلاً منها شمائل حميدة تسمو بمستوى الإنسان إلى أعلى الدرجات ، استطاع أن يقف في وجه التاريخ بأكمله الذي كان يخبط خبط عشواء ليهديه طريق الهدى والفلاح ، استطاع أن ينتشل النفوس من هاوية الشرك السحيقة المظلمة ، ليرفعها إلى سماء الإيمان حيث الطهر والنقاء ..

كثيرون هم الذين تركوا في التاريخ بصماتهم بما قاموا به من أعمال ، وكثيرون هم الذين غيّروا أوضاع مجتمعاتهم بما ابتدعوه من أفكار .. لكن ما أكثر الفرق بين هؤلاء جميعاً وبين ما جاؤوا به وبين الرسول ﷺ ، وما جاء به .

### عظيم لا كالعظماء ونبي لا كالأنبياء ..

إن أي عظيم لا بد له أولاً أن يتخرج من أكبر الجامعات في العالم ، ولا بد له أن يكون قد أفنى جزءاً من حياته أو جلّها في البحث والاطلاع على علوم القدامى والمحدثين خاصة فيما يتعلق بميدانه ، ثم لا بد له أيضاً من ثروة عريضة يمكنه بها أن تسمع كلمته ، أو تكون من ورائه هيئات أو منظمات تنشر أفكاره وتمهد له سبيل النجاح ، وتضع أمامه أسباب

بقلم الحسين عصمة

# المثل الكامل والقدوة الحسنة

الشهرة .

وبعد كل هذا فإن تأثيره في الناس سيكون محدوداً ولن يتجاوز طبقة معينة ، فهو إذا كان إلى جانب الفقراء مال عنه الأغنياء ، وإذا اهتم بالشباب كرهه الشيوخ ، وإذا اتجه إلى العلماء رغب عنه وجهله الأميون ...

وحتى إذا قدر له أن يتربع على عرش الشهرة والمجد ، فيقيناً أن تربعه هذا لن يدوم أكثر من بضعة أعوام ثم يخبو نجمه ، ويتلاشى في التاريخ صوته ، ويموت في الألسن والقلوب ذكره ويخلفه بعد ذلك غيره . ولن يكون مصير هذا بأحسن من مصير ذاك ..

أما الرسول ﷺ فلم تكن في عهده جامعة فيقول المبطلون تخرج منها ، وما كان في زمانه علماء في السياسة والاقتصاد ، وعلم النفس وعلم الأحياء ..

فيقول المرتابون : ربما أخذ عنهم ، حتى إذا برع وتضلع افترى على الناس كذباً أنه أوحي إليه .. كما لم يعرف الناس في تلك العصور فئة من الأثرياء والتجار كانوا يريدون أن يكون المجتمع الجاهلي مجتمعاً مسلماً يؤمن بالله واليوم الآخر ليصيبوا من وراء ذلك أغراضاً ومصالح في نفوسهم : فيقول المشككون إنهم رشحوا محمداً لهذه المهمة ، فكانوا وراء انتصاراته بثرواتهم ونفوذهم ، وإنما الذي صنع من محمد ﷺ ذلك العظيم الذي ليس كمثله العظماء .. وذلك النبي الذي لم تدانيه في علاه الأنبياء : عقيدته الراسخة ، وإيمانه القوي الذي ملأ قلبه نوراً فلم يعد ممكناً أن يضل أو يتيه في ظلمة من ظلمات الحياة . وملأه طمأنينة فما عادت مصائب الدهر وأهوالها تستطيع أن تؤثر عليه قليلاً أو كثيراً ، وملأه غنى فأصبحت الدنيا بمغرياتها وفتنها لا تساوي عنده جناح بعوضة ، وملأه يقيناً فكان لا يخاف إلا الله ، ولا يرجو إلا الله ، ولا يفرح أو يحزن أو يغضب إلا من أجل الله .

وليس هذا الكلام مجرد عاطفة ، بل ها هو ذا التاريخ يشهد ، وها هي ذي ألمع صفحاته تحكي بعضاً من مواقف الرسول الخالدة التي ضرب بها أروع الأمثال والتي ستظل تنير الطريق للسائرين على دربه إلى أبد الآبدين .

## مثل في الثبات على المبدأ

لقد ظهر الرسول ﷺ صادقاً في دعوته متشبثاً بمبادئه ، مؤمناً بنصر من ربه كأشد ما يكون الإيمان حينما اجتمع أكابر قريش ، وبعد أن باءت تهديداتهم له بالفشل ، ولجأ إلى وسيلة أخرى علها تؤتي أكلها هذه المرة في إرجاعه عن دعوته والعدول عنها ، فماذا كانت هذه الوسيلة ؟ وكيف كان موقف الرسول ﷺ منها ؟ أما الوسيلة فهي الإغراء ، تلك الوسيلة التي طالما انحنت لها رقاب كبار الشخصيات من العلماء والساسة والمفكرين ، فعدلوا عن طرقهم وساروا في طرق مشتريهم ، وتنكروا لأفكارهم ومبادئهم ، بل وأصبحوا لها خصوماً وأعداء ، بعدما اعتنقوا آراء أسيادهم ومبادئهم .. أرسل أكابر قريش إلى محمد ﷺ يقولون : إذا كنت تريد بهذا الذي جئت به جاهاً ومالاً جمعنا لك من أموالنا ما يجعلك أغنانا جميعاً ، وإن كنت تريد سلطاناً ونفوذاً ملّكناك علينا ، واخترنا لك أفخم قصورنا وأجمل صبياننا وأحسن عبيدنا ، وإن كان هذا الذي بك مرض لا تستطيع مقاومته طلبنا لك الأطباء والكهنة فعالجوك ... يا محمد اطلب ما تريد ، شرط أن تدع هذا الذي جئتنا به .

من أين يستطيع إنسان أن يكتسب ضميراً يرد عنه مثل هذا الإغراء ، ومن أية مدرسة ، أو من أي كتاب أو من أي أستاذ يستطيع إنسان أن يتعلم أخلاقاً تقف حائلاً بينه وبين مثل هذا الإغراء ؟

قال محمد ﷺ لمبعوث قريش إليه - الوليد بن المغيرة - بعد ما سمع منه ما عرضت عليه قريش : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري . على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته إلا أن يظهره الله أو أهلك دونه » .

فداك أبي وأمي يا رسول الله ! ما أعظم وما أروع وما أبلغ ما قلت .. كلمات وجيزة ، لكنها شاملة وجامعة . فهو ﷺ بدأ كلامه بالقسم بالله ! الله الذي يساوم في الابتعاد عنه والعدول عن شريعته ، وفي ذلك تحدٍ للمشركين واستهزاء بهم كما فيه تشبث بالمبدأ ، فهو لأول كلمة يعلن رفضه القاطع لما عرضوا عليه من متاع دنيوي رخيص ، وبعد هذا القسم عرض عليهم

أشياء من المستحيل تحقيقها ثم افترض جدلاً لو حققوها له ، فإنه لن يرضى بها ولن يذعن لهم بها ، ولن ينقص ذلك من إيمانه مثقال حبة خردل !

## عـــزم لا يلين .. وصبر فـاق الحدود ...

وظهر الرسول ﷺ ثابتاً صابراً على بلاء الله ، عازماً على المضي في سبيل الدعوة إلى الله ، موقناً بأن الله لن يخذله ، وذلك حينما عاد من الطائف ، وقد خيب أهلها أمله فيهم ، إذ كان يرجو أن يكون عزاؤه لديهم بعدما لقيه من عصيان قريش وعنادهم ، وليتهم لم يستجيبوا له فحسب ، بل اتخذوه سخرياً ، وأغروا به صبيانهم وعبيدهم وانهالوا عليه بسيول من الشتائم والحجارة ، فادموا قلبه كما ادموا جسده . فما ضجر ولا يئس منهم ، وقد كان من الممكن أن يغضب ويثور فيدعو عليهم بالهلاك كما دعا موسى وهارون عليهما السلام حينما خيب فرعون وآل فرعون أملهما فيهم : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (يونس:٨٨) .

أو كما دعا نوح على قومه بعد ما أعياه عنادهم :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ (نوح : ٢٠) .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (نوح:٢٥) .

إن الغضب واليأس اللذين دفعا هذين النبيين إلى مثل ما دعيا به على قومهما ، لم يكن لهما مكان في قلب الرسول الأمين ﷺ الذي قال في موقف أحرج من موقفهما : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون »

وقال بعد ذلك كلماته ، تلك الرنانة البليغة :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملّكته أمري . إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » ( سيرة ابن هشام ) .

## ينبـوع الرقة والرحـمـة

وكان الرسول ﷺ ، رحيماً حليماً يفيض قلبه عطفاً ورقة ورأفة عندما شاء له العلي القدير أن يجني بعض ثمار صبره فأمده بعونه ونصره ، وأصبح عليه الصلاة والسلام ذا أصحاب كثر ، فبعد أن كان مغلوباً أصبح غالباً . وبعد أن كان مستضعفاً بين أهل مكة ، أصبح عزيزاً مكرماً بين أهل المدينة ، وبعد أن كان لا حول له ولا قوة أصبح له إخوة في الله ، أيديهم على سيوفهم ، يحنون إلى قتال المشركين ودرء الأذى عن رسول الله الذي عرفوا منزلته وقدروه حق قدره ...

هنا انقلبت الموازين وتغلب الحق على الباطل ، وأصبح الذين كانوا يعتدون على الرسول الكريم بالأمس في قبضته اليوم وبين يديه ، ويستطيع أن ينتقم منهم إذا شاء . غير أن قلب الرسول ﷺ الذي امتلأت كل خلية فيه بنور من الله لم يبق فيه مكان للحقد أو حب الانتقام ، حتى إن أعداءه الذين كانوا بين يديه كانوا مطمئنين إلى أنهم لن يصابوا بشيء مكروه ، طالما أنهم في كنف الرسول ﷺ لذلك أجابوه بكل ثقة حينما سألهم : « ما ترون أني فاعل بكم ؟ » قائلين : أخ كريم وابن أخ كريم !

عندها قال لهم كلمته الخالدة التي تنم عن مدى سماحة خلقه وصفاء قلبه : « لا تثريب عليكم يغفر الله لكم » ..

هذا هو العفو بمعناه الأسمى ليس ناتجاً عن خوف ، ولا عن عدم القدرة على الانتقام .. ولكن عن أخلاق نبيلة ونفس عظيمة .

## الكل سواء أمام شريعة الله

وظهر الرسول ﷺ كرجل جدي شديد في تطبيق شريعة الله من ألفها حتى يائها . وعلى كل الناس دون أن يميز في ذلك بين غني أو فقير وبين سيد أو عبد ، ودون أن يخشى بطش الأقوياء أو يحترم سمعة الشرفاء أو يتملق ثراء الأثرياء . فهذه امرأة من بني مخزوم تثبت عليها جريمة السرقة ، وما أدراك من هم بنو مخزوم الشرفاء الأقوياء الأثرياء ، الذين قدموا للإسلام أبطالاً كان لهم الفضل في انتشار دعوته ، واتساع رقعته ويكفي أن منهم خالد بن الوليد . وحاول كبار القوم وبعض الصحابة أن يجدوا لهذا الأمر المحرج - أمر السرقة - حلاً ، فسولت لهم نفوسهم أن يتوسطوا لدى النبي ﷺ بحِبِّه ، وأقرب الناس إليه ( أسامة بن زيد ) ليتشفع للمرأة المخزومية التي سرقت ، فماذا كان رد الحبيب المصطفى ﷺ ؟ إنه لم يبتسم ابتسامة تملق لبني مخزوم ، ولم يقل سامح الله فاطمة فإنها من أسرة عريقة في المجد ، بل ثارت ثائرته وقال للوسيط غاضباً : « أتشفع عندي في حدٍ من حدود الله ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ( مسلم ) ، ثم أمر بالمرأة فقطعت يدها .

وبعد ... فهذا هو النبي الذي دعانا الله تعالى للاقتداء به ولزوم طاعته والسير على سنته بقوله :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب:٢١) .

بقلم : صلاح أحمد الطنوبي

# محمد صلى الله عليه وسلم
# الرسول الإنسان

■■ الحمد لله تعالى الذي أكرم المؤمنين ببعثة أشرف الأنبياء والمرسلين : ليكون لهم في الدنيا هدى ونوراً ، وفي الآخرة رحمة وشفاعة ، وليجعل منهم باتباعه خير أمة أُخرجت للناس ، قال الله جَلَّ ثناؤه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة:١٤٣] .

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [ المائدة : ١٥ ، ١٦ ] ■■

فالمرادُ بالنور الإسلام والهداية التي بينها القرآن الكريم .. وكل هذا نور للبصيرة ، ونور للدنيا أشد من نور البصير ، ولهذا النور ثلاث فوائد :

**الأولى** : في قوله : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ فبالنور نهتدي إلى الإيمان والإيمانُ هو حجر الزاوية في بناء الإنسان ..

**الثانية** : بالنور نخرج من الظلمات ، ونتخلص من الأوهام والخرافات إلى الحق والصدق والبرهان .

**الثالثة** : بالنور نسلك الصراط المستقيم ، وهو الطريق الموصّل إلى الله تعالى وإلى المقصد والغاية من الدين والحياة في أقرب وقت ، فطريق الله تعالى ونوره يجد فيه المرء بغيته من السعادة والرضا الإلهي .. وكُلّ هذا الفضل والخير جاء على يد رسول الله ﷺ مشكاة السعادة والهدى لقوله عز وجلّ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ [النساء:١٧٤،١٧٥] .

لقد كان بعث النبي العظيم ﷺ أكبر حدثٍ في تاريخ البشرية ، وإيذاناً بفجر جديد أشرقت شمسه على البشرية فكشفت عنها غيوم الجهل وظلمات الأوهام ، وأطلقت القلوب والعقول من قيود الخرافات والأوهام ، ومن التقاليد البالية والعادات المستهجنة ...

**محمد ﷺ كان خُلُقه القرآن الكريم ..**

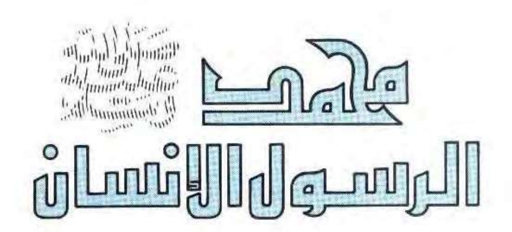
إن أخلاق الرسول ﷺ هي ميزة شخصيته الكبرى ، حتى إنه ليحدد مهمة رسالته بقوله : « **إنما بُعِثْتُ لأتمم مكارِمَ الأخلاق** » .. وأخلاقه كما وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها هي القرآن « **كان خُلُقه القرآن** » .

قال الله عزَّوجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب:٢١] .

لقد أرسله الله تعالى للإنسانية مثالاً أخلاقياً كريماً ، فكان المصطفى الكريم ﷺ الصورة التطبيقية الكاملة للمثل العليا ، وكان بذلك الإنسان الكامل .

لقد كان المثل الأعلى في الرحمة ، والمثل الأعلى في الجهاد ، والمثل الأعلى في الصبر ، والمثل الأعلى العظيم في الصدق وفي الإخلاص وفي الوفاء وفي البر وفي




الكرم ...

ولا ريب في أن الأمة الإسلامية حينما تقتدي بالرسول الكريم ﷺ إنما تقتدي بأعظم البشر رجولة وإنسانية ، وتقتدي بمن أحب الله سبحانه أن تقتدي به ..

## الرحمة في رسول الله ﷺ ..

قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء:١٠٧] .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ [التوبة:١٢٨] .

حدَّد الله سبحانه وتعالى الطابع العام للرسالة الإسلامية ، وحدَّد كذلك بواعثها وأهدافها .. كل ذلك يتمثل في كلمة واحدة : **هي الرحمة** ..

**ولقد قال النبي العظيم ﷺ** : « **إنما أنا رحمة مهداة** » وقال عليه الصلاة والسلام : « **أنا نبي الرحمة** » .. فرسول الله ﷺ هو الرحمة المهداة من الله تعالى إلى خلقه ..

قالت السيدة خديجة رضي الله عنها : « **والله لا يخزيك الله أبداً .. إنَّك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر** » .

لقد كانت نفس رسول الله ﷺ رحيمة حتى مع الأعداء .. لقد قيل له يوم أحد ، وهو في أشد المواقف حرجاً ـ لو لعنتهم يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « **إنَّما بُعثت رحمةً ولم أُبعث لعَّاناً** » .

لقد ملأت الرحمة قلبه ، وفاض بها هذا القلب الكبير ، فغمرت العدو والصديق ، والقريب والبعيد ، والإنسان والحيوان ، إنها كانت تشيع في مظهره ومخبره ، فكانت على فمه ابتسامة رقيقة ، وفي عينيه نظرات حانية ، وعلى وجهه إشراقاً وتهللاً ، وفي يده براً وجوداً ، وفي خلقه سماحة ونبلاً . وذلك من فضل الله تبارك وتعالى على نبيّه ورحمته به ..

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

## النبي العظيم ﷺ في تسامحه وعفوه

إن الرسول الكريم ﷺ أفضل الناس تسامحاً ، وأوسعهم احتمالاً ، مهما وقع به ، أو وجّه إليه حتى إن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها لتقول :

« **ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط ، لا عبداً ولا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا نيل منه شيئاً فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عزَّ وجلَّ** » ( رواه مسلم ) .

وفي رواية أخرى تقول رضي الله تعالى عنها : « **ما خيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة لله ، فينتقم لله بها** » ( متفق عليه ) .

ولقد كان أنس بن مالك رضي الله عنه في خدمة النبي العظيم ﷺ طوال عشر سنين ، لم يلق خلالها إلا كل تسامح وإكرام ، حتى إنه ليقول : « ... فخدمته ﷺ في السفر والحضر ، والله ما قال لي لشيء صنعته لم صنعت هذا هكذا ؟ ولا لشيء لم أصنعه لِمَ لَمْ تصنع هذا هكذا ؟ ولا عاب عليَّ شيئاً قط ، وما أمرني قط بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامني .. وإن لامني أحدٌ من أهله إلا قال : دعوه فلو قدر أن يكون كان ... ولقد أرسلني يوماً لحاجة ، فقلت : والله لا أذهب ، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به رسول الله ﷺ ، فخرجت حتى أمرّ على الصبيان وهم يلعبون في السوق ، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي ، فنظرت إليه وهو يضحك فقال : **يا أنيس : ذهبت حيث أمرتك** ؟ فقلت : نعم أنا أذهب يا رسول الله ... » ( رواه مسلم ) .

وكان رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه** » ( متفق عليه ) .

ولقد كان **عليه الصلاة والسلام** أكرم الناس عفواً مع المقدرة ، آذاه قومه واضطروه إلى الخروج من بلده ، ونكلوا بأصحابه ، فلما أمكنه الله تعالى منهم وأظهره عليهم ودخل مكة دخول الفاتحين ، ووقف بين أهلها موقف القادرين ، لم يملك سوى أن قال لهم وهو قائم على باب الكعبة : « **يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء .. الناس من آدم وآدم من تراب** ، .. ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ**

● كان محمد ﷺ المثل والقدوة والصورة التطبيقية للمثل العليا التي جاء بها القرآن ..

● إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه .. ( متفق عليه )

خَبِيرٌ ﴾ ثم قال :

**يا معشر قريش : ما ترون أني فاعل بكم ؟ »**

قالوا : خيراً .. أخ كريم ، وابنُ أخ كريم .. قال ﷺ : « **اذهبوا فأنتم الطلقاء** » ..

## محمد ﷺ المثل الأعلى في الزهد والقناعة :

زهده وقناعته ﷺ قد ضرب فيهما المثل الأعلى للناس جميعاً ، للراعي والرعية ، والأفراد والجماعات ..

قال ابن مسعود رضي الله عنه : دخلت على رسول الله ﷺ وقد قام على حصير ، وقد أثَّر في جنبه ، فقلت : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه ؟ فقال : « **مالي والدنيا ! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها** » .

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة : يا ابن أختي إن كنَّا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار .. فقلت :

يا خالة ما كان عيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء ، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح ( المنائح : جمع منيحة ، وهي الشاة تعار لينتفع بها ) ، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا .

وكان النبي ﷺ معروفاً بفرط الحب لأولاده ، حتى إن فاطمة ابنته رضي الله عنها كانت إذا دخلت عليه قام إليها وقبلها ، وأجلسها مكانه ، ومع ذلك كانت تعيشُ عيشَةَ الفقراء ، وتشكو من آلام الرحى ، وتجرح يدها أحياناً من حمل الماء ، فطلبت إليه يوماً خادماً من الأسرى فأبى ..

خرج مرة من المسجد فوجد أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فسألهما عن خروجهما ، فقالا : أخرجنا الجوع ، قال : **وما أخرجني إلا الجوع** ، فذهبوا إلى أبي الهيثم ، فأمر لهم بشعير ، وقام إلى شاة فذبحها ، واستعذب لهم ماء معلقاً عنده في نخلة ، ثم أتوا بالطعام فأكلوا وشربوا من ذلك الماء .. فقال ﷺ : **لتسألن عن نعيم هذا اليوم !**

تقول عائشة رضي الله عنها : إنه كان لرسول الله ﷺ حصير يحتجزه في الليل ، فيصلي فيه ، ويبسطه في النهار فيجلس عليه .. وكان في طعامه قانعاً زاهداً .. يقول ﷺ : « **حسب ابن آدم لقيمات يُقمن أودَهُ** » .

ذكر وهو في مرض موته أن في بيته سبعة دنانير ، فأمر أهله أن يتصدقوا بها ، فنسوا لاشتغالهم بمرضه ، وأفاق يوم الأحد الذي سبق وفاته ، فسأل عائشة : ما فعلت بالسبعة الدّنانير ؟ فأجابت أنها لا تزال عندها ، فطلبها ووضعها في كفّه ثم قال :

« **ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه** » ؟ **ثم تصدق بها على الفقراء** .. وقد لقي الله تعالى في كساء ملبَّد ، وإزار غليظ هو لباسه الذي قضى فيه .. ولكنه ترك وراءه نوراً يشع من جبين القناعة والزهد ، يهدي البشر إلى الحياة الطيبة ، ويوجههم إلى ما هو أسمى من متاع الأبدان الزّائلة إلى متاع الأرواح الخالدة ، ولا يزال رسول الله ﷺ في قناعته وزهده قدوة الأبطال والناس جميعاً يتطلعون إلى منتهى قصده ، فلا يدركون منه إلا قليلاً .

## الحبُّ الحقيقي لسيدنا رسول الله ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٣١] .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه (مرفوعاً) : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين** » .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه (مرفوعاً) : « **ثلاث من كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار** » .

**اللهم أدِم علينا وعلى المسلمين نعمة محبتك ومحبة رسولك الكريم محمد ﷺ .. ومن الدلائل على محبة الرسول ﷺ الاقتداء به واتباع سنته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وكثرة ذكره ؛ ومحبَّة القرآن الكريم الذي أنزل عليه ، وكثرة الصلاة والسلام عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ، وإمتاع النفس بمعرفة سيرته الشريفة ، ومجاهدة أعدائه بكل قوة وردّ كيدهم بكل وسيلة ، والدعوة إلى كل ما دعا إليه .**

**وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وأمته وسلم تسليماً كثيراً .**

# محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

○○ حين يحدِّق الباحث في ملامح الحركة التاريخية قبل وبعد ميلاد محمد ﷺ فإنه لا يحتاج إلى معاناة ليستجلي حقيقة موضوعية أكبر من أن تتوارى في غياهب الجدل ، هذه الحقيقة الموضوعية هي أن هذا الميلاد العظيم كان إيذاناً بثورة كونية شاملة عملت عملها الفاعل في تغيير علاقات الأشياء بعضها مع بعض ، وفي تغيير علاقات الأحياء بعضهم مع بعض ، حتى ليمكن القول بأن ما حدث كان تحريراً كاملاً لوضعية الإنسان في الأرض ، ووضعية الأرض في الكون ، ووضعية الزمان في التاريخ !! ○○

يقلم الدكتور : محمد أحمد العزب

أجل ، كان هذا الميلاد العظيم إيذاناً ببدء ثورة شاملة ، حررت الإنسان والزمان والمكان ، ورفعت عنها إصر عبوديَّات كثيرة كانت تعْتاق انطلاقها جميعاً ، فأخذ الإنسان حريته بيديه ، وصاغ هويَّة زمانه ومكانه صياغة جديدة فجَّرت عناصر الخير في كل شيء كان احتجاجاً قَبْلياً على كل عناصر الخير ، فوقف الانسان على ربوة التاريخ يسدد خطواته نحو الأشرف والأفضل ، ووقف المكــان ليلهم ويحتضـن وينبت الأروع والأنصع ، ووقف الزمان ليفسح ويتيح للأكمل والأشمل !!

**ولكن كيــــف ؟**

**كـــيف حرر محمد ﷺ الإنسان من ربقة عبودياته المتعددة ؟**

**كيـــف حرر محمد ﷺ الزمان من قبضة كونه إطاراً للحركة التاريخية الهابطة ؟**

**كيـــف حرر محمد ﷺ المكان من وضعية كونه صنماً أو مناطاً لصنم معبود على الأرض ؟**

القضيـة جـرت بهـا أقـلام كثـير من الباحثين ؛ ولكنهم تناولوها من منظور كمي إذا جاز أن يقال ، بمعنى أنهم رصدوا كَمَّ التحـول التاريخي عـلى مستـوى سيـاسي واجتماعي وثقافي وعقائدي ، دون أن يفطنوا إلى جدل هذه المستويات وإشعاعاتها التي تشكل خلفياتها الحقيقية ، وهو ما نحاول تجليته في هذه السطور . .

**ولكن . . كيف . . مرة أخرى ؟**

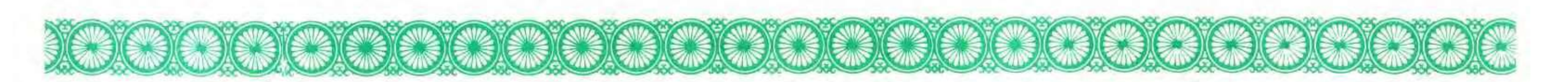
[٢]

التاريخ هنا لا يستطيع أن يكذب حتى على نفسه . . فإن ثورة محمد ﷺ من أجل إنسانية الانسان تكاد تشكل كل ملامح رسـالته الشامخة ، لأن القيم والأعـراف والمبادىء والنواميس والأحكام والشـرائع والقضـايا والمقولات التي يمكن أن تشكل في النهاية مجموع الرسالة الاسلامية ليست بذات بال إن هي فقدت محور وجودها الصميمي الذي هو الانسان .

إن قيـام الانسـان بهـذه المـواضعـات الاسلامية هو ما يعطيها معقولية وجودها على الأرض ، ومن هنا نستطيع أن نفهم أن نزول القرآن (منجّماً) كان ترتيباً طبيعياً على مقدمة أساسية وهي أن معاناة البشر الكادحين هي بالضرورة محور تنزل الوحي من السماء إلى الأرض ، أي أن وجود الشرائع والرسالات هو وجود متوقف على وجود آخر قبلي ومسبق وهو الوجود الانساني ، **فما لم يوجد الانسان كان لا يمكن أن توجد الشرائع ، وما لم يحفر البشر تاريخهم الحلوليّ على أخاديد الصخور وأعراف الجبال كان لا يمكن للرسالات أن تحفر تاريخها الحلولي على أخاديد الورق أو في أعراف الطبائع والنفوس !!**

وإذن فقد كان تحرير محمد ﷺ للانسان تحريراً مقصوداً وقبلياً ، ولذلك فإن حجم هذا التحرير يعطي قناعة أن كل الجراح التي نزفت من محمد ﷺ كانت جراحاً حميمة إلى قلبه ، لأنها نزفت دماً هنا وَرَقَأَتْ دماً بلا حدود هناك ، أعني أن كل قطرة دم أو عرق نزفت من جبين محمد القائد الرسول ﷺ قد استحالت في تاريخ الانسان على امتداد هذا التاريخ إلى يد برة حانية تمسح عن جبينه طوفان الدم وشلال الدموع ، إن الجراح التي نزفت هناك من جبين محمد ﷺ وهو يعدل مسار الكون والتاريخ والانسان ، هي التي تتيح لهذا الانسان أن يقبض في رحاب الكون والتاريخ على انسانيته بيديه ، غير غارق في طوفان الرجعة الذاهلة إلى حرب الأعراق الفاجرة ، أو إلى انحناء الجذع الانساني أمام حجم حجري بليد ، أو إلى الضياع في مسارب اللذات غير مبدع ما يبقى عـلى التاريخ عنواناً على عظمة البشر ومجد الانسان في الأرض !!

كان الانسان ـ **قبل محمد ﷺ** ـ يتكىء في قناعته على مسلَّمات كثيرة ، **فأطلق محمد ﷺ فيـه ثورة العقـل وثورة الجسـد وثـورة الروح . . لقد زلزل هذا الإنسان بثورة العقل معاقل الخرافة ، وأسوار التجمد ، وحوائط الانغلاق ، فأطلق لفكره العنان يجول في أبهاء الـزمن والتاريـخ والكون والثقافات ، يشيد من بعضها ما يراه موائمًا لطبائع التطور ، ويشيد على أنقاض بعضها الآخر ما يراه عاجزاً عن مواكبة الطموح البشري في اندفاعه مع تيار التواصل الكوني والانساني . . وزلزل هذا الانسان بثورة الجسد مقاصير العنت ، ومناطق الخوف ، وأحـراش الرهبـوت ، فأطلق لـلإبـداع**



# محور الإنسان والزمان والمكان

○ إن القيم والأعراف والمبادىء والنواميس والأحكام والشرائع ليست بذات بال إن هي فقدت محور وجودها الصميمي الذي هو الانسان ○

○ الاسلام يرفض أن يوجد على الأرض إنسان بليد بلا عقل وكاسد بلا عمل ومعطل بلا أشواق ○

○ الزمن في تصور الانسان المسلم ثروة ينبغي أن تستغل وعمر يجب أن يمتلىء وتاريخ لابد أن يحتوي أروع ما في الانسان من طاقات وإبداعات ○

**الانساني آفاق طموحه المشروعة ، وأمَّن لخطوات التاريخ على طرائق الخير والحق ، وجعل من (القيمة) وحدها مقياس التوافق مع الوجود الانساني النبيل الذي يرفض أن يشارك في مهزلة الأعلى والأدنى على ضوء مقاييس البطش والارهاب** . . وزلزل هذا الانسان أخيراً بثورة الروح تاريخ الهمجية على الأرض ، فأطلق لأشواقه العليا أن تلوذ بمناطها الطبيعي ، وأن تستريح من قرِّها إلى دفء الألوهية .

وهكذا يتوافق إيقاع ثورات العقل والجسد والروح تلك التي أطلق شرارتها الأولى محمد ﷺ لتؤلف في النهاية هذا الكون المسلم الذي يرفض إنسانه أن يوجد على الأرض بليداً بلا عقل ، وكاسداً بلا فعل ، ومعطلاً بلا أشواق ، وهذا هو حجم التحول الذي قاده هذا الانسان النبي ﷺ في أحلك فترات التاريخ قتامة وجهامة وانطفاء !!

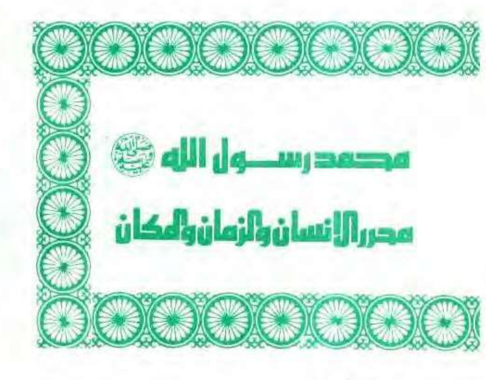
**[٣]**

وليس فعل محمد ﷺ في تحرير الزمان بأقل من فعله في تحرير الانسان ، وإن كنا نلاحظ منذ البدء أن الفصل بين الانسان والزمان فصل عشوائي وغير مبرر على الاطلاق ، إلا أن التقسيم المرحلي لقيمة الفعل البطولي الذي قاده النبي محمد ﷺ يحتم أن نقف عند كل مرحلة على مشارف لا نتعدى إطارها إلى إطار آخر حتى لا تختلط التخوم والأبعاد . . إن تحرير **محمد** ﷺ للزمان يتوهج في حقيقة أولية توشك أن لا تلمحها البَدَائِهُ العَجْلَى ، وهي اقتداره العظيم على اقتلاع حركة الزمان بما هو تاريخ من فوضى التدفق العشوائي إلى تحديد الملامح وتجسيد الهويات ، بمعنى أن التاريخ الزمني كان إطاراً سائباً لا تجري داخله حركة عقائدية محددة تبدع للانسان شوطاً يجريه ، أو هدفاً يحققه ، أو إنجازاً يضعه على الأرض . . فجاء محمد ﷺ ليجعل من هذا التاريخ الزمني إطاراً لحركة تبدأ تخومها من الأرض لتنتهي في السماء ، أي ان حجم هذه الحركة العقائدية التي أعطاها محمد ﷺ للتاريخ الزمني محتوىً ومضموناً ، تبدأ بمفردات الوجود الانساني على الأرض لتتوافق في نهاية الرحلة مع كلية الوجود الإلهي في الأشياء وما قبل الأشياء وما وراء الأشياء !!

هذا شيء . . وشيء آخر لا يقل عن ذلك تأصلاً واشعاعاً . . **ذلك هو انتقال محمد ﷺ بالتاريخ الزمني من شواطىء المواجهة للإنسان إلى شواطىء العناق للإنسان ، بمعنى أن التاريخ الزمني كان قبل محمد ﷺ عدواً للانسان يتربص كل واحد منهما بالآخر في محاولة لإجهاض وجوده على الأرض ،** ولذلك نرى المساحة الكبرى من الإبداع العقلي والفني لإنسان ما قبل التاريخ الاسلامي تغص بقتل الانسان لزمنه التاريخي في قصف هنا ، أو لهو هناك ، أو حرب غير مبرّرة هنالك ، ربما لإحساس هذا الانسان بأن الزمن التاريخي يتربص به ، فهو يحاول قتله قبل أن يستطيع هو أن يقتله ، وكلاهما قاتل ومقتول في نفس اللحظة وعلى نفس التراب !! حتى إذا جاء محمد ﷺ وانتقل بالتاريخ الزمني من شواطىء **المواجهة** إلى شواطىء **المعانقة** ، وشكل للانسان حاسة تاريخية ترى في اللحظة الآنيَّةِ إثراءً طبيعياً للحظة الحاضرة ، وفي الآن الماضي تربةً طبيعية لتشكيل الآن المستقبل ، استطاع الانسان بعدها أن يفيق على حقيقة أن الزمن هو إطاره الطبيعي ، وأن تدمير الاطار يعني على الفور تدمير الذات الساكنة في هذا الاطار ، فَعَزَفَ عن مناوأة تاريخه الزمني ، وعقدا معاً ما يشبه الحلف المقدس ، **فأحسَّ الانسانُ المسلم دائمًا أن الزمن ثروة ينبغي أن تستغل ، وعُمْرٌ يجب أن يمتلىء ، وتاريخ لابد أن يحتوي أروع ما في الانسان من طاقات وإبداعات !!**

وما لنا لا نحاول أن نفهم من المواقيت الزمنية الصارمة للصلاة والصيام والحج والزكاة فوق حكمة مشروعيتها حكمة حلولها في وقت معين وزمن بذاته ربما لتحرك في أعماق الطبيعة الانسانية قيمة الزمن والاحساس بتاريخية كل الأشياء ؟؟

**الحق أن حجم التحول الذي قاده النبي العظيم محمد ﷺ في مجال تحرير الانسان والزمان حجم يجب أن يظل في مناطق الضوء ، لأن به وحده يمكن التعرف على ضخامة العطاء الانساني والرسالي الذي وهبه لنا هذا النبي الانسان ﷺ ، الذي حمل في عينيه أحلام مستقبل البشر .**

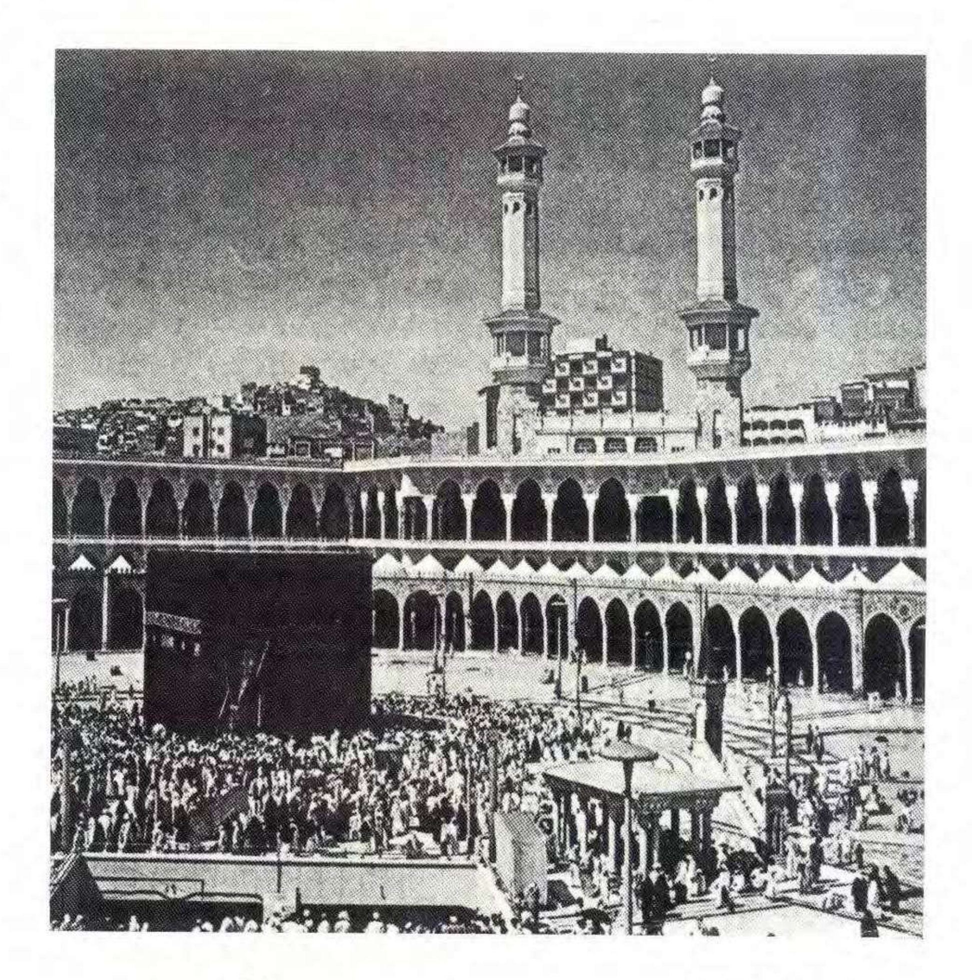



[٤]

فإذا انتقلنا إلى تأمل ملامح الحركة الثالثة وهي تحرير محمد ﷺ للمكان ، لراعنا أن قوة الفعل هنا لا تقل عن روعة الفعل هناك ، فإذا تخطينا ملاحظة أن الفصل هنا كذلك بين الانسان والزمان والمكان فصل مرحلي تحتمه طبيعة التأمل والفهم ولا تحتمه طبائع الأشياء لأن طبائع الأشياء ترفض هذا الفصل ولا تزكيه ، إذا تخطينا ذلك كله إلى محاولة تأمل قيمة الفعل الذي أعطاه **محمد** ﷺ لتحرير المكان تتميًا لتحرير الانسان والزمان ، لبدهنا على الفور أن علاقة الانسان هنا بالمكان غير علاقة الانسان هناك بنفس المكان ـ بمعنى أن المسرح المكاني الذي جرت عليه أحداث الحياة قبل البعثة المحمدية هو نفس المسرح المكاني الذي جرت عليه أحداث الحياة بعد البعثة المحمدية ، ولكن علاقة انسان الجاهلية بهذا المكان غير علاقة انسان الحركة الاسلامية بنفس هذا المكان ، لأن طبيعة الجدل بين الانسان وإطاره الطبيعي الذي هو المكان قد وضعت في المنظور الاسلامي على مستوى آخر يرى في الأشياء صديقاً وملهمًا ومحراباً ، إن الأرض هنا تصبح **( مسجداً وطهوراً )** . . ويصبح **(المكان)** قبلة وكعبة ومنسكاً وبيتاً وحقلاً وميداناً وملاعب ذكريات . . وإذا كان محمد ﷺ قد حرر جبين الأرض من أن تصبح مجرد صنم أو مجرد مناط لصنم ، فإن ذلك يعني أنه قد حررها من أن تكون بوضعيتها المكانية غير قادرة على الالهام والعطاء ، لأن صنمية الأشياء تعني رفض تعقل الأشياء ، أي أن الصنم يتطلب عقلاً صنمًا لا يفكر ، لأنه إذا تحرك بالفكر رفض على الفور مقولة أن يخر لحجرية الصنم . . فإذا حرر **محمد** ﷺ هذا التاريخ الطبيعي الذي نسميه الأرض ، أو نسميه المكان من أن يكون صنمًا أو مناطاً لصنم ، فإن ذلك يعني أنه أعطى هذا التاريخ الطبيعي اقتداره الطبيعي على أن يلهم ويحرك ويستثير ، بمعنى أن الأرض بهذه الوضعية تصبح مجالاً لتأمل الفكر ، وطموح العقل ، وجسارة الاستشفاف ، وما دام ذلك كذلك ، فإن رحلة العروج الإيماني قد تبدأ من نبتة طالعة في الصخر ، أو نبع متدفق في الرمال ، أو شفق هائم على صدر الأفق ، أو مضيق متعرج بين جبلين . . وهنا لابد أن نفطن إلى نداءات **محمد** ﷺ المتواصلة التي كان يعقد فيها صداقة كونية بين مظاهر الطبيعة وإنسان هذه الطبيعة ، حتى لنراه يدمع وهو يفارق مكة ، ونراه ينحني على الزرع الطالع في تعاطف حميم ، ونراه يقبل الحجر الأسود ، ونراه يميط الأذى عن الطريق . . إن هذا الفعل الرسولي ليس فعلاً عشوائياً يمتد من داخل الذات إلى محيط الإطار في عفوية ساذجة ولكنه يمتد من داخل الذات إلى محيط الإطار ليشكل هذا التواصل الوجداني بين الكون والانسان ، ربما ليستحيل الكون في الانسان إلى كتاب مقروء الصفحات فهو صاعد به إلى قمة الوعي ، وربما ليستحيل الانسان في الكون إلى طاقة متلقية وواهبة تعطي الكون معنى ان كان ومعنى أن يكون ، وهذه هي قيمة الفعل في تجاوب الأشباه والنظائر ، كما هي قيمة الفعل في تجاوب النقائض والأضداد !!

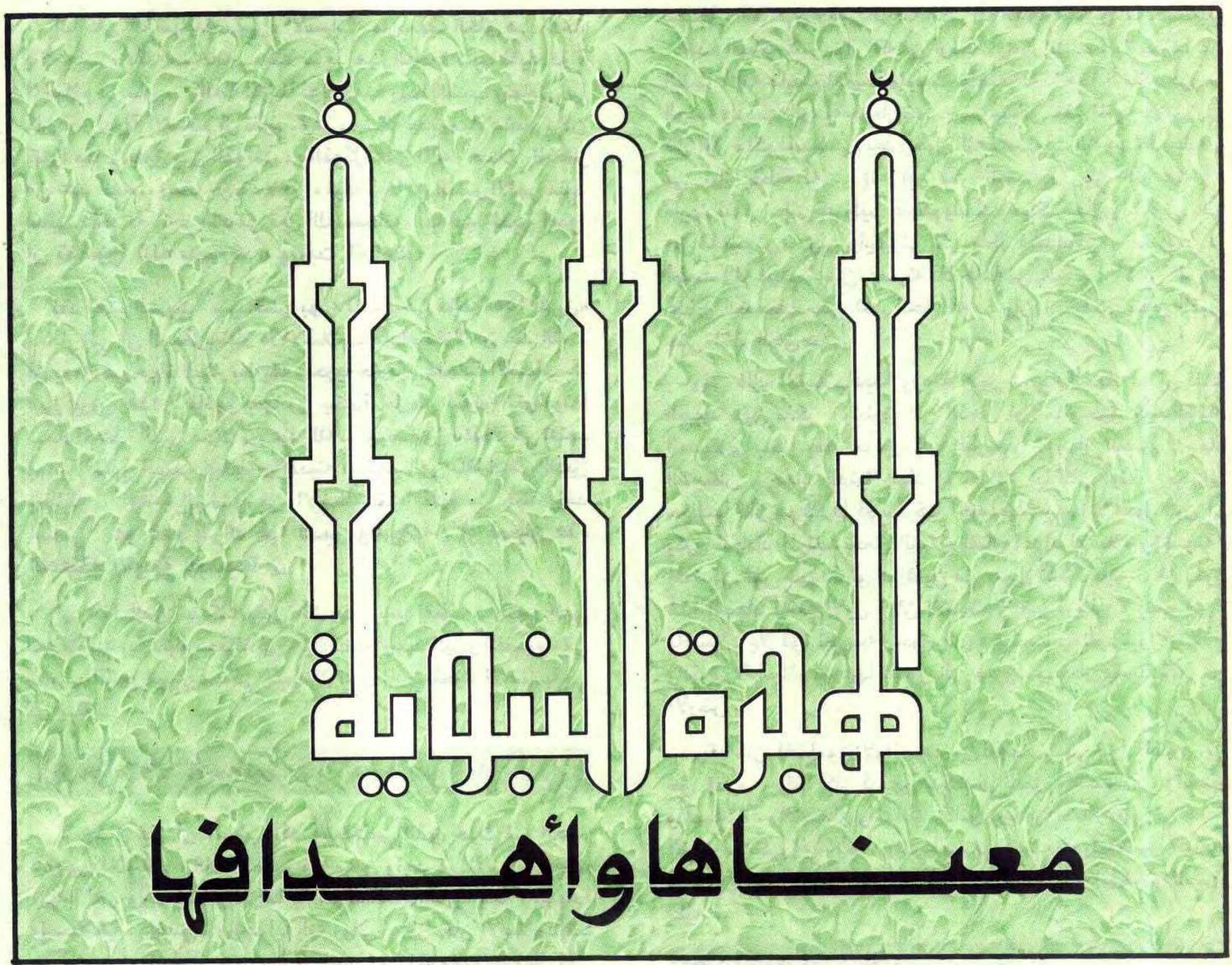
لا أدري بعد . . هل يمكن أن تغيم مقولة أن **محمداً** ﷺ حرر الانسان والزمان والمكان منذ لحظة وجوده على الأرض فاعلاً وغلاباً ؟ أم أن هذه المقولة بعد تأمل كل هذه المفردات يمكن أن تكون كما يكون طلوع الشمس في أعقاب ليل بهيم ، حركة كونية لها ثقل الحركة بكل أبعادها الهائلة ، ولها جلال الكون بكل أسراره وغوامضه وضوافيه ؟؟

**أعرف أن الاختيار الأخير هو الأصوب !! وأن ما عداه . .**
**خرافة يجب أن نهزمها في عقل التاريخ !!!**



﴿ إلاّ تَنصُرُوهُ فقد نصره اللهُ .. إذْ أخرجهُ الذين كفروا ، ثانيَ اثنين إذْ هُما في الغار ، إذْ يقولُ لصاحبِهِ لاتحزنْ ، إن الله مَعنا ، فأنزلَ اللهُ سكينتَهُ عليهِ وأيّدهُ بجنودٍ لم تروْها .. وجَعلَ كلمةَ الذينَ كفروا السُّفلى ، وكلمةُ اللهِ هيَ العُليا ، واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾.

٤٠- سورة التوبة




للأستاذ نبيه عبد ربه

● يعتبر حادث الهجرة فيصلا بين مرحلتين من مراحل الدعوة الاسلامية ، هما المرحلة المكية والمرحلة المدنية ، ولقد كان لهذا الحادث آثار جليلة على المسلمين ، ليس فقط في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن آثاره الخيرة قد امتدت لتشمل حياة المسلمين في كل عصر ومصر ، كما أن آثاره شملت الانسانية أيضاً ، لأن الحضارة الاسلامية التي قامت على أساس الحق والعدل والحرية والمساواة هي حضارة انسانية ، قدمت ولازالت تقدم للبشرية أسمى القواعد الروحية والتشريعية الشاملة ، التي تنظم حياة الفرد والأسرة والمجتمع ، والتي تصلح لتنظيم حياة الانسان كانسان بغض النظر عن مكانه أو زمانه أو معتقداته .

● فسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم لا تحد آثارها بحدود الزمان والمكان ، وخاصة أنها سيرة القدوة الحسنة والقيادة الراشدة قيادة محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، وما نتج عن هذه الهجرة من أحكام ليست منسوخة ولكنها تصلح للتطبيق في كل زمان ومكان مادام حال المسلمين مشابهاً للحال التي كانت عليها حالهم أيام الهجرة الى يثرب .

وعلى هذا فان معاني الهجرة يمكن أن يأخذ بها المسلمون فى زماننا هذا ، بل إن الأخذ بها ضرورة حياتية ، لأن الهجرة لم تكن انتقالا مادياً من بلد الى آخر فحسب ، ولكنها كانت انتقالا معنوياً من حال الى حال ، إذ نقلت الدعوة الاسلامية من حالة الضعف الى القوة ومن حالة القلة الى الكثرة ، ومن حالة التفرقة الى الوحدة ، ومن حالة الجمود الى الحركة .

إنَّ الذينَ آمنوا ، والذينَ هاجروا وجاهدوا في سبيلِ الله ، أولئكَ يرجُونَ رحمَةَ اللهِ ، واللهُ غفورٌ رحيم . ٢١٨ - البقرة

والذينَ آمنوا وهاجروا وجاهَدوا في سبيل اللهِ ، والذينَ آوَوْا ونصَروا ، أولئِكَ هُم المؤمِنونَ حقاً لهُمْ مغفِرةٌ وأجرٌ كريم . ٧٤ - الأنفال

● **فالهجرة تعني لغة ترك شيء الى آخر ، أو الانتقال من حال الى حال ، أو من بلد الى بلد ،** يقول تعالى «والرجز فاهجر» (المزمل ٥) وقال أيضاً «واهجرهم هجراً جميلا» (المزمل ١٠) ، **وتعني بمعناها الاصطلاحي الانتقال من بلاد الشرك الى بلاد الاسلام ،** وهذه هي الهجرة المادية ، أما الهجرة الشعورية فتعني الانتقال بالنفسية الاسلامية من مرحلة الى مرحلة أخرى بحيث تعتبر المرحلة الثانية أفضل من الأولى كالانتقال من حالة التفرقة الى حالة الوحدة ، أو تعتبر مكملة لها كالانتقال بالدعوة الاسلامية من مرحلة الدعوة الى مرحلة الدولة .

● **فالهجرة المادية** من بلد لا يحكم بالاسلام الى بلد تحكمه شريعة القرآن ليست منسوخة ، بل هي واجبة على جميع المسلمين اذا خشوا أن يفتنهم الذين كفروا في دينهم وعقيدتهم ، لأن هدف المسلم في الحياة أن يعيش في مجتمع يساعده على طاعة الله والالتزام بأوامره وأحكامه ، أو على الأقل لا يحاربه بعقيدته ، لأن الفتنة في الدين هي الفتنة الكبرى ، فالله تبارك وتعالى يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ولكنه لا يعطي الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

**وتتم هجرة المسلم من بلد الى آخر لعدة أهداف :**

● **فقد يهاجر المسلم فراراً بدينه وعقيدته ، حتى لا يرده الحكام الكافرون الى الكفر ،** كما فعل بعض مسلمي الجمهوريات الاسلامية حينما هاجروا من بلادهم فراراً من الشيوعية الملحدة . يقول تعالى «يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون» (العنكبوت ٥٦) ، ويقول صلى الله عليه وسلم «من فر بدينه من أرض الى أرض وان كان شبراً منها وجبت له الجنة وكان رفيقاً لأبيه إبراهيم» .

● **وقد يهاجر المسلم فراراً من ظلم اجتماعي أو اقتصادي لحق به وخشي إن لم يهاجر أن يمتد ذلك الظلم الى دينه ،** يقول تعالى «والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهمفي الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون» (النحل ٤١) وقال تعالى «ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً» (النساء ١٠٠)

وروى الامام أحمد عن أبي يحيى مولى الزبير بن العوام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيراً فأقم» . وقد توعد القرآن الكريم المسلمين الذين لم يهاجروا الى المدينة بعد أن هاجر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما توعد الأعراب الذين آمنوا ولم يهاجروا الى المدينة حرصاً على أموالهم وديارهم فقال تعالى «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا» (النساء ٩٨) وكانت نتيجة ذلك أن بعض هؤلاء فتن في دينه واضطر الى اظهار التقية ، ولكن هذه التقية كانت جائزة يوم أن لم تكن للاسلام دولة أما بعد أن هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة وأقام فيها دولة الاسلام ، فلم يعد لهؤلاء عذر ، بل وجبت عليهم الهجرة ، ولهذا نجد القرآن الكريم لا يفرض على المسلمين ولاية هؤلاء ، لأنهم ليسوا أعضاء في المجتمع الاسلامي ، واذا كانت تربطهم بالمسلمين رابطة العقيدة فإن نصرتهم تكون بناء على طلب منهم ، يقول تعالى «والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق» (الانفال ٧٢) .

● **ويتحتم على المسلم أن يهاجر من أرض الشرك الى أرض الاسلام حينما تقوم الدولة الاسلامية ويتكون المجتمع الاسلامي** والهجرة هنا حسب مقتضيات الحال ، إذ أن الهدف هنا تدعيم الدولة الاسلامية الجديدة بقوى بشرية وتقنية وعلمية ، ولكن تقدير هذا كله متروك لقادة هذه الدولة ، لأن الهجرة العشوائية قد تترك آثاراً سلبية على هذه الدولة فتصبح عقبة في طريق قوتها وانطلاقها .

● **أما الهجرة الشعورية ، فتعني اصطلاحاً انكار ومعاداة كل ما لا يرضي الله أو يخالف شريعة الله ،** ويظهر المسلم هذا العداء بكل الوسائل الممكنة ، بالجوارح أو باللسان أو بالقلب ، ويعمل على تغييرها بكل الامكانات المتاحة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان» . وأساس هذه الهجرة النية ، ولهذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه» ، ومن هذا نرى أن الشارع الحكيم قد حدد نوعين من الهجرة لا ثالث لهما : هجرة الى الله ، وهجرة لغير الله ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ــ «الهجرة خصلتان ، إحداهما أن تهجر السيئات والأخرى أن تهاجر الى الله ورسوله ، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة» .

**اذا كانت الهجرة المادية تجب في بعض الأحوال ، فان الهجرة الشعورية واجبة على كل حال وفي كل حين ، لأنها تتعلق بهجر ما لا يرضي الله تعالى ، وهي قائمة الى أن تقوم الساعة،** ورد في صحيح مسلم ان مجاشع بن مسعود السلمي قال : ــ جئت بأخي أبي معبد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح ، فقلت يا رسول الله بايعه على الهجرة ، فقال صلى الله عليه وسلم «قد مضت الهجرة بأهلها» قال مجاشع فبأي شيء تبايعه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «على الاسلام والجهاد والخير» ، ويقول صلى الله عليه وسلم «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها» أما قوله صلى الله عليه وسلم «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» فالمراد بها هنا أن لا هجرة واجبة بعد الفتح» ، وقد زاد (مسلم) (واذا استنفرتم فانفروا) .

**والمسلم مكلف بأن يهجر كل ما حرم الله ، وأن يهاجر إلى ما أحل الله ، لأن هذا هو الهدف من استخلافه في الأرض لقوله تعالى «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»** (الذاريات ٥٦) ، وهل العبادة إلا طاعة الله فيما أمر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر ؟! ولهذا فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم باب الهجرة على مصراعيه أمام كل راغب فيه ، فقال عليه الصلاة والسلام «المسلم من سلم

**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليّ ولولا أني أُخرجت ما خرجتُ منك ..** رواه أحمد وابن ماجه والترمذي

المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» (رواه البخاري) وفي رواية (ابن حبان) (المهاجر من هجر السيئات ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) .

**والمعنى الذي حدده المصطفى صلى الله عليه وسلم للهجرة معنى عام ، تمتد جذوره الى أعماق الحياة البشرية ، فتقيمها على أسس قويمة** ، أسس تقوم على أساس الاصلاح والصلاح للحياة الانسانية ، والأمن والاستقرار للنفس البشرية ولهذا كانت كلمات الحديث الشريف متكاملة في تحديدها معنى الهجرة على **أساس أنها (عبادة) ترتبط بعقيدة الانسان وايمانه** ، وعلى أساس **أنها عملية بناء واصلاح تأخذ بيد الانسانية المعذبة الى شاطىء** الأمان والاطمئنان ، فهجر ما نهى الله عنه يعني هجر السيئات والمعاصي والمفاسد القولية منها والفعلية ، والتي هي الأساس فى فساد البلاد والعباد ، **ولهذا أكد الحديث على (كف اللسان واليد) إذ أنهما الأعضاء التي تصدر عنها المفاسد القولية والفعلية ،** واذا كانت هذه الأعضاء سلاحاً ذا حدين يمكن أن يصدر عنها الخير كما يمكن أن يصدر عنها الشر ، فان امكانية صدور الشر عنها أرجح من صدور الخير ، ولهذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) (متفق عليه) .

**واللسان اسم العضو الذي يصدر عنه الكلام** ، وعبر الحديث باللسان عن الكلام ليندرج تحته كل أنواع الكلام ، وقدم الحديث اللسان على اليد لأن الايذاء باللسان أسهل وأشد تأثيراً على النفس من الايذاء باليد ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لحسان ابن ثابت (أهج المشركين فانه أشق عليهم من رشق النبال) ورحم الله من قال : ـ

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسان

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى بها رضوانه الى يوم يلقاه ، وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله بها سخطه الى يوم يلقاه) (رواه مالك والترمذي) .

**واليد اسم العضو الذي تصدر عنه الأفعال ، حسية كانت أم معنوية ، فالحسية** : ـ كالضرب والسرقة والكتابة والاشارة . **والمعنوية** : ـ كأكل مال الناس بالباطل ، والاستيلاء على حقوق الآخرين بغير حق ، واليد مظهر السلطة الفعلية ، ففيها يحدث الأخذ والمنع ، والبطش والقهر ، **فاذا أضفنا إلى هذين العضوين عضواً ثالثاً هو (الفرج) نجد أن الاسلام أقام الحياة الانسانية على دعائم قوية من تقوى الله والخلق الحسن والأمان والاطمئنان ،** وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ فقال : تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال : ـ الفم والفرج (رواه الترمذي وابن حبان والبيهقي) .

● **وكان الهدف من الهجرة هدفاً عظيماً ، وهو الانتقال بالرسالة الاسلامية من مرحلة الدعوة الى مرحلة الدولة** ، والمؤرخون يقسمون سيرة الدعوة الاسلامية الى مرحلتين متميزتين: **العهد المكي** الذي يمثل مرحلة الدعوة ، **والعهد المدني** الذي يمثل مرحلة الدولة ، ولكنني أرى أن بين هاتين المرحلتين مرحلة انتقالية تمثل مرحلة الثورة ، لأنها نقلت الدعوة الاسلامية نقلة هائلة سريعة من مرحلة كان هدفها تربية الفرد المسلم الى مرحلة أصبح هدفها تكوين المجتمع المسلم ، ومن دعوة كانت مجرد عقيدة وفكرة الى دعوة أصبحت شريعة ودولة ، ومن حركة محدودة الآثار الى حركة عالمية الأهداف ، ومن دعوة أتباعها قلة مستضعفون الى دعوة أتباعها سادة فاتحون ، ولهذا كانت الهجرة ثورة عقائدية ، بكل ما تحمله هذه العبارة من معان ايجابية ، لأنها غيرت أحوال المسلمين تغييراً جذرياً فنقلتهم من الضعف الى القوة ، ومن القلة الى الكثرة ، ومن الانحصار الى الانتشار ، ومن الاندحار الى الانتصار ، ولم تقف آثارها عند هذا الحد بل كانت ثورة على كل ما يخالف شريعة السماء وفطرة الانسان السليمة ، فشملت آثارها النواحي العقائدية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

● **لقد كان هدف المصطفى صلى الله عليه وسلم من هجرته الى المدينة ايجاد موطىء قدم للدعوة لكي تنعم بالأمن والاستقرار** حتى تستطيع أن تبني نفسها من الداخل ، وتنطلق لتحقيق أهدافها في الخارج ، ولقد كان هذا الهدف أملا يراود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال مرة لأصحابه «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة الى أرض بها نخل ، فذهب ظني إلى أنها اليمامة أو هجر ، فاذا هي مدينة يثرب» .

● **كما كان هدف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الهجرة تكثير الأنصار وايجاد رأي عام مؤيد للدعوة** ، لأن وجود ذلك ، يوفر عليها الكثير من الجهود ويذلل في طريقها الكثير من الصعاب ، لأن المحيط الذي تعيش فيه الدعوة هو المنبع الذي يزودها بالأنصار ، والمجال الخصب الذي تتحقق فيه الأهداف ، والمنطلق الذي تنطلق منه الطاقات ، ولهذا حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث (مصعب بن عمير) الى المدينة ليعلم الأنصار الاسلام وينشر دعوة الله فيها ، ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وجود رأي عام مؤيد للدعوة في المدينة حث أصحابه الى الهجرة اليها وقال لهم (هاجروا الى يثرب فقد جعل الله لكم فيها اخواناً وداراً تأمنون بها) .

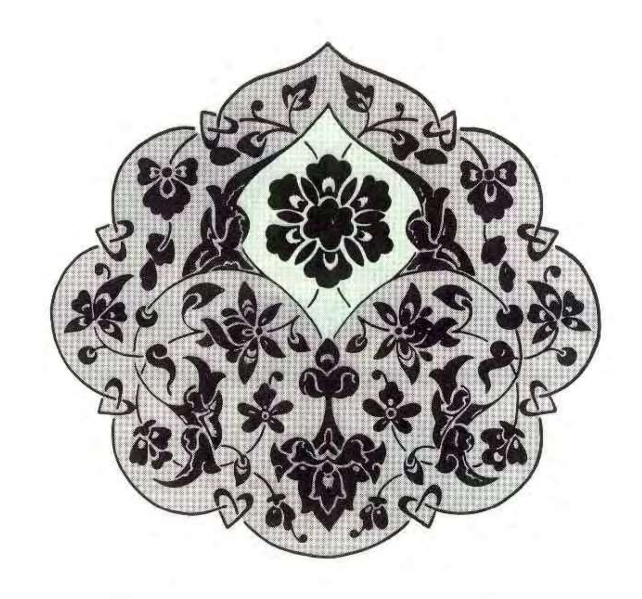
● **كما كان هدف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الهجرة (استكمال الهيكل التنظيمي للدعوة)** ، فقد كان وضعاً شاذاً أن يكون الرسول القائد في مكة ، والأنصار والمهاجرون في المدينة ، ولهذا هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكون بين ظهراني أتباعه ، لأن الجماعة بدون قائد كالجسد بلا رأس ، ولأن تحقيق أهداف الاسلام الكبرى لا يتم إلا بوجود جماعة مؤمنة منظمة ، تغذ السير الى أهدافها بخطى وئيدة .

فما أحوج المسلمين اليوم إلى هجرة إلى الله ورسوله : هجرة إلى الله بالتمسك بحبله المتين وتحكيم شرعه القويم ، وهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، باتباع سنته ، والاقتداء بسيرته ، فإن فعلوا ذلك فقد بدأوا بالسير في الطريق الصحيح ، وبدأوا يأخذون بأسباب النصر ، وما النصر إلا من عند الله .

ويسألونك متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً .



**نبيه عبد ربه**



# تأمين قاعدة الإسلام بالمدينة بعد الهجرة

□□ من أهم ما ينبغي أن نذكره في هذا العصر بالتأمل والدرس أن قاعدة الاسلام في المدينة بعد الهجرة كانت هي الأساس في بناء التاريخ الاسلامي المجيد ، وأن الأسس التي قامت عليها كانت تجسيداً لتعاليم الاسلام في توجيه حياة الأمة ، وتنظيم أركان الدولة في مختلف الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية . ولو ركزنا النظر على القدرة الدفاعية ، لوجدنا أن سياسة الرسول ﷺ في بناء تلك القدرة قد حققت في خلال عشر سنوات فقط إعداد جيش قادر ـ ليس على تأمين شبه الجزيرة العربية فحسب ـ بل على مواجهة جيوش القوى الكبرى المحيطة بها : فارس في الشرق ، وبيزنطة في الشمال والغرب □□

بقلم : اللواء الركن جمال الدين محفوظ

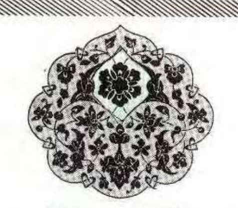
## أولاً : إقامة جبهة داخلية صلبة ..

ولقد كان أول ما عمد إليه الرسول ﷺ في المدينة ، إقامة جبهة داخلية صلبة ، وذلك بجمع صفوف المسلمين ، وتوحيد جبهتهم ، وإيجاد رابطة قوية بينهم ، وبتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لسكان المدينة كافة من المسلمين والمشركين واليهود :

- بربط المهاجرين والأنصار بالمؤاخاة .
- وبتوحيد صف الأنصار من أوس وخزرج .
- وبعقد معاهدة بين المسلمين من جهة وبين اليهود والمشركين من أهل المدينة من جهة أخرى لتنظيم شؤون الحياة لهم جميعاً .

## ثانياً : القضاء على محاولات تفتيت الجبهة الداخلية ..

وحرص الرسول ﷺ على تأمين سلامة الجبهة الداخلية



# تأمين قاعدة الاسلام بالمدينة بعد الهجرة

بالتصدي لمحاولات تفتيتها أو إضعافها ، ومن ذلك ما أخرجه ابن اسحاق وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال : مرَّ شاسُ ابن قيس ـ وكان يهودياً ـ على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون ، فغاظه ما رأى من تآلفهم بعد العداوة ، فأمر شاباً من يهود أن يجلس بينهم فيذكرهم يوم بعاث ، ففعل ، فتنازعوا وتفاخروا حتى وثب رجلان : أوس بن قيظي من الأوس ، وجعار بن صخر من الخزرج فتقاولا ( تبادلا التفاخر ) وغضب الفريقان وتواثبوا للقتال ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فجاء حتى وعظهم وأصلح بينهم فسمعوا وأطاعوا الله تعالى : ﴿ **يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينِ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ ( آل عمران : ١٠٠ ) .

ومن عجيب صنع القرآن ــ وهو يحذر من الفرقة والاختلاف ــ أنه عبر عن الاختلاف بالكفر ، لأن الاختلاف يوصل إلى الكفر ، أو لأنه ملامح الكافرين ودأبهم ، وهو ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ** ( تختلفون ) **وَأَنْتُمْ تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ الله وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ ( آل عمران : ١٠١ ) .

ففي ذلك توجيه للمسلمين بأن يكونوا أثبت الناس على الحق وأشدهم تمسكاً به ، وأنهم لن يضلوا ما تمسكوا بكتاب الله وسنة رسوله ، وعملوا بما فيهما . . . **ثم يوجه الله تعالى نداءه إلى المؤمنين ليصغوا إليه ويهتموا بأمره ونهيه وإرشاده ، ويأمرهم بأن يتقوه حق تقاته ، وأن ينفضوا عن أنفسهم كل آثار الجاهلية من الكفر والفرقة والعداوة والبعد عن الخضوع لله ، وعليهم أن يذكروا ما كانوا عليه في الجاهلية من عداوة وتقاتل وتفرق مما تسبب عنه إضعاف شأنهم وتسلط عدوهم عليهم** : ﴿ **يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ ( آل عمران : ١٠٢ ـ ١٠٣ ) .

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق جماعتكم فاقتلوه » .

**وينبه القرآن أيضاً إلى خطورة الدور الذي يلعبه أعداء الدين والأمة في التخذيل وتثبيط العزائم وإضعاف الهمم ، ويوضح أنه كلما لقيت دعواهم آذاناً صاغية فإنهم يفرحون بذلك ويستبشرون ، وهذا شأنهم في كل عصر** . ومن الأمثلة التي أوردها القرآن : **أولئك المنافقين الذين دعوا المسلمين إلى أن يتخلفوا عن الخروج لغزوة تبوك** : ﴿ **فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ** ﴾ ( التوبة : ٨١ ـ ٨٣ )

**فالقرآن هنا لا يكشف محاولات التخذيل ، ولا يحذر المسلمين من الاستجابة لها فحسب ، بل يقرر أيضاً ضرورة تطهير الأمة من أمثال هؤلاء المنافقين لشدة خطرهم .**

● **كان للنبي ﷺ عيون وارصاد في انحاء شبه الجزيرة العربية وفي بلاد فارس والروم حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة ابدا . .**

### ثالثاً : حرمان الأعداء من مفاجأة المسلمين أو كشف أسرارهم :

فقد كان للنبي ﷺ عيون وأرصاد في المدينة يطلعونه على كل صغيرة وكبيرة تضر بالمسلمين في السلم والحرب على حد سواء ، فاختار مثلاً حذيفة بن اليمان العبسي ليأتيه بأخبار المنافقين ونواياهم .

كما كانت له عيون وأرصاد خارج المدينة ، ففي مكة كان عمه العباس وبشير بن سفيان العتكي ، وفي القبائل العربية الأخرى في

## ● سياسة الرسول ﷺ الحربية كانت تعتمد القوة الرادعة التي ترهب الأعداء وتخيفهم من عاقبة عدوانهم . .



○ منظر عام للمدينة المنورة ○

انحاء شبه الجزيرة العربية كان ( على سبيل المثال ) عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي في قبيلة هوازن ، وكانت له أيضاً عيون وأرصاد في بلاد فارس وبلاد الروم .

وقد كان لهؤلاء العيون والأرصاد دورهم في تأمين سلامة قاعدة الاسلام في المدينة ، فلم تؤخذ على غرة أبداً ، فقبل غزوة أحد مثلاً أرسل العباس عم النبي ﷺ رسالة يخبره فيها عن وقت خروج قريش لقتاله ، وعن عدد جيشها ، فأسرع حامل الرسالة بإيصالها إلى النبي ﷺ حتى إنه قطع المسافة بين مكة والمدينة في ثلاثة أيام ، فلما قرأ أبي بن كعب الرسالة على النبي ﷺ طلب ألا يبوح بمضمونها لأحد .

وقبل غزوة الخندق التي عبأ فيها المشركون عشرة آلاف مقاتل عدا اليهود لمهاجمة المدينة كان النبي ﷺ على علم بنوايا اعدائه من خلال عيونه وأرصاده في مكة والقبائل العربية ، وحفر المسلمون خندقاً حول المدينة كان مفاجأة للمشركين لما رأوه حتى قالوا : « والله هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها » . . **وهذه الواقعة لا تدل على يقظة عيون الرسول وأرصاده فحسب ، بل تدل أيضاً على عجز الأعداء عن الحصول على معلومات عن المسلمين ، وذلك على الرغم من أن حفر الخندق استغرق حوالي عشرين يوماً ، كانت كافية جداً لعيونهم لكشفه والإخبار عنه .**

وقد تحدث خبير المخابرات والجاسوسية العالمي ( لاديسلاس فاراجو ) عن قدرة المسلمين على حرمان العدو من مفاجأتهم أو كشف أسرارهم ، فقال : « عندما قرر المكيون ( قريش ) أن يتخلصوا من محمد عليه الصلاة والسلام نهائياً ، عبؤوا ضده قوة تتكون من عشرة آلاف مقاتل ، ولم ينزعج النبي ﷺ لأنه كان قد ترك في مكة عملاء أكفاء أبلغوه بخطط أعدائه ، أما خصومه فلم يكن لهم عملاء عنده ، ولذلك فعندما وصل المكيون إلى المدينة ، أذهلهم أن يجدوا خندقاً وجداراً يحيطان بالمدينة تماماً إحاطة السوار بالمعصم » .

### رابعاً : تطهير المدينة من اليهود :

سالم النبي ﷺ يهود المدينة وعاهدهم على المناصرة والمساعدة ولهم الحرية في دينهم وفي جميع أحوالهم وأعمالهم ما وفوا بما عاهدوا ، فلما غدروا وخانوا العهد ، تخلص منهم جميعاً ، وما أخذهم إلا بما قدمت أيديهم ، فأجلى بني قينقاع وبني النضير ، وقضى على بني قريظة ، وترك أهل خيبر بعد انتصاره عليهم زراعاً في أرضهم ولهم نصف ما يخرج منها ، حيث لم يصبح لهم نصير من اليهود أو الكفار . .

### خامساً : اتباع استراتيجية الردع :

**وكانت سياسة الرسول ﷺ الحربية قائمة على « استراتيجية الردع » من خلال إعداد « القوة الرادعة » التي « ترهب » الأعداء وتخيفهم من عاقبة عدوانهم ، فإذا ما ركبوا رؤوسهم واعتدوا ، فإن المسلمين يقاتلونهم مدفوعين « بفكرة الردع والإرهاب » ، فيلقنونهم درساً لا ينسونه ، ولا يفكرون بعده في العدوان .**

وتتمثل « استراتيجة الردع » في قول الله تعالى :

**﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾** ( الأنفال : ٦٠ ) .

وفي قوله ﷺ :

« أعطيت خمساً ، لم يعطهن أحد قبلي : **نصرت بالرعب مسيرة شهر** ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة » ( متفق عليه ) .

**● لاقيمة لأي قوة إذا لم تكن لديها القدرة على الحركة السريعة نحو الخطر والتهديد في الوقت المناسب وقبل فوات الأوان ..**

ويدل الحديث الشريف على أن الأعداء كانوا يرهبونه ويخافونه مع بعدهم عنه بحيث لو أراد حربهم لقطع المسافة التي هي بينه وبينهم في شهر بسير الإبل ، كما يفهم منه أيضاً أن إظهار القوة للأعداء وإخافتهم يحقق النصر عليهم ، ويؤدي إلى تحقيق الأهداف أكثر من أية وسيلة أخرى من وسائل مواجهة الأعداء .

واحصائيات معارك عصر النبوة خير برهان على تطبيق استراتيجية الردع :

فمن بين ثمانٍ وعشرين غزوة قادها النبي ﷺ ضد المشركين واليهود لم ينشب القتال إلا في تسع منها فقط ، هي : ( غزوة بدر - أحد - الخندق - بني قريظة - بني المصطلق - خيبر - فتح مكة - حنين - الطائف ) بينما فر الأعداء في تسع عشرة غزوة بلا قتال تحسباً للنتائج ، وخوفاً ورهبة من مواجهة « قوة المسلمين » .

### سادساً : اجهاض تدابير العدو للعدوان :

**ولم يكن الرسول ﷺ « يقف مكتوف الأيدي » أمام تدابير أعدائه للعدوان عليه ، بل كان عليه الصلاة والسلام « يتحرك بسرعة » إلى أرض أولئك الأعداء فيجهض تدابيرهم ويقضي عليها في مهدها** ، وأكبر دليل على قدرة المسلمين على الحركة السريعة على ذلك النحو ، أنهم كانوا « يباغتون » أعداءهم في عقر دارهم ، لأن الرسول ﷺ كان يتحرك فور علمه بأنهم يدبرون للعدوان ، فيباغتهم قبل أن يستعدوا للقائه ، حتى لقد كانوا يتركون أرضهم وديارهم فراراً من مواجهة القوة الاسلامية . ومن أمثلة هذه العمليات : غزوة بني سليم - ذي أمر - بحران - ذات الرقاع - دومة الجندل - بني المصطلق - بني لحيان .

**ولعل الدرس الذي نتعلمه من هذه العمليات على يد الرسول ﷺ أنه لا قيمة لأي قوة إذا لم تكن لديها القدرة على الحركة السريعة نحو الخطر أو التهديد في الوقت المناسب وقبل فوات الأوان ، وأن اجهاض تدابير العدو للعدوان يجب أن تشكل ركناً من أركان الاستراتيجية العسكرية للأمة الاسلامية .**

### سابعاً : أقصى درجات التأهب والاستعداد القتالي :

والقدرة على رد العدوان بسرعة وقوة وعلى اجهاض التدابير العدوانية كانت من الخصائص البارزة لجيش الاسلام في عصر النبوة ، فقد حرص الرسول القائد ﷺ على أن يكون المسلمون على أقصىٰ درجات التأهب والاستعداد للقتال ، ولقد ضرب عليه الصلاة والسلام بنفسه المثل على ذلك حين سبق أهل المدينة جميعاً نحو مصدر الصوت الذي أفزعهم ليلاً ، فلما انطلقوا ، وجدوه راجعاً وقد استبرأ الخبر ، على فرس عري ، والسيف في عنقه ، وهو يقول : « لن تراعوا ! »

**وقد اجتمعت لدى جيش الاسلام كل أركان القدرة على إجهاض تدابير العدو العدوانية :**

- **الإنذار المبكر بفضل يقظة وكفاءة العيون والأرصاد وأعمال الاستطلاع .**
- **استعداد المسلمين الدائم للقتال وسرعة تلبيتهم لنداء النفير .**
- **الكفاءة القتالية العالية بفضل التدريب على أساليب القتال « بلا انقطاع » حتى لقد كان بعض المسلمين يتدرب في أيام العيد .**
- **توفر وسائل وأدوات النقل السريع واستعدادها الدائم .**

### صلابة قاعدة الاسلام بالمدينة

وقد سجل التاريخ صلابة قاعدة الاسلام بالمدينة ، وقدرتها الفائقة على الصمود في مواجهة مختلف الأخطار والتحديات :

- فقد كانت المدينة قاعدة الانطلاق الرئيسية لقرابة السبعين من العمليات الحربية ما بين غزوات وسرايا في خلال سبع سنوات حتى تحقق « الهدف الاستراتيجي » وهو : تأمين الدعوة وإقامة الدولة الاسلامية .
- وحاربت هذه القاعدة أكثر من عدو في أكثر من جبهة ، فواجهت المشركين واليهود والروم وواجهت الجيوش المنظمة وغير المنظمة .
- وتعرضت للغزو المباشر ( أحد . . الخندق . . ) كما تعرضت للغدر من الداخل بينما كان ابناؤها يحاربون العدو خارجها ( الخندق ) .
- وحارب المسلمون أغلب معاركهم عدواً أكثر منهم عدداً وعدة ، وحاربوا أحياناً وهم جرحى ومرضى .

ولكن مع كل ذلك بقيت قاعدة الاسلام وطيدة صلبة ، حتى تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة كلها ، وأمن رسول الله ﷺ كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعة ، ويعلنون لله الإسلام .

# خصائص
# الخطابة النبوية

لا ريب أن للخطابة أثراً بليغاً في نشاط الدعوة وتبليغ معطياتها ، وكان لها في التاريخ الإسلامي دور كبير ، حيث كانت من أمضى الأسلحة التي اختصت في إثراء الجانب الفكري والعاطفي . وقد باشر رسول الله ﷺ هذه الوسيلة الحية في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم ، فكان يهرع إليها كلما حَزَبَهُ أمر أو لحظ شيئاً يعتري مسيرة الدعوة .

وكان من هديه في خطبه الإطالة أو التقصير بحسب حاجة الناس ، ويذكر ابن القيم أن خطبته العارضة كانت أطول من خطبته الراتبة ، وكان مدار خطبه على حمد الله والثناء عليه بآلائه وأوصاف كماله ومحامده وتعليم قواعد الإسلام ، وذكر الحساب والمعاد والأمر بتقوى الله وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه . وكان يخطب في الأعياد ويحرض النساء على الصدقة . وقد عرف رسول الله ﷺ المنبر ، ويذكر صاحب « الوفا » أنه أرسل إلى امرأة لها غلام نجار . فقال لها : مُري غلامك النجار أن يعمل لي أعواداً أجلِس عليها إذا كلَّمت الناس ، فأمرته ، فذهب إلى الغابة فقطع طَرْفاء وهي ضرب من الشجر فعمل المنبر ثلاث درجات ، فأرسلت به إلى النبي ﷺ فوضعه في موضعه » ، ويذكر ابن القيم انه كان إذا قام يخطب أخذ عصاً فتوكأ عليها وهو على المنبر ، أو توكأ على قوس . وقد ثبت أنه خطب قائماً على الأرض وعلى المنبر وعلى البعير والناقة ، وكان قبل اتخاذ المنبر يخطب إلى جذع يستند إليه ، وكان إذا عرض له في خطبته عارض اشتغل به ثم رجع إلى خطبته ... جاءه سليك الغطفاني وهو يخطب فجلس ، فقال له : قم يا سليك فاركع ركعتين وتجوَّز فيهما ، ثم قال : - وهو على المنبر - إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما . وكان يفتتح الخطبة بحمد الله ثم يشرع بالتشهد والثناء ويذكر فيها نفسه باسمه العَلَم ثم يقول : أما بعد .. وقد عُرف أنه يختم خطبه بالاستغفار .

وإذا أردنا أن ندرس الخطابة النبوية تبين لنا أنها تحمل الخصائص التالية :

## [١] الإيجـــاز مع توضيح المقصـــــد ...

تذكر كتب الشمائل والسنن سمة الإيجاز من سمات خطابته ﷺ ، حيث كان يحدِّث حديثاً لو عَدَّه العادّ لأحصاه ، ومن هنا جاء كلامه فصلاً لا فضول فيه ، وقد لحظ أهل البيان تدفّق معانيه ورحابة دلالتها باللفظ اليسير فقال الجاحظ : **« بل يبذُّ الخطب الطوال بالكلام القصير »** ، وفي هذا جانب من التربية عظيم ، بأن يحرص الخطيب على إبعاد الفضول والسرد الذي اختلط أوله بآخره ، ولم يعد السامع يعي ما يريده الخطيب ، وقد روت عائشة رضي الله عنها قالت : **« كان لا يسرد سردكم هذا ، كان يتكلم بكلام يبينه فَصْلاً ويحفظه من يسمعه »** ، ومن هنا جاءت جوامع الكلم التي تزدحم بها كتب الحديث ، فهي اللفظ المحدود اليسير الذي يحمل المعنى الواسع .

بينما خطباء اليوم ، قد تتحول الوقفة أمام مكبر الصوت عند بعضهم إلى شهوة طاغية فيستبد بها وينطلق في كلام طويل عريض . وتذكر كتب الشمائل ان النبي ﷺ كان لا يتكلم في غير حاجة ، وروت أم معبد قائلة : **« ولم يكن في خطابته هذر »** ، والهذر هو السقط في الكلام .

ومن هديه في هذا الجانب حرصه على أن يخرج سامعوه بفائدة معينة ، فكان **« يعيد الكلمة ثلاثاً »** ، وذلك ليطمئن على أن ما يريده قد وقر في القلب . ومعلوم ان مثل هذا التكرار يقلل من موضوع الاضطراب وكثرة التأويل في النقل عنه حيث إن ما سينقله الناس تمثلوه بمعناه ولفظه ، وهذا يُعَدُّ سمة من سمات البلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق . وحبذا لو اهتم خطباؤنا بهذا الجانب ، فكرروا موجز خطبتهم ، أو كرروا الشاهد منها ، وذلك ليكون الناس قد تمثلوا ما سمعوه من ناحية وليكونوا في النقل عنهم دقيقين واضحين ، فما أكثر التساهل في الحكاية عن الخطباء .

على أن إيجازه للكلام ، لم يكن يصل إلى درجة الإخلال بالمعنى ، فتلك صفة معيبة ، ومن هنا ورد في حديث أم معبد : **« أن كلامه لم يكن بالنزْر ولا تقصير فيه »** .

## [٢] اتصـــــال القلب باللســـــان ...

نستمع إلى بعض الخطب فنحس ببرودتها وجمود ألفاظها ، فلا يستميلنا الخطيب إلى ما يريده ، ولا يحرك في أنفسنا ما يدفعنا إلى متابعته ، وسبب ذلك كله يعود إلى أن هذا الخطيب لم يتيقن بعد أن وقفته هذه تستدعي أصولاً معينة وتفاعلاً يظهر على سمته . إن الخطابة فنٌ له قواعده التي تساعد على إيداع المضمون الفكري في قلوب المستمعين ، فهي ليست حديثاً إذاعياً أو سطوراً تُقرأ بين دفتي كتاب ، وإنما هي لقاء حي بين طرفين ، وتذكر كتب السنن والشمائل أن رسول الله ﷺ في خطبه كان متصل القلب باللسان فيظهر صدق انفعاله على سمته ، ويسعى سعياً في توصيل هذا الانفعال إلى القلوب ..

ومن مظاهر هذا الانفعال قول ابن القيم : **« كان إذا خطب احمرَّت عيناه وعلا صوته واشتدَّ غضبه حتى كانه منذر جيش يقول : صبَّحكم ومسَّاكم »** .

بقلم : د . احمد محمد الخراط

# ● إن الخطابة فن له قواعده التي تساعد على إيداع المضمون الفكري قلوب المستمعين ..

# ● كان الرسول ﷺ في خطبه متصل القلب باللسان يظهر صدق انفعاله على سمته .. وكان الإيجاز من سمات خطابته ..

وكان ﷺ ينتقي من العبارات والألفاظ ما هو الأنسب جرساً وحلاوة ، ففي حديث أم معبد : « **وكأنَّ منطقه خَرَزات نظم يتحدَّرْن ، حلو المنطق** » . وقد يستخدم الإشارة باليد ، فكان إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرىٰ . وروىٰ البيهقي قال : « **خطبنا رسول الله ﷺ حتى اسمع العواتق** ( جمع عاتق ، وهي التي لم تتزوج ) **في خدورهن ، حتى إن كنا لنسمع ما يقول ونحن في منازلنا** » ، وهو لا يكتفي بالصوت الجهوري ، وإنما يحرص على أن يكون حسن النغمة والموقع . وقد يعتريه سَوْرة من الغضب ، ويصاحب ذلك عرق غزير يتصبب على جسمه الشريف . وذلك كله لأنه يقتطع كلاماً من فؤاده ، وتمثل كيانه كله هذه الدعوة المباركة ، إنه يُخرج كلماته من ملء فيه ، فكانت ثناياه تبدو أمام جمهوره ، ويرون كالنور يتحدَّر منها . ولعل الاستعانة بالأشداق وإرسالها بحرية كيلا يضيِّق على حرف من الحروف التي يباشرها في الكلمة من قبيل إعطاء الكلام حقه لتكون الحروف مستقاة من مخارجها الطبيعية ، وقد أُثر عن رسول الله ﷺ ذلك .

## [٣] الاستشهاد بالشعر . . .

يلجأ الخطيب عادة إلى دعم أقواله بنصوص يستقيها من محفوظه أو مكتوبه ، وهذه النصوص تعينه على تثبيت المعنى الذي يقصده في قلوب مستمعيه ، وهذا الاستشهاد في الحقيقة له قيمته النفسية حيث إنه يُشعر السامع أن ما يقرره الخطيب من معان يشاركه فيه غيره ، فتطمئن نفسه إليه ، كما أن الاستشهاد قد يتضمن طريقة أخرى من طرق الاستدلال على ما يقرره الخطيب . وقد قيل لعائشة : هل كان يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان يتمثل بشعر ابن رواحة ، ويتمثل بقول الشاعر :

..........................................

وَيَأْتِيكَ بالأخْبَارِ مَنْ لَم تُزَوِّدِ

وروىٰ أبو هريرة أن **رسول الله** ﷺ قال : « **إن اصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد** :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ

..........................................

وقال البراء : « **رايت رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب وقد وارى التراب بياض إبطيه وهو يقول** :

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا ..
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
وَثَبِّتِ الأقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
وَالمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا
إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وكان يوم حنين يقول :

أَنَا النَّبِيّ لَا كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْد المُطَّلِبْ

وروىٰ جندب بن سفيان : « **اصاب حجرٌ رسول الله ﷺ فقال** :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ
وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ

## [٤] الفصاحة :

نشأ **رسول الله** ﷺ في بني سعد وهو من قريش ، فجُمع له بذلك بين قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة الفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، ولذلك كان يقول : « **انا افصح العرب** » فكان ناصع اللفظ اي هو خالص من شوائب تنافر الحروف وارتكاب الشذوذ . وكان جزل القول اي لا ركاكة فيه ولا ضعف تأليف وتركيب . ومن مظاهر فصاحته معرفته الواسعة بلغات العرب ، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ، فقد روي عن علي بن أبي طالب : « **ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وقد سمعتها من رسول الله ﷺ ، وسمعته يقول : مات حتف انفه ، وما سمعتها من عربي قبله** » .

ومن هنا كان بعض الصحابة يسأله عن بعض ألفاظه الواردة في بعض خطبه ، يقول بريد : « **وكان من افصح الناس ، كان يتكلم بالكلام لا يدرون ما هو حتى يخبرهم** » فلم يكن كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ككلامه مع ذي المِشْعَار الهمداني وطِهْفة النهدي ، وقطن بن حارثة العليمي .. وقد يتساءل أحدنا : هل كان مجيداً بليغاً في كل هذه اللهجات ؟ يقول الدكتور عبد الرحمن عزام :

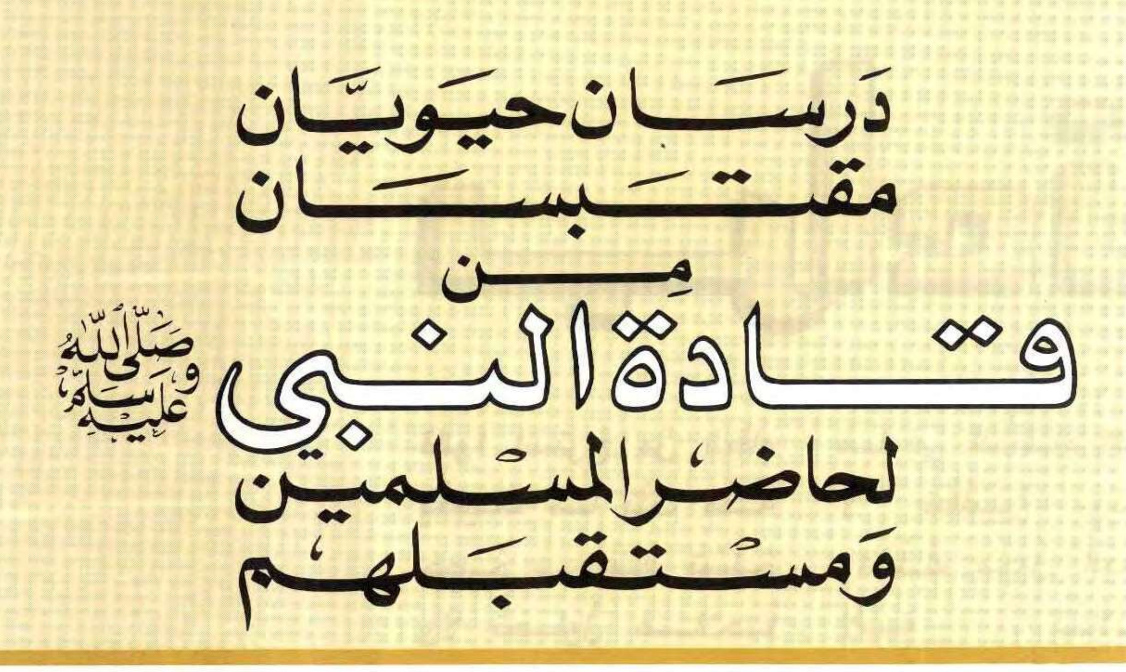
« **كان يُبدي في هذه اللهجات جميعاً من مطرب القول وجامعه ما يسبي قلب سامعه سواءٌ أكان السامع من قحطان أم عدنان فإنه مقرٌّ لمحمد ﷺ بالإمامة في البلاغة والفصاحة في أي لهجة جرىٰ عليها الحديث** » وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول :

« **أدَّبني ربي فأحسن تأديبي** » ، قال هذا وهو يردّ على أبي بكر حيث سأله :

« **لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك .. فَمَنْ أَدَّبَك** ؟ .

ويذكر المؤرخون نصوصاً من بعض كتبه إلى القبائل فمن ذلك كتابه إلى همدان : « **إن لكم فِراعها** ( ما علا الأرض ) **ووهاطها** ( جمع وهط ، وهو المطمئن من الأرض ) **وعَزازها** ، ( ما اشتد من الأرض وصلب ) **تاكلون من عِلافِها** ( جمع علف ) **وتَرعون عَفاءها** » ( ما ليس فيه ملك ) .

هذه أهم سمات الخطابة النبوية .. ولا تزال خطبه صلى الله عليه وسلم مكمناً للبلاغة الراقية معنى ومبنى .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .




## الغــــزوات والســـرايا

**■■ التفرغ للعلم نعمة عظيمة من نعم الله ، يقصر الحمد والشكر عن الوفاء بحقها لله ، وعلى المرء الذي يقدِّر مثل هذه النعمة العظيمة ، أن يحمد الله عز وجل عليها بالأعمال لا بالأقـوال .**

**وشغلت نفسي في تفرغي الكامل بدراسـة : ( قادة النبي ﷺ ) الذين قادوا السرايا في حياته المباركة ، فاكتشفت درسين حيويين من مصائر أولئك القادة ، لم أكن أعرفهما من قبل ، ولم أقرأ عنهما شيئاً ، فأحببت أن أشارك القراء نشوة هذا الاكتشاف ■■**

**بقلم : اللواء الركن محمود شيت خطـــاب**

**كان النبي ﷺ** هو قائد المسلمين في الغزوات ، وهي ثماني وعشرون غزوة ، نشب القتال في تسع غزوات منها ، وحققت تسع عشرة غزوة من غزواته عليه الصلاة والسلام أهدافها دون قتال .

واستغرق جهاد **النبي ﷺ** في غزواته كافة سبع سنين بعد الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، فقد خرج إلى غزوة ( **وَدَّان** ) وهي أول غزوة قادها النبي ﷺ ، في شهر صَفَر من السنة الثانية للهجرة ، وكانت غزوة (**تبوك**) وهي آخر غزواته عليه الصلاة والسلام في رَجَب من السنة التاسعة الهجرية .

ولكن جهاد **النبي ﷺ** لم يقتصر على الغزوات فحسب ، بل شمل الغزوات والسَّـرايا أيضاً ، والفرق بين الغزوة والسرية ، أن الغزوة تكون بقيادة **النبي ﷺ** ، أما السرية فتكون بقيادة أحد أصحابه عليهم جميعاً رضوان الله .

وكان عدد سرايا النبي ﷺ سبعاً وأربعين سرية ، وفي رواية أنه بعث عدداً أكثر من السرايا ، والأول أصح .

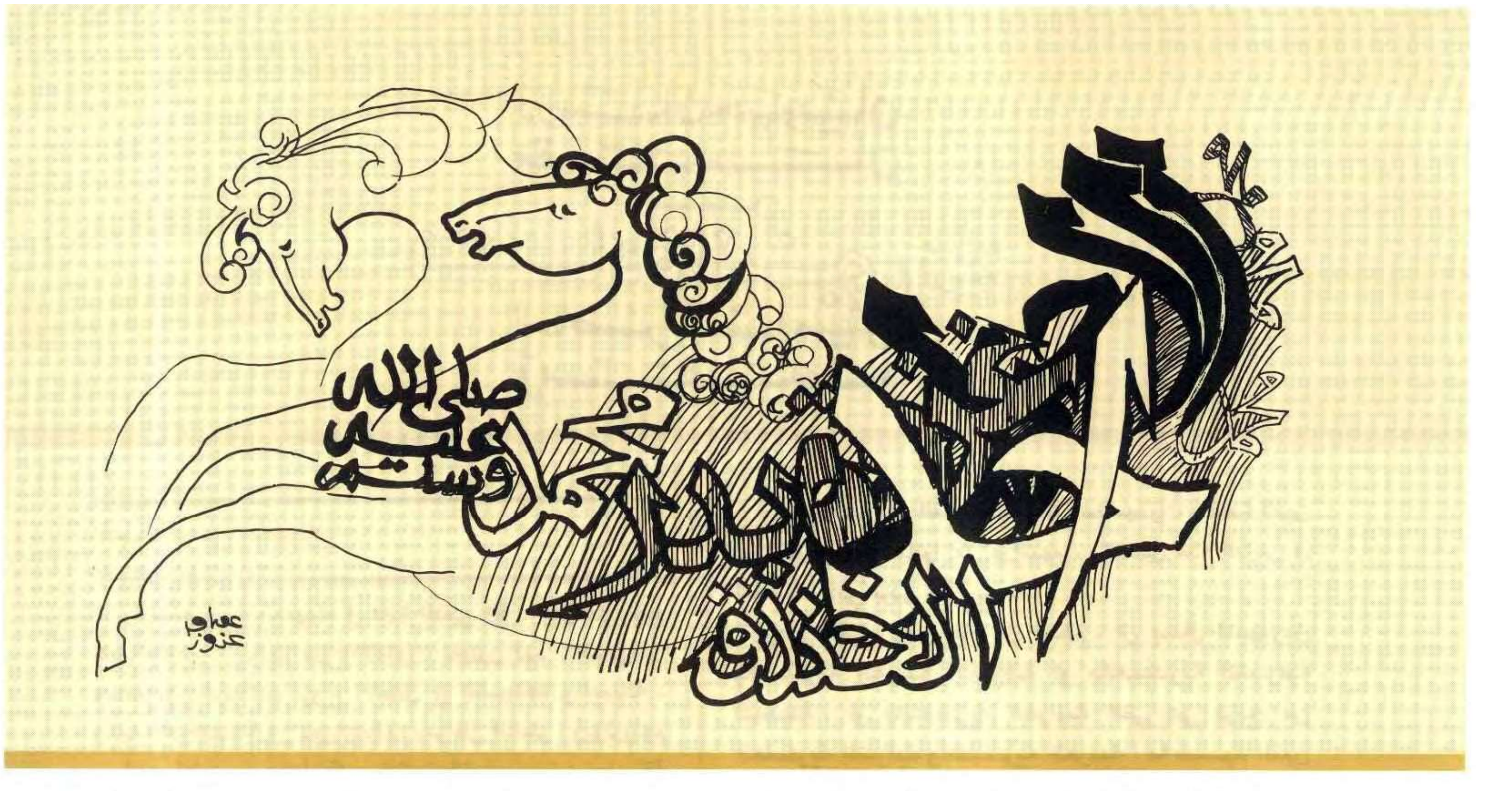
وقد استغرق بعث هذه السرايا تسع سنين ، ابتداءً من **سرية حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه التي بعثها إلى (العِيص) في شهر رمضان من السنة الأولى الهجرية ، وانتهاءً بسرية علي بن ابي طالب كرَّم الله وجهه ورضي الله عنه التي بعثها إلى بلاد (مَذْحِج) في اليمن في شهر رمضان من السنة العاشرة الهجرية .**

وكان من **ثمرات جهاد سبع سنوات في الغزوات ، وتسع سنوات في السرايا ، توحيد شبه الجزيرة العربية لأول مرة في التاريخ تحت لواء الإسلام ، بقيادة ابنائها من العرب المسلمين** ، وتطهيرها من الأجنبي الدخيل ، وتحطيم الأصنام والأوثان في أرجائها ، وهي آلهة العرب قبل الإسلام ، بعد أن أصبح العرب يعبدون إلهاً واحداً لا شريك له ، بفضل الإسلام دين التوحيد والوحدة ، ودين الله الذي ارتضاه للناس كافة .

**وكان عدد قادة سرايا النبي ﷺ سبعاً وثلاثين قائداً ، بإضافة عبدالله بن جُبَيْر الأوسِي الأنصاري الذي كان قائد الرماة في غزوة (أُحد) إلى قادة سرايا النبي ﷺ** ، إكباراً لمزاياه القيادية ، وتقديراً لسجاياه البطولية ، وليكون أسوة حسنة لكل قائد وجندي من قادة العرب والمسلمين وجنودهم في مزاياه وسجاياه ، فيصبح تعداد القادة ثمانية وثلاثين قائداً .

وليس **عبد الله بن جُبير رضي الله عنه من قادة النبي ﷺ ، ولكنه ليس اقل منهم كفاية واقتداراً ، وقدراً وجلالاً .**

لقد كانت ثمرات الجهاد في الغزوات والسرايا ثمرات يانعة حقاً ، وكانت لقيادة **النبي ﷺ** الفذة آثار حاسمة في نتائج غزواته وسراياه : بصورة مباشرة في غزواته لأنها بقيادته المباشرة ، وبصورة غير مباشرة في سراياه لأنها بقيادة من أحسن اختيارهم .



واختيار النبي ﷺ لقادة سراياه : في أسلوب اختياره الذي يضع **الرجل المناسب بالمكان المناسب** ، وفي حرصه على الالتزام بشروط القيادة المتميزة في الاختيار لفائدة الإسلام والمسلمين ، درس ينبغي أن نتعلمه حكاماً ومحكومين ، إذا أردنا أن ننتصر في الحرب ونتفوق بالنجاح في السَّــلام ، فقد عز النصر على العرب والمسلمين وعزَّ النجاح ، وأصبحوا أهل الهزائم والإخفاق .

وربما نعود إلى تفصيل هذا الدرس الحيوي في موعد قريب بإذن الله ، فهو الدرس الحيوي الذي ينبغي أن نتعلمه من النبي ﷺ : **درس اختيار القــادة** ..

أما اليوم ، فسأقتصر على درسين حيويين نتعلمهما من قادته عليهم رضوان الله .

## مصــــائر قــــــادة النبي ﷺ ...

والدليل القاطع على تمتع قادة **النبي** ﷺ بالكفاية القيادية العالية ، هو ما أحرزوه من انتصارات باهرة على أعداء الإسلام والمسلمين ، المتفوقين عليهم عَدَداً وَعُدَداً في كل معركة خاضوها دون استثناء .

## الشجاعــــــة ...

**والشجاعة الفائقـــة هي إحدى المزايا الواجب توفرها في الكفاية القيادية ، وكانت الشجاعة الفائقة هي القاسم المشترك بين مزايا قادة النبي ﷺ كافة .**

**والدليل القاطع على الشجاعة الفائقة لقادة النبي ﷺ ، أن اثنين وعشرين قائداً منهم قضى شهيداً ، وخمسة عشر قائداً منهم مات على فراشه ، أي أن ستين بالمائة من القادة استُشهدوا ، وأربعين بالمائة منهم ماتوا خارج ميدان القتال .**

ولا أعرف نسبة عالية من الشهداء في القادة ، كنسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ ، في تاريخ الحروب القديمة والحديثة ، فالخسائر في القادة (اعتيادياً) أقل بكثير من الخسائر في غير القادة من الجنود وضباط الصف والضباط ، وقد لا تُكَوِّن واحداً بالمائة في أحسن الأحوال وفي أعلى تقدير .

والقول بأن هذه النسبة العالية في الشهداء بين قـادة **النبي** ﷺ سببها شجاعتهم الفائقة صواب ومنطقي وسليم ، ولكنه لا يقرِّر الواقع كاملاً ، والواقع الكامل هو أن سببها الشجاعة الفائقة والإيمان العميق ، وليس كالإيمان العميق حافز من حوافز الإقدام والاستقتال في طلب الشهادة ، تخلصاً من الحياة المؤقتة للأحياء إلى الحياة الدائمة للشهداء ..

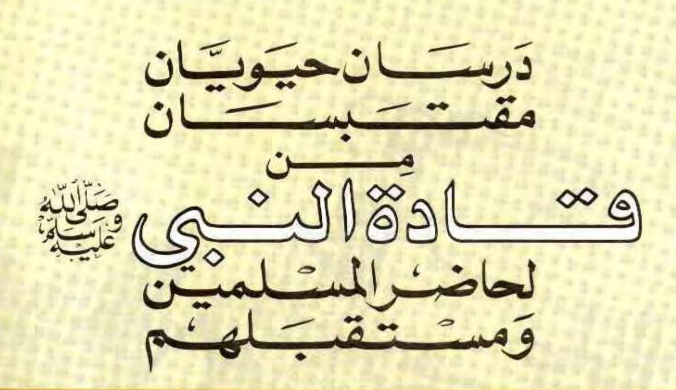
ونسبة الشهداء من صحابة **النبي** ﷺ قادة وجنوداً ، ثمانون بالمائة كما فصَّلنا ذلك في بحث ( **الإسلام والحرب الإجماعية** ) ، فقد استشهد أربعة من الصحابة من كل خمسة عليهم رضوان الله ، لأن إيمانهم العميق الذي كان أعلى نسبة ممن جاء بعدهم ، هو الذي حقق لهم أمنياتهم في الاستشهاد ، إذ كان كل واحد منهم يتمنى أن يستشهد قبل أخيه .

والمبدأ الذي جاء به الإسلام في اختصاص الشهداء بالحياة الباقية مبدأ لا مثيل له في تعاليم القتال التي جاءت بها الأديان السماوية الأخرىٰ وتعاليم القتال في المذاهب الوضعية البائدة والسائدة :

**﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾** (آل عمران : ١٦٩) .

ولا تجد مثل هذا المبدأ القتالي : مبدأ الحياة الباقية للشهيد ، في أية عقيدة قتالية قديمة أو حديثة ، إلا في العقيدة العسكرية الإسلامية ، ولكن ياليت قومي يعلمون .

كما أن ارتفاع نسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ ، يدل على طلبهم للشهادة وحرصهم على الاستشهاد ، فكانت الشهادة من أغلى أماني المجاهدين الصادقين ، وقادة النبي ﷺ منهم بدون شك .




## القيادة من الأمام . . .

وارتفاع نسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ ، يدل على أنهم كانوا يقودون رجالهم من (الأمام) ، يقولون لهم : **اتبعونا** ! **ويضربون لرجالهم أروع الأمثال في الشجاعة والبسالة** ، وأنهم كانوا يستأثرون دون رجالهم بمواطن الخطر ، ويؤثرونهم بمواطن الأمن ، وهكذا يكون القادة الذين يحوزون على ثقة رجالهم عن جدارة واستحقاق .

**وارتفاع نسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ ، يدل على أن أولئك القادة لا يقودون رجالهم من (الخلف) ، يقولون لرجالهم : تقدموا ! ثم يبقون قابعين في مواقع أمينة في الخلف ، كما يفعل القادة الذين يؤثرون مصالحهم الذاتية على مصالح رجالهم ومصلحة أمتهم العُليا .**

**لقد كان شعارهم في الجهاد :**

**﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ (التوبة:٥٢) : النصر أو الشهادة .**

ذلك هو الدرس الأول الذي يبرز من دراسة السير التفصيلية لقادة النبي ﷺ ، وهو :

**أن نسبة الشهداء منهم كانت ستين بالمائة ، وهي أعلى نسبة لاستشهاد القادة في تاريخ الحرب القديم والحديث وفي تاريخ البشرية من مختلف الأمم والألوان والأجناس في مختلف الحروب قديماً وحديثاً ، وهذا برهان ساطع على صدق حديث النبي ﷺ : « خير النَّاس قَرْني ، ثم الَّذين يَلُونهم ... »** الحديث الشريف [ رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد ] ، وهو برهان من الناحية العسكرية خاصة ، وبإمكان كل مختص في علم من العلوم ، أن يدلل حسب اختصاصه على صدق هذا الحديث الشريف .

فلا يسأل متسائل : **كيف انتصر النبي ﷺ بأصحابه القليلين على أعدائه الكثيرين ؟ وكيف استطاع أن يوحِّد شبه الجزيرة العربية لأول مرة في التاريخ تحت ظل التوحيد خلال تسع سنين ؟**

ولكن **الدرس الثاني** الذي نتعلمه من **قادة النبي ﷺ** هو أعجب من الدرس الأول وأغرب ، وهو أن قادة **النبي** ﷺ المتميزين بالشجاعة (**الفائقة**) استُشهدوا بآجالهم في ساحات الجهاد ، والقادة المتميزين بالشجاعة (**النادرة**) منهم ماتوا بآجالهم في بيوتهم على فراشهم !

وبتعبير آخر ، إن القادة الشجعان استشهدوا ، والقادة الذين هم أكثر شجاعة ماتوا على فراشهم ، وتفصيل هذا الدرس في الحديث الآتي بإذن الله .

**ومن حقي ، ومن حق كل مسلم ، أن يسأل المبهورين بالعسكرية الغربية الحديثة أو بالعسكرية الشرقية الحديثة ، أو بالعسكرية الغرابية التي هي مزيج من العسكرية الشرقية والعسكرية الغربية : ما نسبة الذين قُتلوا من القادة الغربيين أو الشرقيين في الحرب العالمية الثانية ( ١٩٣٩ - ١٩٤٥م ) وما بعدها من حروب موضعية ؟**

أعلى نسبة من قتلى القادة ، لم تبلغ واحد بالمائة في العسكرية الغربية والعسكرية الشرقية والعسكرية الغرابية !

**فلماذا نستبدل العسكرية الشرقية أو الغربية أو الغرابية بالعسكرية الإسلامية ؟! ولمصلحة مَنْ ينبهر بها العرب والمسلمون ؟! ولماذا نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟!..**

لقد قادت العقيدة العسكرية الإسلامية **النبي** ﷺ وصحبه إلى النصر ، وإلى توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام خلال تسع سنين فقط من عمر الزمان .

وقادت الخلفاء الراشدين الهادين المهديين من بعده على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والصدر الأول من عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقادت قادة الفتح الإسلامي وجنوده إلى فتح العراق وبلاد الشام ومصر وليبيا وبلاد فارس وخُراسان ، وتوحيد هذه البلاد الشاسعة تحت لواء الإسلام خلال أقل من عشرين سنة .

فلما تخلى العرب والمسلمون عن العقيدة الإسلامية ، وطبقوا العسكرية الغربية أو الشرقية أو الغرابية ، قادتهم هذه العقائد الدخيلة إلى الهزائم المنكرة ، وخسروا حتى بلادهم ، وقادتهم تلك العقائد العسكرية الأجنبية إلى الذل والهوان .

**ولعل ما حدث في بيروت من قِبَل العدو الصهيوني ، هو قمة ما بلغه العرب والمسلمون من ذلٍ وهوان ، دون أن تقودهم العقائد العسكرية الدخيلة إلى الوحدة أو إلى النصر .**

فمتى نعرف هذه الحقائق الناصعة ، ومتى نعود إلى الإسلام من جديد ، **فقد انتصرنا بالإسلام ، ولن ننتصر بغيره على أعدائنا ، وواقعنا المرير أوضح دليل ؟!**

| التسلسل | القـــــــــــائد | قدمـــه في الإسلام | مصرعـــه | مكان استشهاده | تاريخ استشـــــهاده | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | | | | | الهجري | الميلادي |
| ١ | حمزةبن عبدالمطلب | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | أحد | ٣ | ٦٢٤ |
| ٢ | عُبَيْدَةبن الحارث بن المطلب | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | بَدْر | ٢ | ٦٢٣ |
| ٣ | عبدالله بن جحش الاسدي | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | أحد | ٣ | ٦٢٤ |
| ٤ | عُمَيْربن عَدِي الخطمي الاوسي | قديم الإسلام | شهيد | أحد | ٣ | ٦٢٤ |
| ٥ | سالم بن عُمَيْر الاوسي | قديم الإسلام ـ بدري | مات على فراشه | المدينة | على عهد معاوية بن ابي سفيان | |
| ٦ | محمد بن مَسْلَمَة الاوسي الانصاري | قديم الإسلام ـ بدري | مات على فراشه | المدينة | ٤٣ | ٦٦٣ |
| ٧ | ســـعد بن ابي وقاص | قديم الإسلام ـ بدري | مات على فراشه | المدينة | ٥٥ | ٦٧٥ |
| ٨ | زيد بن حارثة الكلبي | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | مؤتة | ٨ | ٦٢٩ |
| ٩ | عبدالله بن انيس الجهني | قديم الإسلام | مات على فراشه | غَزَّة | ٥٤ | ٦٧٣ |
| ١٠ | عبدالله بن جبير الاوسي الانصاري | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | أحد | ٣ | ٦٢٤ |
| ١١ | ابوسَلَمَةبن عبدالاسد المخزومي | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | المدينة | ٤ | ٦٢٥ |
| ١٢ | المنذر بن عمرو الساعدي الخزرجي | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | بئر معُوْنَة | ٤ | ٦٢٥ |
| ١٣ | مَرْثدبن ابي مَرْثَد الغَنَوِيّ | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | الرّجيع | ٤ | ٦٢٥ |
| ١٤ | عكاشةبن مِحْصَن الاسدي | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | بُزَاخة | ١١ | ٦٣٢ |
| ١٥ | ابو عُبَيْدة بن الجـرّاح | قديم الإسلام ـ بدري | مات على فراشه بالطاعـون فهو شهيد | عَمْواس | ١٨ | ٦٣٩ |
| ١٦ | عبد الرحمن بن عوف | قديم الإسلام ـ بدري | مات على فراشه | المدينة | ٣٢ | ٦٥٢ |
| ١٧ | علي بن ابي طالب | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | الكوفة | ٤٠ | ٦٦٠ |
| ١٨ | عبدالله بن عَتيك الخزرجي | قديم الإســـلام | شهيد | اليمامة | ١١ | ٦٣٢ |
| ١٩ | عبدالله بن رواحة الخزرجيّ | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | مؤتة | ٨ | ٦٢٩ |
| ٢٠ | كُرْز بن جابر الفِهْري | اسلم بعد الهجرة | شهيد | مكة | ٨ | ٦٢٩ |
| ٢١ | عمرو بن أميّة الضُمْري | اسلم بعد غزوة أحد | مات على فراشه | المدينة | على عهد معاوية بن ابي سفيان | |
| ٢٢ | عمر بن الخطاب | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | المدينة | ٢٣ | ٦٤٣ |
| ٢٣ | ابوبكر الصِّديق | قديم الإسلام ـ بدري | مات على فراشه | المدينة | ١٣ | ٦٣٤ |
| ٢٤ | بشير بن سعد الخزرجي | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | عين التمر | ١٢ | ٦٣٣ |
| ٢٥ | غالب بن عبدالله الليثي | قديم الإسلام | مات على فراشه | — | — | — |
| ٢٦ | ابن ابي العوجاء السُّلَمِيّ | اسلم قبل فتح مكة | شهيد | ديار بني سُلَيم | ٧ | ٦٢٨ |
| ٢٧ | شجاع بن وَهْب الاسدي | قديم الإسلام ـ بدري | شهيد | اليمامة | ١١ | ٦٣٢ |
| ٢٨ | كعب بن عُمَيْر الغِفَاري | قديم الإسلام | شهيد | ذات أطلاح | ٨ | ٦٢٩ |
| ٢٩ | جعفر بن ابي طالب | قديم الإسلام | شهيد | مؤتة | ٨ | ٦٢٩ |
| ٣٠ | ابوقَتَادَةبن رِبْعِيّ الانصاري | قديم الإسلام | مات على فراشه | المدينة | ٥٤ | ٦٧٣ |
| ٣١ | خالد بن الوليد | اسلم قبل فتح مكة | مات على فراشه | حمص | ٢١ | ٦٤١ |
| ٣٢ | عمرو بن العاص | اسلم قبل فتح مكة | مات على فراشه | الفسطاط(القاهرة) | ٤٣ | ٦٦٤ |
| ٣٣ | سعد بن زيد الاوسي | قديم الإسلام ـ بدري | مات على فراشه | — | — | — |
| ٣٤ | الطُفيل بن عمرو الدُوسي | قديم الإسلام | شهيد | اليمامة | ١١ | ٦٣٢ |
| ٣٥ | عُيَيْنَة بن حِصْن الفَزَاري | اسلم قبل فتح مكة | مات على فراشه | المدينة | على عهد عثمان بن عفان | |
| ٣٦ | قطبة بن عامر الخزرجي | قديم الإسلام ـ بدري | مات على فراشه | المدينة | على عهد عثمان بن عفان | |
| ٣٧ | الضَحّاك بن سفيان الكلابي | قديم الإسلام | شهيد | بلاد بني سُلَيْم | ١١ | ٦٣٢ |
| ٣٨ | عَلْقَمَة بن مُجَزِّز المُدْلِجي | اسلم قبل فتح مكة | شهيد | بلاد الحبشة | ٢٠ | ٦٤٠ |

(*) قادة السرايا سبعة وثلاثون قائداً ، ومع عبدالله بن جُبَيْر قائد الرماة في غزوة أُحد ، اصبح مجموعهم ثمانية وثلاثين قائداً .

# دروسٌ حيويّة مقتبسة من قادة النبي صلى الله عليه وسلم لحاضر المسلمين ومستقبلهم

٢

بقلم : اللواء الركن :

محمود شيت خطاب

مجمل الدرس الثاني ...

■■ كان مجمل الدرس الأول المقتبس من قادة النبي ﷺ عبرةً للمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم ، هو أن ستين بالمائة من أولئك القادة استُشهدوا ، وأربعين بالمائة منهم ماتوا على فراشهم ، والشهيد يموت بأجله ، والمتوفى حتف أنفه يموت بأجله أيضاً .

أما مجمل الدرس الثاني ، فهو أن القائد الشجاع مات شهيداً ، والقائد الذي هو أكثر شجاعة وإقداماً مات على فراشه .. ■■

ومن المعلوم أن الشجاعة من المزايا المعنوية للإنسان ، فالشجاع والأشجع من الأمور التي تثبت بالقتال ، وقد كانت بطولات قادة النبي ﷺ الذين ماتوا في بيوتهم بآجالهم ، والتي أثبتوها بالقتال رفيعة المستوى ، متميزة عن سائر البطولات ، لذلك وصفتُ شجاعة قادة **النبي** ﷺ بأنها شجاعة ( **فائقة** ) ، ولكنني وصفتُ شجاعة الذين قضوا نحبهم في بيوتهم من قادة **النبي** ﷺ بأنها شجاعة (**نادرة**) تمييزاً لدرجتها الرفيعة على درجة الشجاعة الفائقة ، فكل شجاعة (**نادرة**) شجاعة (**فائقة**) ، ولكن ليس كل شجاعة (**فائقة**) شجاعة (**نادرة**) .

وقد وصفتُ مصائر قادة **النبي** ﷺ فقلت :

**« إن قادة النبي ﷺ المتميزين بالشجاعة (الفائقة) استُشهدوا في ساحة الجهاد ، والقادة المتميزين منهم بالشجاعة (النادرة) ماتوا في بيوتهم على فراشهم »** .

وهدفي من إبراز هذه الحقيقة هو إثبات أن **الجُبْن لا يُحيي والشجاعة لا تُميت ، وصدق الله العظيم :**

**﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾** (يونس : ٤٩) .

وقد علمتني تجارب الحياة ، أيام خدمتي العسكرية ، في ميادين القتال ، أن المقاتل الجبان الذي يخاف الموت ويرتبك وتنهار معنوياته ، هو الذي يسعى إلى حتفه سعياً ، فكأنَّ للجُبن رائحة خاصة تجذب إليها ما يصيب مقتلاً في الجبان الرعديد .

لقد كان السلف الصالح مضرب الأمثال في شجاعتهم ، لأنهم كانوا مضرب الأمثال في إيمانهم العميق .

فلما تخلى الخلف الطَّالح عن إسلامهم ، اهتزَّ إيمانهم فضعفوا واستكانوا وتداعت عليهم الأمم من كلِّ جانب ، حتى قال قائل من الأجانب فيهم ، واصفاً موقفهم المزري من ذبح إخوانهم في مخيمي (صَبْرا) و (شاتيلا) من الأطفال والنساء والشيوخ الفلسطينيين في شهر ذي القعدة من سنة ١٤٠٢ الهجرية ( شهر أيلول [ديسمبر] من سنة ١٩٨٢ الميلادية ) قائلاً :

**كانوا يتفرجون على المذبحة دون أن يستطيعوا تحريك إصبع واحد من أصابعهم على الصهاينة ، وحتى لم يدعمهم العرب بالمظاهرات ، فتظاهر الأجانب عنهم ، وبقي العرب لا يحرِّكون ساكناً !!**

● إن المقاتل الجبان الذي يخاف ويرتبك وتنهار معنوياته هو الذي يسعى إلى حتفه ، فكأن للجبن رائحة خاصة تجذب إليها ما يصيب مقتلاً في الجبان الرعديد ..

## الذين ماتـــوا في بيوتـــــهم . . .

لقد مات خمسة عشر قائداً من قادة **النبي** ﷺ ـ كما ذكرنا من قبل ـ في بيوتهم بآجالهم بعيداً عن ساحة الجهاد ، مع أنهم جميعاً دون استثناء من المتميزين بالشجاعة النادرة ، وكانوا جميعاً يتمنون على الله من أعماق قلوبهم أن يُستشهدوا في ساحة الجهاد ، ولكن أمانيهم لم تتحقق ، فماتوا وفي أنفسهم شيء من تخلّفهم دون إرادتهم عن تحقيق أعزّ أمانيهم في الحياة .

والذين يحبون أن يطّلعوا على شواهد مما كان يتمتع به أولئك القادة من شجاعة نادرة بالتفصيل ، يجدون ما يحبون أن يطلعوا عليه في دراسة سِـيَرِ حياة هؤلاء القادة الذين ذكرناهم في قائمة : ( **مصائر قادة النبي** ﷺ ) ، وسيرد ذكرها مفصلاً في كتابي ( **قادة النبي** ﷺ ) الذي يصدر قريباً بإذن الله .

ولكن لا بد من ذكر شواهد ( مختصرة ) على شجاعتهم النادرة ، وقد لا يُغني الاختصار عن التفصيل في هذا الباب بالذات ، ولكنه لا يخلو من فائدة على كلِّ حال .

وسأضرب الأمثال للقراء على شجاعة أولئك القادة النادرة ، بالنسبة لأقدميتهم في القيادة حسب توليهم مناصبهم القيادية بموجب ما ورد في التاريخ والسِّـير ، وحسب ترتيب أسمائهم في قائمة : مصائر قادة **النبي** ﷺ ، المرتَّبة بموجب أقـدميتهم التاريخية في القيادة .

## القـــــــائد الأول :

مــات **سالم بن عُمَيْر الانصاري الأوْسِيّ** على فراشه ، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر شوال من السنة الثانية للهجرة .

وقد تطوع لقتل **ابي عَفَك** ، وهو بين أهله وعشيرته وقومه في مكان آمنٍ أمين ، فقتله في مأمنه بين أهله وعشيرته وقومه .

وكان **ابو عَفَك** يحرِّض على عداوة **النبي** ﷺ والمسلمين ، وينظم الشِّعـر في هجائهم ، فقـال رسول الله ﷺ : « **مَنْ لي بهـذا الخبيث** ؟ » .

وتطوّع **سالم** من بين **الأوس والخزرج** والمسلمين كافة لقتله ، ونفَّذ وعده الذي قطعه على نفسه غير مكترث بالخطوب والأخطار والأهوال .

لقد كان من ذوي الشجاعة النادرة ، وكان معروفاً بالشجاعة والإقدام .

## القـــــــائد الثـــاني . . .

ومات **محمد بن مَسْلَمَة الانصاري الأوسي** على فراشه ، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر ربيع الأول من السنة الثالثة الهجرية .

وكان **ابن مسلمة** ممن ثبت مع **رسول الله** ﷺ يوم (**أحد**) ، وقد ثبت مع **الرسول** ﷺ يومئذ أربعة عشر رجلاً : سبعة من المهاجرين وسبعة من الانصار ، كان أحدهم **محمد بن مسلمة** .

وكان يتولى قيادة حرس **النبي** ﷺ في غزواته ، وقادة الحرس لا بد أن يكونوا من المختارين في شجاعتهم النادرة .

وهو الذي قتل اليهودي **كعب بن الأشرف** عدو **النبي** ﷺ والإسلام والمسلمين ، وقد تطوَّع لقتله ، فقتله بين أهله وعشيرته وقومه ، وفي حصنه الحصين .

وهو الذي انتصر على حشود المشركين ، وكان بقيادته ثلاثون رجلاً من المجاهدين ، وكان من الذين لا يخشون في قولة الحق لومة لائم ، فكان يقول الحق ولا يخشى غير الله عزّ وجل .

وقد اعتزل الفتنة الكبرى ، كما اعتزلها أمثاله من أصحاب الورع والتقوى ، **كاسامة بن زيد حِبّ رسول الله** ﷺ **وابن حِبِّه** ، **وسعد بن ابي وقّاص خال رسول الله** ﷺ ، **وعبـد الله بن عمر بن الخطاب** ، **رضي الله عنهم جميعاً وارضاهم** .

لقد كان **محمد بن مسلمة** من أبرز الأنصار خاصة والمسلمين عامة شجاعة وإقداماً .

## القـــــــائد الثـــالث . . .

ومات **سعد بن ابي وقاص** حتف أنفه ، وقد تولى القيادة لأول مرة في عهد **النبي** ﷺ ، ثم أصبح من قادة الفتح الإسلامي المشهورين بعد أن التحق **النبي** ﷺ بالرفيق الأعـلى ، فتولى **لعمر بن الخطاب رضي الله عنه** قيادة فتح العراق وفارس ، وقاد معركة القادسية الحاسمة التي فتحت أبواب العراق وشطر فارس للمسلمين .

وكان **سعد** أوَّل من رمى بسهم في الإسلام ، وثبت مع **النبي** ﷺ يوم (**أحد**) ، ووقف إلى جانبه يرمي بالنبل دونه ، **والنبي** ﷺ يناوله النَّبل ويترصد له إصاباته الدقيقة قائلاً :

« **إرْمِ ، فداك ابي وأمي** » ، وكان **الإمام علي بن أبي طالب** كرَّم الله وجهه ورضي عنه يقول :

« **ما سمعت رسول الله** ﷺ **يفدّي احداً بابويه إلا سعداً** » ..

ولعل من نافلة القول ، إثبات أن سعداً كان يتحلى بالشجاعة النادرة ، فقد كان رضي الله عنه أمَّة في رجل ، ورجلاً في أُمَّـة .

## القـــــــائد الرابـــع . . .

ومات **عبد الله بن أُنَيْس الجُهني الانصاري** على فراشـه ، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر المحرم من السنة الرابعة الهجرية .

**وهو الذي تولى قتل اليهودي سَلَّام بن ابي الحُقَيق احد اعداء النبي** ﷺ **والإسلام والمسلمين ، حيث قتله في حصنه بين اهله وعشيرته وقومه في موقع ( خَيْبَر ) ، قبل أن يفتحها النبي** ﷺ .

**كما تولى قتل اليهودي اليُسَيْر بن رِزَام** الذي كان بِخَيْبَر يجمع غَطَفَان ويحشد قومه يهود خَيبر وغيرهم من يهود ، لغزو **رسول الله** ﷺ ، لعداوته الشديدة وحقده الدفين على **النبي** ﷺ والإسلام والمسلمين .

# دروس حيوية مقتبسة من قادة النبي صلى الله عليه وسلم لحاضر المسلمين ومستقبلهم

وبذلك استطاع تفريق حشود المشركين وحده ، وكفى الله المؤمنين القتال .

**وابن أُنَيْس** ، القائد الرابع ، هو الذي قتل وحده **خالد بن سفيان بن نُبَيْح الهُذَلي** الذي كان من سادات قومه ، وكان يجمع الجموع **لرسول الله** ﷺ ليغزوه ، فقتله **ابن أنيس** بين قومه وفي حشوده التي حشدها لحرب **النبي** ﷺ والإسلام والمسلمين .

لقد كان **ابن أنيس** لا يخشى الموت ، وكان بطلاً فذاً من أبطال الصحابة عليهم رضوان الله ، لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه !

## القـــائد الخامس . . .

ومات **أبو عُبَيْدَة بن الجرَّاح** على فراشه بالطاعون سنة ثماني عشرة الهجرية ، والذي يموت بالطاعون شهيد ، ولكنني لم أذكره بين الشهداء ، لأنه تُوفي خارج ميدان الجهاد ، وكان منهاجي إحصاء الشهداء الذين ماتوا بالسيف .

وقد تولى **أبو عبيـــدة** القيادة لأول مرة في شهر ربيع الآخر من السنة السادسة الهجرية ، فشهد غزوة ( **بَدْر** ) الحاسمة ، فقتل أباه في تلك الغزوة ، لأن أباه كان مشركاً يقاتل في صفوف المشركين .

وكان مع النَّفر القلائل الذين ثبتوا يوم ( **أحد** ) مع **رسول الله** ﷺ ، ودافع يومئذ عنه دفاع الأبطال .

وتولى قيادة عدة سرايا على عهد **النبي** ﷺ ، وكان من جنود بعضها الشيخان : **الصدِّيق والفاروق رضي الله عنهما** ، فأبلى في قيادة سراياه أعظم البلاء ، وانتصر على المشركين فيها انتصارات باهرة .

ولما التحق **النبي** ﷺ بالرفيق الأعلى ، أصبح **أبو عبيدة** على عهد **عمـر الفاروق** رضي الله عنه ، من أكبر قادة الفتح الإسلامي العظيم ، وحسبه أن يقال عنه : **إنه فاتح بلاد الشام والجزيرة** .

وبلاد الشام هي : **لبنان ، وسورية ، والأردن ، وفلسطين** .

**والجزيرة ، هي جـزيرة ابن عمـر ، كما يطلق عليها الجغرافيون القُدامى** .

وأراد **عمر بن الخطاب** أن يستخرج **أبا عبيدة** من منطقة الوباء ، بعد اشتداده سنة ثماني عشرة الهجرية ، ولكن **أبا عبيدة** كتب إلى **عمر** :

« **... لا أجد بنفسي رغبة عن جند المسلمين ، فلست أريد فراقهم** ... » . وبقي مع جنوده حتى تُوفي بالطَّاعون مع من توفي من جند المسلمين ، وهذا دليل واحد من الأدلة الكثيرة على شجاعته النادرة التي لا تتكرر إلا نادراً .

## القـــائد الســادس . . .

ومات **عبد الرحمن بن عَوْف** رضي الله عنه ، في منزله على فراشه بأجله الموعود ، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر شعبان من السنة السادسة الهجرية .

شهد غزوة (**بَدْر**) الكبرى الحاسمة ، فأسر أسيراً من المشركين ، وقتل رجلاً من قريش ، وغنم أدراعاً .

وثبت يوم (**أحد**) مع **رسول الله** ﷺ ، وما ثبت معه يومئذ غير قليل من أبطال المسلمين ، وجرح في هذه الغزوة لاستقتاله في الدِّفاع عن **النبي** ﷺ إحدى وعشرين جراحة ، وجرح في رجله فكان يعرج منها ، وسقطت ثنيتاه فكان أَهْتَم ، وقتل رجلين من المشركين .

ومواقفه البطولية في الدفاع عن **النبي** ﷺ والإسلام والمسلمين ، أكثر من أن تُحصى وتُعدّ .

## القـــائد الســابع . . .

ومات **عمرو بن أُمَيَّة الضَّمري** على فراشه في بيته بأجله الموعود ، وقد تولى القيادة لأول مرة في السنة السادسة الهجرية .

وكان من أنجاد العرب ورجالها نجدةً وجراءة وجوداً .

ومن جراءته أن المشركين من قريش صلبوا **خُبَيْب بن عَدِيّ رضي الله عنه** بالتنعيم قريباً من مكة المكرمة وجعلوا عليه حرساً منهم ، فاختطف عمرو جثة **خُبَيب** ، وعاد بها إلى المدينة المنورة .

وكان **أبو سفيان بن حرب** قد بعث رجلاً من المشركين لاغتيال **النبي** ﷺ ، فانكشف أمر المشرك وأسلم .

وبعث **النبي** ﷺ **عمرو بن أمية** وبرفقته مسلم آخر اسمه :

**● إن قادة النبي ﷺ المتميزين بالشجاعة الفائقة استشهدوا في ساحة الجهاد ، والقادة المتميزين بالشجاعة النادرة ماتوا على فراشهم ونعم الحارس الأجل ..**

سَلَمَة ، إلى **أبي سفيان** ، وقال لهما :

« **إن أصبتما منه غِرَّة فاقتـــلاه** » .

ودخل **عمـرو** وصاحبه مكة ، ومضى **عمرو** يطوف بالبيت العتيق ليلاً ، فرآه **معاوية بن أبي سفيان ، فعرفه ، فأخبر قريشاً بمكانه ، فخافوه وطلبوه ، وكان فاتكاً في الجاهلية ، فهرب عمرو وسَلَمة** .

ولقي **عُبَيْدَ الله بن مالك التميمي** ، وكان مشركاً ، فقتله ، وقتل مشركاً آخر ، سمعه يغني ويقول :

**ولستُ بمسلمٍ ما دُمتُ حيّاً**

**ولستُ أَدِينُ دِينَ المسلمينـــا** !

ولقي رسولين لقريش من المشركين ، يتجسسان على المسلمين ، فقتل أحدهما وأسر الآخر .

وقدم **عمـــرو** المدينة المنورة عائداً من رحلته إلى مكة المكرمة ، فجعل يُخبر **رسول الله** ﷺ خبره ، **ورسول الله** ﷺ يضحك ، إعجاباً بشجاعته النادرة .

ومواقف **عمـــرو** البطولية كثيرة جداً ، فقد كان بطلاً في الجاهلية ، وبطلاً في الإسلام .

## القـــــائد الثـــامن . . .

ومـات **أبو بكر الصديق رضي الله عنه** على فراشـــه ، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر شعبان من السنة السابعة الهجرية .

وكان من المهاجرين السبعة الذين ثبتوا مع **رسول الله** ﷺ يوم **(أُحد)** .

وأثبت كفاية عالية في **قيادته المستقلة** لسريته ، وانتصر بالعدد القليل من رجاله على العدد الكثير من المشركين .

وكان من الذين ثبتوا مع **رسول الله** ﷺ يوم **(حُنَيْن)** ، والذين ثبتوا معه يومئذ قليل .

وقال **عبد الله بن مسعود** عن شجاعة **أبي بكر** :

« **لقد قمنا بعد رسول الله** ﷺ **مقاماً كدنا نهلك فيه ، لولا أن الله مَنَّ علينا بأبي بكر** » في عزمه وتصميمه على قتال المرتدين ، وانتصاره عليهم نصراً مؤزراً ، فاستعاد التوحيد والوحدة للعرب في ظلِّ الإسلام .

وعن **أبي رجاء العُطاردي** قـــال :

« **دخلت المدينة ، فرأيت الناس مجتمعين ، ورأيت رجلاً يُقبِّل رأس رجل ، وهو يقول : أنا فداؤك ! ولولا أنت لهلكنا . فقلت : مَنْ المُقَبِّل ، وَمَن المُقَبَّل ؟ قالوا : ذاك عمر يقبِّل رأس أبي بكر في قتاله أهل الرِّدَّة ، إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين** » .

وحسبنا شهادة **الأمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه** ، فقد سأل **عليٌّ** من حوله : « **أخبروني من أشجع الناس ؟** » ، فقالوا : « **أنـــت** » ، فقال : « **أما أني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ، ولكن أخبروني من أشجع الناس ؟** » ، فقالوا : « **لا نعلم** » ، **فقال** : « **أبو بكر ! إنه لما كان يوم بدر ، فجعلنا لرسول الله** ﷺ **عريشاً** ، فقلنا : **من يكون مع رسول الله** ﷺ ، **لئلا يهوي إليه أحد من المشركين ؟ فوالله ما دنا منَّا أحدٌ إلا أبا بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله** ﷺ ، **لا يهوي إليه أحد ، إلا هوى إليه ، فهو أشجع الناس** » .

وشجاعة **أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه وأرضاه** ، أشهر من أن تُعَرَّف ، وهي ليست بحاجة إلى دليل .

إن شجاعته النادرة لا تتكرر أبداً .

## القـــــائد التاســـع . . .

ومات **غالب بن عبد الله الليثي** حتف أنفه على فراشه في داره بأجله الموعود ، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر رمضان من السنة السابعة الهجرية .

وتولى **غالب** قيادة أكثر من سرية من سرايا **النبي** ﷺ ، حقق بها انتصارات باهرة بقواته القليلة على قوات المشركين الكثيرة ، فكان بحق قائداً فذّاً من قادة **النبي** ﷺ ، كما قاد مقدمة **النبي** ﷺ في غزوة فتح مكة ، وكانت قيادته متميزة للغاية .

وشهد **غالب** معارك حروب الردَّة وفتح العراق ، فكان من أبطال المسلمين المعدودين ، وفي معركة ( **البُوَيْب** ) التي كانت سنة ثلاث عشرة الهجرية ، وكانت من معارك فتح العراق ، قتل **غالب** وحده تسعة رؤوس من الفُرس في هذه المعركة وحدها .

وكان له موقف مشـرِّف في معركة القادسية الحاسمة التي كانت سنة أربع عشرة الهجرية ، **فهو الذي قتل هُرمز ملك مدينة (الباب) التي تسمى اليوم** : (دربند) على بحر الخزر ، وكان **هُرمز** يومئذ من أكبر قادة الفرس ومن أشجع شجعانهم .

لقد كان **غالب** بطلاً مغواراً ، يتحلى بالشجاعة النادرة .

## القـــــائد العاشـــر . . .

ومات **أبو قَتَادَة بن ربعي الأنصاري الخزرجي** على فراشه في داره بأجله الموعود ، وتولى القيادة لأول مرة في شهر شعبان من السنة الثامنة الهجرية .

وكان قد شهد سرية **عبد الله بن عَتِيك** ، لقتل اليهودي أبي رافع **سَلاَّم بن أبي الحُقَيق النَّضْري** ، وقد قتلته لأنه كان يحرض المشركين على المسلمين ، فنسي **أبو قتادة** قوسه في موضع قتل **أبي رافع** ، فذكرها بعد ما نزل ، فرجع واستعاد قوسه ، ثم عاد إلى أصحابه ، دون أن يخشى حشود يهود أو يحسب لها حساباً .

وشهد غزوة ( **المُرَيْسِـيْع** ) ، وكان يحمل لواء المشركين أحدهم وهو **صَفْوَان ذو الشُّقْر** ، فشد عليه **أبو قتادة** ، فكان الفتح .

وشهد غزوة ( **ذي قَرَد** ) ، فقتل **مَسْعَدَة بن حَكَمَة بن مالك بن حُذَيْفَـة الفِزَارِي ، وحبيب بن عُيَيْنَة بن حِصْن** ، فقال **رسول الله** ﷺ يوم ذي قَرَد : « **خير فرساننا أبو قتادة** » ، ومن يومها أصبح يعرف بفارس **النبي** ﷺ .

وكان في قيادته لسريتين من سرايا **النبي** ﷺ موفقاً ، فأثبت أنه قائد لامع .

وشهد غزوة ( **حُنَيْن** ) ، فقتل أحد المشركين ، فأراد أن يستأثر بسلبه أحد مسلمي الفتح الذين أسلموا حديثاً بعد فتح مكة ، فقال هذا الرجل **للنبي** ﷺ :

« **يا رســـول الله ! سَلَبُ ذلك القتيل عندي ، فَأَرضِهِ عني** » ، يريد سَلْب قتيل أبي قتادة ، ويريد أن يستأثر به دون أبي قتادة . ولكن **أبا بكر الصديق** قال : « **لا والله ! لا يُرضيه منك ، تَعْمد إلى أسد من أُسْدِ الله ، يقاتل عن دين الله ، تقاسمه سلبه ! ارْدُد عليه سَلَب قتيله** » ، وكان هذا **الأسد من أُسد الله** ، الذي يقاتل عن دين الله ، **أبا قتـــادة** .

والحديث عن شجاعة **أبي قتـــادة** النادرة وبطولاته الفذَّة يطول .

>

# دروسان حيويان مقتبسان من قادة النبي ﷺ لحاضر المسلمين ومستقبلهم

## القـــــائد الحـادي عشـــر . . .

ومات **خـــالد بن الوليد** على فراشـــه كما يموت الـعير ، كما قال هو عن نفسه حين حضرته الوفاة .

وكان قد تولى القيادة لأول مرة في سرية ( **مُؤْتَة** ) التي كانت في جمادى الأولى من السنة الثامنة الهجرية ، فقد أمَّرَه المسلمون على أنفسهم بعد استشهاد قادة هذه السرية الثلاثة بالتعاقب : **زيد بن حارثة ، وجعفر بن ابي طالب ، وعبد الله بن رَواحة** ، فاصطلح المسلمون على **خـــالد** ، وولّوه قيادتهم في موقف ميؤوس منه وعصيب للغاية ، فأنقذ المسلمين الذين شهدوا تلك المعركة وبقوا على قيد الحياة ، من الإبادة والإفناء ، بفضل قيادته النادرة وشجاعته الفذَّة .

واستعمله **النبي** ﷺ على سرية من سراياه لأول مرة في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية ، ثم استعمله من جديد على سريتين أخريين ، كما استعمله قائداً مرؤوساً في غزوة فتح مكة وغيرها .

لقد شهد **خـــالد** ثلاث معارك مع المشركين على المسلمين ، وشهد بعد إسلامه اثنتي عشرة معركة في **عهد النبي** ﷺ ، وشهد في حروب الرِدَّة على عهد **أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه** ثلاث معارك هي أهم وأخطر وأكبر معارك حروب الرِدَّة ، وقاتل الفرس في العراق في خمس عشرة معركة ، وخاض في طريقه من العراق إلى أرض الشام غمار أربع معارك ، وقاد سبع معارك في أرض الشام ، فكان مجموع ما شهده من معارك في حياته العسكرية أربعاً وأربعين معركة ، كانت نتائجها كلها باهرة في تاريخ الإسلام وفي تاريخ العرب والمسلمين وفي تاريخ الحرب العالمي .

وانتصاراته الباهرة جعلته قائداً مشهوراً منذ كان حتى اليوم وإلى ما شاء الله ، ليس على النِّطاق العربي أو الإسلامي فحسب ، بل على النِّطاق العالمي ، ومعاركه تدرس في المعاهد والمدارس والكليات العسكرية الأجنبية ، كما تدرس في المعاهد والمدارس والكليات العسكرية وكليات الأركان والقيادة العربية الإسلامية .

وطالما سمعنا أو قرأنا ، أن ألمع قادة الغرب ، يفخرون بأنهم طبَّقوا خطة عسكرية تعلموها من خطط **خـــالد** .

وطالما سمعنا أو قرأنا أن ألمع القادة الأجانب يشبِّههم الذين يريدون أن يرفعوا أقدارهم من الكتَّاب والمؤلفين بأنهم **كخالد** ...!

ولولا حرصي على ألا أذكر أولئك القادة الأجانب الذين يفخرون بـ « **خـــالد** » ، وأولئك الـذين يشبِّهـون القـادة الأجـانب بـ « **خالد** » ، لعدَّدت أسماءهم ، فلن يكون أحدهم مثله أبداً ، وشتان بين الأصل والصورة ، وشتان بين **خالد** وبين غيره من القادة الأجانب !

وحسـب **خالد** قولة **رسول الله** ﷺ فيه :

« **خالد سيف من سيوف الله ، سلَّه الله على المشركين** » .

ولكن **خالداً** حين حضرته الوفاة قال : « **ما كان في الأرض من ليلة احبّ إلي من ليلة شديدة الجليد ، في سرية من المهاجرين ، اصبِّح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد** » .

وتنهد قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حزناً وأسفاً على الشهادة التي فاتته بالرغم من تعرضه لأفدح الأخطار ، في أقسى المعارك ، فقال : « **شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما في جسدي موضع شِبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ، ثم ها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء** » .

## القـــــائد الثاني عشـــر . . .

ومـــات **عمرو بن العاص** على فراشه ، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر جمادى الآخرة من السنة الثامنة الهجرية ، وتولى قيادة سريتين من سرايا **النبي** ﷺ ، فأحسن في قيادته غاية الإحسان .

ولما التحق **النبي** ﷺ بالرفيق الأعلى ، شهد **عمرو** حروب الرِدَّة ومعارك فتح بلاد الشام ، كما شهد فتح مصر وليبيا ، وفَتَحَ فلسطين وأجزاء من بلاد الشام ومصر وليبيا .

ومن مواقفه التي تدل على شجاعته النادرة ودهائه أيضاً ، أنه اقام على (**أَجْنَادِين**) في فلسطين ، لا يقدر على قائدها **الأرطبون الرومي** ولا تشفيه الرسل ، فسار إليه بنفسه ، ودخل عليه كأنه رسول ، ففطن به **الأرطبون** وقال : « **لا شك أن هذا هو الأمير اوَمنْ ياخذ الأمير برايه** » ، فأمر رجلاً أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مر به .

وفطن **عمـرو** بغدر **الأرطبون** ، فقال له : « **قد سمعت مني وسمعتُ منك ، وقد وقع قولك مني موقعاً ، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره ، فأرجع فآتيك بهم الآن ، فإن راوا في الذي عرضت مثل الذي ارىٰ ، فقد رآه أهل العسكر والأمير ، وإن لم يروه رددتهم إلى مامنهم ، وكنت على رأس أمرك** » ، فقـال **الأرطبون** :

« **نعم !** » ، وردّ الرجل الذي أمره بقتل **عمـرو** ؛ وخرج **عمـرو** من عند **الأرطبون** ، فعلم **الأرطبون** أن **عَمْـراً** خدعه ، فقال :

« **خدعني الرجل ! هذا ادهى الخلق** » ، وبلغت هذه القصة **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه ، فقال : « **لله درّ عمـرو** ! » .

لقد كان **عمــرو** من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية مذكوراً بذلك فيهم ، وكان جريئاً مقداماً ، وذا رأي قريش كما وصفه **ابو بكر الصديق رضي الله عنه** ، فكان **عمـرو** يقاتل بشجاعته النادرة وعقله الراجح ، لذلك كان موضع ثقة **النبي** ﷺ وخلفائه من بعده ، فقال **عمـرو** عن ثقة **النبي** ﷺ به واعتماده عليه : « **ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد احداً من اصحابه في حربه منذ أسلمت** » .

وصـدق **عمـرو** ، وحسبه ثقة **رسول الله** ﷺ به ، وهي ثقة لا تكون إلا في مكانها الصحيح .

## القـــــــائد الثـالث عشـــر . . .

ومـــات **سعد بن زيد الأنصـــاري الأوسي الأشهلي** حتف أنفه ، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية .

وقد شهد غزوة ( **ذي قَرَد** ) قائداً لفرسان المسلمين ، فطارد **عُيَيْنَة بن حِصْن** الذي أغار على سرح المسلمين بالقرب من المدينة المنورة ، وقتل **حبيب بن عُيَيْنَة بن حِصن** في رواية ، وفي رواية أخرى أن الذي قتله هو **أبو قَتَادَة** كما ذكرنا من قبل .

وأحسن **ســـعد** في قيادة سريته غاية الإحسان ، وأحسن في أداء واجبه على أحسن وجه .

وقد شهد **ســـعد** بَدْراً وأُحداً والخندق والمشاهد كلها مع **رسول الله** ﷺ ، كما شهد قسماً من سرايا **النبي** ﷺ جندياً مرات وقائداً مرة واحدة ، فأدَّىٰ واجبه في الجهاد العملي جندياً وقائداً بشكل مثالي يدعو إلى أعمق التقدير ، وأبدى في جميع المعارك التي خاضها شجاعة نادرة .

لقد كان **ســـعد** معدوداً من أشجع شجعان الأنصار .

## القـــــــائد الرابـــع عشـــر . . .

ومات **عُيَيْنَة بن حِصْن الفَزَارِي** على فراشه كما يموت الـعير ، وكان قد تولى القيادة لأول مرة في شهر المحرم من السنة التاسعة الهجرية .

وكان بطلاً من أبطال العرب في الجاهلية وبعد الإسلام ، وسيداً من سادات العرب ، وكان أحد المؤلَّفة قلوبهم ، الذين كانوا أشرافاً من أشراف العرب ، يتألَّفهم **النبي** ﷺ بما أعطاهم ويتألَّف بهم قومهم .

وكان **عُيَيْنَة** من الجرَّارين في الجاهلية يقود عشرة آلاف ، ولم يكن الرجل يسمى : جرّاراً ، حتى يرأس ألفاً على الأقل ، وقد قاد **غطَفَان إلى بني تَغْلِب** ، كما قاد قومه في كثير من أيام العرب قبل الإسلام .

وشهد معارك طاحنة مع المشركين على المسلمين قبل إسلامه ، وشهد معارك طاحنة مع المسلمين على المشركين بعد إسلامه جندياً وقائداً .

وقاد سرية من سرايا **النبي** ﷺ ، لأنه كان أول من انتدب لحرب المنحرفين من **بني تميم** الذين منعوا الزكاة ، ولم يستجيبوا للمصدِّق الموفد إليهم من **النبي** ﷺ ، فكان عند حسن ظن المسلمين به في قيادته ، وكان لشجاعته النادرة أثر عظيم في انتصار سريته بعددها القليل على المنحرفين بعددهم الكثير .

لقد كانت حياة **عُيَيْنَة** سلسلة من المعارك المتصلة ، فقد كان بطبيعته **مِسْـعَر حرب** ( المسعر : ما تحرك به النار من حديد أو خشب ، ومسعر حرب : موقد حرب ) ، عاش في حرب متصلة لا تكاد تهدأ ، وكان فيها فارسها البطل .

## القـــــــائد الخامـــس عشـــر . . .

ومـــات **قُطْبَة بن حَدِيدة الأنصاري** حتف أنفه ، وهو الذي تولى القيادة لأول مرة في شهر صَفَر من السنة التاسعة الهجرية .

وقد شهد غزوة (**بَدْر**) الكبرى الحاسمة ، فرمى حجراً بين الصفين وقال : « **لا أفرّ حتى يفر هذا الحجر** » ، وقد ثبت في تلك الغزوة ثبات الراسيات ، وقاتل فيها قتال الأبطال ، وأسر أحد صناديد قريش من المشركين .

وشهد غزوة (**أُحد**) ، وكان أحد الرماة الماهرين الذين برزوا بين المسلمين في تلك الغزوة ، وجرح فيها تسع جراحات ، فلم تمنعه جراحاته الغائرة من المبادرة إلى الخروج في اليوم التالي من يوم (**أُحد**) مع **النبي** ﷺ والمسلمين الذين شهدوا غزوة (**أُحد**) إلى ( حمراء الأسد ) لمطاردة المشركين ، فشهد مع **رسول الله** ﷺ تلك الغزوة التي رفعت معنويات المسلمين من جهة ، وحطَّمت معنويات المشركين من جهة أخرى .

وشهد **قطبـــة** معركة (**مُؤْتَة**) ، فلما استُشهد القادة الثلاثة بالتعاقب ، وكانت الهزيمة وقُتل المسلمون ، جعل قطبة يصيح : « **يا قوم ، يُقتل الرجل مقبلاً أحسن من أن يُقتل مُدبراً** » فقاتل في تلك المعركة قتال الأبطال الأفذاذ .

وشهد **غزوة فتح مكَّة** ، فعقد **النبي** ﷺ الألوية والرايات في (**قُدَيْد**) ، **فجعل راية بني سَلِمَة قومه من الأنصار مع قطبة ، والراية لا تُعقد إلا لمن يحافظ عليها ويحميها من الأعداء** .

وحين تولى **قطبـــة** قيادة سرية من سرايا **النبي** ﷺ ، أحسن في قيادته غاية الإحسان ، وانتصر على عدوِّه وعدوِّ المسلمين انتصاراً باهراً ، بينما كانت سريته قليلة العدد والمدد ، وكاد عدوّه وعدوّ المسلمين كثير العدد والمدد .

وقد شهد المشاهد كلها مع **رسول الله** ﷺ ، لم يتخلف عنه في مشهد من مشاهده ، بالإضافة إلى السرايا التي شهدها مع قادة السرايا الآخرين ، فكان في كل مشهد شهده نادر الشجاعة فذ الإقدام .

لقد كان **قطبـــة** من أشجع شجعان الأنصار ، معروفاً بالشجاعة والإقدام .

## الأجـــــل الموعــــــود . . .

تلك **هي** الحقيقة الناصعة ، التي برزت لأول مرة في مطلع القرن الأول الهجري ، رسالة من رسائل الغيب ، تنكشف وتُكتشف لتذكِّر الجبناء بأن الأعمار بيد الله ، ولا يزيد فيها الجبنُ لحظة واحدة ، ولا تنقص منها الشجاعة لحظة واحدة أيضاً ، فقد رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف ، وصدق القائل : « **اطلب الموت توهب لك الحياة** » .

**هكذا** بكلِّ بساطة ، مات على فراشه الأشجع ، واستُشهد الشجاع في ميدان القتال .

ولم يستشهد الذي مات على فراشه من عجز ، بل حرسه أجلُه ، ونِعْم الحارس الأجل ، ولا حارس كالأجل .

ومات الذين قضوا نحبهم على فراشهم ، ومات الشهداء تحت ظلال السيوف ، ولم يبق أحد منهم ، ولكن استأثر الشهداء بالحياة الباقية التي كرمهم بها سبحانه وتعالى ، وجعلها ميزة لهم دون غيرهم من الناس .

ودرجة الشهداء عند الله من أرفع الدرجات ، وصدق الله العظيم :

**﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ، ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً ﴾** (النساء: ٦٩-٩٠) .

**ولو عاد المسلمون إلى مثل هذه التعاليم ، لما هانوا على الناس وعلى انفسهم ايضاً .**

**والله غالب على أمره ، وهو على كل شيء قدير .**





# درس في اختيار القادة من النبي صلى الله عليه وسلم

**الأســـوة الحســـنة :**

**■■ اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب ، ليس عملاً سهلاً ، وهو سر نجاح الحكام والمحكومين في الحياة العملية وفي الحرب والسلام .**

**ليس عملاً سهلاً لأن النفس الأمارة بالسوء إلا مَن رحم ربّك وقليل ما هم ، لا تَمِيلُ إلى تولية من هو أفضل منها كفاية وعلماً وخُلقاً ، وتميل إلى تولية من هو أقل منها كفاية وعلماً وخُلقاً ، ليسهل سيطرة الحاكم على المحكوم ، وليبرز الحاكم ويبقى المحكوم في الظل .**

**وهو سر نجاح الحكام والمحكومين ، لأن القادة الصالحين عقيدة وكفاية ، هم الذين يقودون شعوبهم إلى النصر في أيام الحرب ، ويعينونهم على التقدم والنجاح في أيام السَّلام ■■**

وقد كان النبي ﷺ مؤيداً من الله عز وجل بالوحي ، وكان لهذا التأييد أثره الحاسم في توفيقه بشيراً ونـذيراً ، ومشـرِّعاً وقاضياً ، وسياسياً وإدارياً ، وقائداً وجندياً ، ومربياً ومعلماً ، وبشراً وإنساناً .

وهذا التأييد الإلهي بالوحي ، لا يمنع أن تكون لكفاياته الشخصية عليه الصلاة والسلام أثر حاسم أيضاً في توفيقه ، وهذه الكفايات هي القدوة والأسوة والمثل الذي باستطاعة المسلم أن يضعها نصب عينيه ، لاتخاذها أسوة حسنة وقدوة ومثلاً أعلى له في الحياة ، لأنها كفايات بشرية متميزة ، يمكن الطموح إلى اقتفاء آثارها ما استطاع المسلم إلى ذلك سبيلاً .

وصدق الله العظيم :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: ١٣٤) .

أما التأييد الإلهي بالوحي ، فيقتصر على الأنبياء والرُّسل وحدهم دون سواهم من الناس .

**والنبي** ﷺ هو الأسوة الحسنة للمسلمين كافة ، في كل زمان ومكان ، وفي مختلف الظروف والأحوال .

## اختيـــــار الرجـــال . . .

لقد وجدت بالدراسة المستفيضة لسيرة **النبي** ﷺ ، ولسِيَرَ قادته العسكريين خاصة وغير العسكريين عامة ، أن من ضمن كفايات **النبي** ﷺ الفذة ، قابليته النادرة على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب .

ووجدت أن هذه القابلية التي التزم بها التزاماً حازماً في حياته المباركة ، هي من أهم الأسباب (**الدنيوية**) لانتصاره في أيام الحرب ، ونجاحه في أيام السلام .

وكان عليه أفضل الصلاة والسَّلام ، يعرف أصحابه معرفة دقيقة مفصلة ، وكان يعرف ما يتميز به كل صحابي من (**مزايا**) تفيد المجتمع الإسلامي الجديد ، وكان يستعمل هذه المزايا استعمالاً كاملاً لخير هذا المجتمع ، وللمصلحة العامة للمسلمين .

**وكان في الوقت نفسه ، يدرك ما يعاني كل صحابي من (نواقص) طبيعية ، وكان يتغاضى عن تلك النواقص ، ويغض الطرف عنها ، ويحاول تقويمها وتلافي محاذيرها ، وكان يذكر أصحابها بأحسن ما فيهم من مزايا ويشيد بها ، ويأمر أصحابه بالتغاضي عن نواقص إخوانهم والإشادة بأحسن ما فيهم من مزايا ،**

بقلم اللواء الركن : محمود شيت خطاب

■ إن النفس الأمارة بالسوء لاتميل الى تولية من هو أفضل منها كفاية وعلماً وخلقاً .

■ القادة الصالحون عقيدة وكفاية هم الذين يقودون شعوبهم الى النصر أيام الحرب و الى التقدم والنجاح أيام السلم .

**تقديراً لهم ، وإعجاباً بهم ، وتشجيعاً لهم .**

وكان عليه الصلاة والسلام ، بهذا الأسلوب الرائع الذي التزم به في كل حياته المباركة : يشيد بالمزايا وينتفع بها لخير المسلمين ، ويغض الطرف عن النواقص ويقوِّمها بالتي هي أحسن ، ويتستر عليها ، ولا يفسح المجال أن يشهَّر بها .

بهذا الأسلوب الحكيم الرائع ، كان **النبي ﷺ** ، يبني المسلم ولا يحطِّمه ، ويقوِّم المعوج ولا يكسره ، ويشيِّد للحاضر والمستقبل ، لا للحاضر القريب وحده ، ولا للساعة التي هو فيها .

**لقد كان عليه الصلاة والسلام ، لا يُبقي (المزايا) في أصحابه طاقات معطلة ، بل كان ينتفع بها لمصلحة المجتمع الإسلامي الجديد** ، وهذا يجعل طاقات أصحابه المتميزة تنطلق من عقالها وتتضافر لشدِّ أزر الأمة وتقويتها ودفعها نحو البناء والنصر .

**وكان عليه الصلاة والسلام ، يعرف كفايات أصحابه وقابلياتهم حق المعرفة ، فلم تُغْمَط كفاية ولم يُهْمَل صاحب كفاية ، فاضيفت التجربة العملية بعد تسخير تلك الكفايات إلى أصحابها ، فصُقلت تلك الكفايات ولمع اصحابها .**

وضع كل مسلم من ذوي الكفايات المتميزة ، في المكان المناسب لكفايته ، فلم تبق تلك الكفايات معطلة ، وأصبحت منتجة لصالح الإسلام والمسلمين .

## شــــــرطان رئيســـــان . . .

كان الشرطان الرئيسان اللَّذان التزم بهما **النبي ﷺ** في تولية القادة واختيارهم لتولي المناصب القيادية المختلفة ، هما :

**الإسلام أولاً وقبل كل شيء** ، فما ينبغي أن يتولى قيادة المسلمين غير القادة المسلمين الذين حسن إسلامهم .

**والكفاية ، فالعقيدة لا تكفي دون كفاية عالية** ، والكفاية العالية لا تكفي دون عقيدة راسخة .

إن العقيدة الراسخة شرط أساس لتولية القادة ، حتى يعمل القائد في خدمة عقيدته ومجتمعه أكثر مما يعمل لنفسه ولعائلته ، وهذا هو سر تفوق أهل العقيدة في أعمالهم على من لا عقيدة لهم أو لهم عقيدة فاسدة .

إنهم يعملون بكل جهودهم ، لأنهم يخافون الله ، وتحاسبهم ضمائرهم الطاهرة الملتزمة ، ولا أزيد .

والكفاية العالية شرط أساس لتولية القيادة ، حتى يبرز القائد في عمله ، ويكون إنتاجه بعيداً عن الشوائب قريباً من الكمال ، لأنه يعمل على هدى وبصيرة معتمداً على كفايته ، ولا يعمل في فوضى وتخبط لأنه محروم من الكفاية .

إن صاحب الكفاية العالية يستوعب منصبه ، ويكون أكبر منه ، فلا يضل ويغوى .

أما الذي لا كفاية له ، فيستوعبه المنصب ويكون منصبه أكبر منه ، فلا يفلح في عمله ولا يرتاح فيه ولا يريح .

وطالما سمعنا من يتساءل : **هل يُفضَّل صاحب العقيدة على صاحب الكفاية ، ام يُفضَّل صاحب الكفاية على صاحب العقيدة ؟**

وكثيراً ما ردَّدوا : **الإخلاص ، أم الكفاية ؟** وكثيراً ما يريد القائل : **الإخلاص لشخصه الكريم لا الإخلاص للمصلحة العامة .**

وفي غياب الالتزام بتعاليم الدين الحنيف ، تولى أهل الإخلاص ، وبقي أهل الكفاية طاقات معطلة ، فتعطلت المصالح ، وشاعت الفوضى ، وحرمت الأمة من القادرين على خدمتها .

والجواب على الذين يتساءلون ، **يجب ان يتوفر الشرطان الرئيسان في القادة : العقيدة الراسخة ، والكفاية العالية .**

وصاحب العقيدة الراسخة دون كفاية عالية ، يمكن أن يفيد في مجالات أخرى غير القيادة ، كالتعليم والدعوة إلى الله ، وإرشاد الناس .

وصاحب الكفاية العالية دون عقيدة راسخة ، غالباً ما يعمل لنفسه أكثر مما يعمل لغيره ، ولمصلحته الشخصية أكثر مما يعمل للمصلحة العامة ، وقد يضر أكثر مما يفيد .







والأمة لا تخلو من أصحاب العقيدة الراسخة ، والكفاية العالية ، والحاكم مسؤول عن استقطاب من يتوفر فيه الشرطان الرئيسان .

## العقيـدة الراسخـة . .

كان ثلاثون من قادة **النبي** ﷺ ، من الذين أسلموا قديماً ، وكانوا من السابقين إلى الإسلام .

وكان واحد وعشرون قائداً من السابقين الأولين إلى الإسلام ، من الذين شهدوا غزوة (**بَدْر**) الحاسمة .

وكان هؤلاء الذين أسلموا قديماً ، والذين شهدوا غزوة (**بدر**) خاصة على جانب عظيم من الإيمان العميق ، وهم من الذين ثبت إخلاصهم لعقيدتهم بشكل حاسم ، لذلك كان **النبي** ﷺ يضع ثقته الكاملة فيهم ويفضّلهم على غيرهم من أصحابه في تولي المراكز القيادية .

ومعنى ذلك أن ثمانين بالمائة ممن تولى المناصب القيادية من الذين أسلموا قديماً ، وستين بالمائة منهم من البدريين .

وكان واحد من قادته ممن أسلموا بعد الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة ، هو **كرز بن جابر الفهري** ، **ولاّه النبي** ﷺ قيادة سرية من سراياه ، لأنه كان فارساً مغواراً وشجاعاً مقداماً مندفعاً يحسن التعرض والمطاردة ، والسريَّة التي تولى قيادتها مؤلفة من الفرسان ، مهمتهم الاندفاع السريع والمطاردة ، وكان **كرز** قد أسلم وحسن إسلامه .

وكان واحد من قادته من الذين أسلموا بعد غزوة (**أُحُد**) التي كانت في السنة الثالثة الهجرية ، **وهو عمرو بن أمية الضمري** ، **ولاّه النبي** ﷺ لشجاعته الفائقة ولتطوعه مختاراً لتحمل الواجب الذي أوكل به إليه ، وكان **عمرو** قد حسن إسلامه .

وكان خمسة من قادته من الذين أسلموا قبل فتح مكة التي كانت في السنة الثامنة الهجرية ، وهم : **ابن ابي العوجاء السُلمي** ، **وخالد بن الوليد المخزومي** ، **وعمرو بن العاص السَّهمي** ، **وعُيَيْنَة بن حِصن الفزاري** ، **وعَلْقَمَة بن مُجزِّز المدلجي** .

وقد ولى **ابن أبي العوجاء السلمي** على سرية من سرايا الدعوة ، إلى قومه بني سُليم ، لأنه أعرف بمداخلهم ومخارجهم ، وأعرف بهم من غيره ، لأنهم قومه يعرفونه ويستجيبون له أكثر مما يستجيبون لغيره ؛ وقد أسلم ابن أبي العوجاء طوعاً وحسن إسلامه ، وكان حرياً أن يؤثِّر في قومه ليسلموا ، ولكنهم لم يستجيبوا له وأصروا على الكفر .

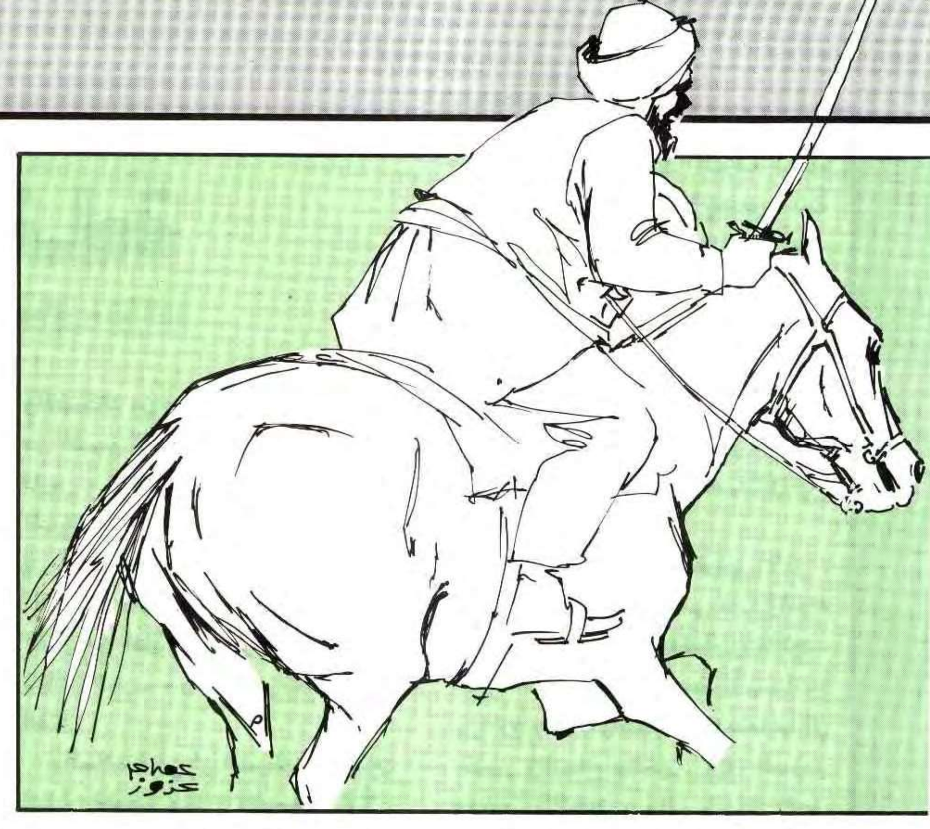
وقد ولى عليه الصلاة والسلام **عُيَيْنَة بن حصن** ، لأنه كان سيد **غطفان** ، وقد امتنع فخذ من أفخاذ تميم فلم يدفعوا صدقاتهم إلى المصدِّق الذي بعثه **النبي** ﷺ إليهم ، فقال **النبي** ﷺ :

« **من لهؤلاء القوم الذين فعلوا ما فعلوا** ؟ » . فانتدب أول الناس **عُيَيْنَة** ، فبعثه **النبي** ﷺ قائداً على سرية مؤلفة من خمسين فارساً من الأعراب ، ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري ، ويبدو أن مبادرة عُيينة إلى التطوع قبل غيره من الناس ، أدَّت إلى توليته قيادة هذه السرية التي خلت من المهاجرين والأنصار ، وهم المسلمون الأولون الذين لا ينبغي أن يتأمر عليهم غير القادرين من المسلمين الأولين ، إلا في حالات نادرة جداً ولضرورة قصوى وحكمة بالغة .

وولى **عليه الصلاة والسلام عَلْقَمَة بن مُجزِّز المدلجي** ، لأنه كان ذا كفاية قيادية عالية جداً ، بالإضافة إلى انه أسلم وحسن إسلامه ، كما أسلم **ابوه مُجزِّز** واخوه **وقَّاص** الذي استشهد في غزوة ( **ذي قَرَد** ) ( وذو قرد : ماء على ليلتين من المدينة المنورة بين المدينة وخيبر ) وكانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأول من السنة السادسة الهجرية ، فهو من أسرة إسلامية عميقة الجذور في الإسلام ، كما أن مهمة سريته كانت تعرّضاً في البحر الأحمر بالقرب من مدينة (**جُدَّة**) ميناء مكة المكرمة على البحر ،

■ **القائد الذي لا كفاية فيه يستوعبه المنصب ويكون منصبه أكبر منه فلا يفلح في عمل ولا يرتاح ولا يريح .**

■ **كان الرسول الأسوة ﷺ لا يبقي المزايا في أصحابه طاقات معطلة بل كان ينتفع بها لمصلحة المجتمع الإسلامي .**




وكانت خبرة العرب يومئذ في الحروب البحرية نادرة جداً وقليلة للغاية ، فمن المحتمل أن تكون **لعلقمة** تجربة في البحر ، بالإضافة إلى كفايته القيادية المتميزة ، لينال شرف قيادة سرية من سرايا **النبي** ﷺ ، تنهض بمهمة واجب قتالي في البحر .

**إن تولية ثمانين بالمائة من مجموع قادة النبي ﷺ ، من الذين أسلموا قديماً ، وستين بالمائة منهم من البدريين ، المناصب القيادية لسرايا النبي ﷺ ، دليل قاطع على أهمية العقيدة الراسخة في تولية القادة .**

والذين تولوا القيادة من الذين لم يسلموا قديماً ، إنما تولّوا مناصبهم القيادية بعد أن حَسُنَ إسلامهم .

إن العقيدة الراسخة شرط رئيس من شروط تولية المناصب القيادية ، وهو الشرط الأول من شرطين رئيسين .

والقائد الذي لا يتحلى بالعقيدة الراسخة لا يمكن أن يأتي بخير أبداً ، وتاريخ الحروب خير دليل على ذلك .

## الكفاية العاليـــة . . .

لم يتسنم قادة **النبي** ﷺ مناصبهم القيادية ، لأنهم كانوا يتحلون بالعقيدة الراسخة فحسب ، إذ لم يُوَلِّ **النبي** ﷺ القيادة للذين أسلموا قديماً كافة ، بل ولى قسماً منهم فقط لا يزيد عددهم عن ثلاثين قائداً . كما أن البدريين جميعاً لم يتولوا مناصب قيادية على عهد **النبي** ﷺ ، بل تولى منهم واحد وعشرون قائداً .

والذين تولوا القيادة على عهد **النبي** ﷺ ، يتوفر فيهم شرطان رئيسان : **العقيدة الراسخة ، والكفاية العالية** .

وقد تحدثنا عن أولئك القادة الذين تحلوا بالعقيدة الراسخة ، وهم دون استثناء يتحلون بالكفاية العالية ، وإلا لما تولوا مناصبهم القيادية دون غيرهم من أمثالهم .

وولى عليه الصلاة والسلام **خالد بن الوليد وعمرو بن العاص** ، لكفايتهما القيادية العالية ، كما أنهما أسلما وحسن إسلامهما ، وكان **النبي** ﷺ يعرفهما شخصياً ويعرف أنهما لا يُسلمان أبداً عن رهبة ولا لأسباب عاطفية ، بل إن إسلامهما عن رغبة وبعد تفكير طويل عميق وقناعة كاملة .

ولعلّ في تولية **خالد وعمرو** القيادة مثالاً حياً عملياً على تحري **النبي** ﷺ عن الكفاية القيادية المتميزة مع العقيدة الراسخة ، لتولي المناصب القيادية في أي موقع من مواقع القيادة العسكرية والمدنية أيضاً .

فقد سأل **النبي** ﷺ وهو بمكة المكرمة في عُمرة القضاء التي كانت في شهر ذي الحجة من السنة السابعة الهجرية ، **الوليد بن الوليد المخزومي أخا خالد بن الوليد رضي الله عنهما** قائلاً :

« **أين خالد** ؟! » ، ثم قال : « **ما مثل خالد من جهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وحدّه مع المسلمين على المشركين ، لكان خيراً له ، ولقدّمناه على غيره** » .

وكتب **الوليد بن الوليد** إلى أخيه **خالد** ، فكان ذلك سبب هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وإعلان إسلامه .

وقدم **خالد بن الوليد** إلى المدينة المنورة ، مهاجراً إلى الله ورسوله ، في أول يوم من أيام شهر صَفَر السنة الثامنة الهجرية .

قال خـــالد :

« **فلما طلعت على رسول الله ﷺ ، سلَّمت عليه بالنبوة ، فرد عليه الصلاة والسَّلام بوجه طلق ، فأسلمتُ وشهدت شهادة الحق ، فقال النبي ﷺ : قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يُسلمك إلَّا إلى خير . وبايعتُ رسول الله ﷺ وقلت : استغفر كل ما أوضعت فيه من صدٍ عن سبيل الله ! فقال : الإسلام يَجُبُّ ما قبله . قلت : يا رسول الله ! على ذلك ! قال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك .... فوالله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما يحزبه** » .

وما يقال عن **خالد بن الوليد** ، يقال عن **عمرو بن العاص** أيضاً ، فقد ولاه **النبي** ﷺ قيادة أصحابه في الجهاد بعد




# اختيار القادة من النبي ﷺ

إسلامه .

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام عن **خالد وعمرو** لأصحابه الذين كانوا حوله حين قدما المدينة المنورة مسلمين :

« **ألقت إليكم مكة أفلاذ كبدها** » .

لقد قدَّم **خالد بن الوليد وعمرو بن العاص** كفايتهما القيادية الفذة ، إضافة إلى إسلامهما طوعاً واختياراً .

هكذا كان **النبي** ﷺ يستقطب حوله أهل الكفايات العالية ، من أجل خدمة الإسلام والمسلمين ، ولتكون راية الله هي العليا . وكلمة الله هي العليا .

## شـــروط أخـرى ...

كان عليه الصلاة والسلام ، يقدِّم السابقين الأولين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار في توليتهم القيادة ، ما تيسرت لهم الكفاية القيادية العالية ، فالأقدمية في الإسلام لها وزن كبير ، وقد ذكرنا أن ثمانين بالمائة من قادة **النبي** ﷺ كانوا من السابقين الأولين إلى الإسلام .

وكان يقدم البدريين على غيرهم ، فلأهل بدر فضل عظيم على غيرهم من الصحابة الكرام ، وقد ذكرنا أن ستين بالمائة من قادة **النبي** ﷺ كانوا من البدريين .

وكان لا يؤمِّر أهل الوَبَر على أهل الحضر ، أي أنه لا يستعمل أعرابياً من أهل البادية على عربي من أهل المدن ، فقد كان خمسة وثلاثون من قادته الذين بلغ عددهم سبعة وثلاثين قائداً ، من أهل الحضر ، وكان قائدان فقط من قادته **عليه الصلاة والسلام** من أهل الوبر هما : **عُيَيْنَة بن حصن** الذي تطوع للنهوض بقيادته وسبق غيره بتطوعه ، **والضحَّاك بن سفيان الكلابي** الذي كان من أشجع الشجعان ، وكان يُعَدّ بمائة فارس ، كما أنه مكث ردحاً طويلاً في المدينة المنورة إلى جانب **النبي** ﷺ سيافاً له ، وقد ولَّاه على قومه في ظروف معينة ، ذلك لأن أهل الحضر ، أعرف بفنون القتال من أهل الوبر ، وأكثر صبراً على معاناة الحرب ، وأقدر على تحمل أعباء القتال .

والخلاصة هي أن الشرطين الرئيسين لتولية القيادة هما : **الإسلام أولاً ، والكفاية ثانياً** ، وهذان الشرطان هما القاعدة للتولية دون استثناء .

أما الشروط الأخرى : السابقون الأولون ، وأهل بَدْر ، وأهل الحضر ، فهي قواعد لا تخلو من استثناءات عند الضرورة القصوى .

وقد طبق **ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما** هذه الشروط نصاً وروحاً في تولية القادة ، ولم يحيدا عن هذه الشروط أبداً .

وقد استطاع **النبي** ﷺ والشيخان من بعده : **ابو بكر وعمر رضي الله عنهما** ، بتطبيق هذه الشروط في تولية القادة ، أن يجعلوا الصفوة المختارة من الأمة عقيدة وكفاية ، يقودون الأمة إلى النصر في أيام الحرب ، وإلى التفوق في النجاح في أيام السلام .

وما أسعد الأمة التي يقودها القمم من رجالها ديناً واقتداراً ، وما أسعد الأمة التي يقودها أفضل رجالها عقيدة وكفاية .

## عبرة اختيـــار القادة . .

إن استفادة **النبي** ﷺ وخليفتيه من بعده ، من مزايا كل مسلم حسن الإسلام ، واستقطاب المزايا لبناء المجتمع الإسلامي ، فلا يضعون لَبِنَةً إلا في المكان اللائق بها والمناسب لها ، جعل هذا البناء يرتفع ويتعالى سليماً مرصوصاً يشدّ بعضه بعضاً .

وكان اختيار القائد المناسب للعمل المناسب سبباً من أسباب انتصار **النبي** ﷺ وخليفتيه وتوفيقهم عسكرياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، في أيام الحرب والسلام .

ولما التحق **النبي** ﷺ بالرفيق الأعلى ، خلَّف في المجتمع الإسلامي قادة وأمراء وولاة وقضاة وعلماء وفقهاء ومحدِّثين ، قادوا الأمة الإسلامية عسكرياً وسياسياً وإدارياً وفكرياً واقتصادياً واجتماعياً إلى النصر والنجاح والخير ، وإلى السؤدد والمجد والتوفيق ، وإلى طريق الحق وسبيل الرشاد .

وكان أولئك القادة هم من خريجي مدرسة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام .

**وأسلوب اختيار القادة ، هو الدرس الحيوي الذي يجب أن يتعلمه العرب والمسلمون حكاماً ومحكومين في هذه الأيام وفي المستقبل أيضاً : أن يستفيدوا من الكفايات ولا يعطلوها ، وأن يضعوا الإنسان المناسب في الموقع المناسب .**

لقد كان **النبي** ﷺ قمة من القمم الشاهقة نسياناً لذاته ، وتفكيراً في صالح المسلمين وإخلاصاً لمصالحهم العليا .

لذلك خرَّج في مدرسته القمم من جميع الكفايات والقابليات لمختلف المناصب والواجبات .

وصدق **رسول الله** ﷺ :

« **مَن استعمل رجلاً من عِصَابة** ( جماعة من الناس ) **وفيهم من هو ارضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين** » [صحيح ، رواه الحاكم] .

ذلك هو رجل الدولة ، وهذا هو بيانه للناس ، وصفه عليه الصلاة والسلام في كلمات معدودات ، ولكنها تُغني عن مجلدات من المؤلفات .




□□ هذه مواقف مختارة من غزوة الأحزاب . ليس المطلوب لها الاستقصاء التاريخي ، ذلك لأن سير الحوادث التاريخية متوفر في مظانه من كتب التاريخ والسير والمغازي ، وإنما هي محاولة لقراءة معاصرة لبعض قضايا هذه الغزوة من خلال المعاناة التي يعيشها الجيل المسلم اليوم ، مساهمة منا في تصويب المسار ، والسعي وراء تأصيل بعض المفهومات التي كادت تغيب عن حياة المسلمين ، أو تستغلق على شكل معين يمكن أن يُكتشف بعض خطئه بإعادة المقايسة والمقارنة ، والمسلم مطالب دائماً بعملية المراجعة ، وعملية المقايسة خشية أن يكون من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فيضيع الأجر ويتبدد العمر ، ويتخلف النصر في الدنيا ، ونصاب بالعجز والانكسار ، وقد لا نجد مهرباً من ذلك إلا بإلقاء التبعة على الخارج ، على الآخرين : الاستعمار وأعوان الاستعمار ، لنعفي أنفسنا من المسؤولية ، ونحول دون ممارسة التصويب أو القدرة عليه ، وقد ينسحب بعضنا من المجتمع لعدم القدرة على التعامل معه ، ينسحب إلى الماضي ، يفاخر فيه ، ويطرب لإنجازاته ، ولا يستطيع الاغتراف منه وإخصاب تصوره والعودة إلى مجتمعه بما يصلحه ويسدد خطاه ، بل يكتفي بترديد شعارات لا تفسر ظاهرة اجتماعية وتدرس أسبابها ، ولا تبدل موقعاً إسلامياً إلى موقع آخر أكثر جدوىٰ وفائدة للإسلام والمسلمين ، ولا تستبدل وسيلة فاعلة بأخرىٰ متخلفة ...

والذي لا بد لنا من الاعتراف به ابتداءً أن السيرة النبوية في حياة الناس - إلا من رحم الله - لا تعدو أن تكون فترة زمنية أو حلقة تاريخية انتهت بأشخاصها وأحداثها ، غير قادرة على تقديم الأطر والقواعد لمشكلات الإنسان المعاصر ، سواءً في ذلك من يتنكر لها بقوله وعمله أم من يسلك مسلكاً آخر ممن ينتصر لها عاطفياً ويبقى عاجزاً عن تحقيق النقلة ، وتعدية الرؤية ، وحسن البصارة لمواطن الخطأ والصواب ؛ تبقى النتيجة واحدة ، ولا يختلف الفريقان إلا بالعناوين ، وقد يكون أحد الفريقين سقط في مخادعة نفسه ومخادعة الناس ، وكان موقفه العاجز دليل فشل مقولته ، وجاء واقعه مخالفاً لشعاراته ، لذلك فهو يساهم مساهمة سلبية في إجهاض الرؤية الإسلامية ، ويكون حاجزاً سميكاً بين الناس وبين هذا الإسلام العظيم ، وقد لا يكون المطلوب من مسلم اليوم أن يكون قادراً من خلال رصيده التاريخي وتراثه الثقافي وقيمــه الأصيلة في الكتاب والسنة ، قد لا يكون المطلوب منه فقط القدرة على « التفسير » للحوادث المعاصرة ، وإنما تجاوز ذلك إلى « التغيير » ودقة تحديد موقعه الفاعل ، لأن « التفسير » هنا هو مقدمة لـ « التغيير » وكفاية لمسلمي اليوم الوقوف عند عتبة المقدمات وعدم تجاوزها إلى النتائج .

فهل نستطيع في هذه العجالة إثارة الذهن المسلم تجاه بعض المواقع والمرتكزات التي لا نزال نشهد آثارها ، ولا تـزال تتكرر في عـالم المسلمين من خـلال بعض المـواقف التي نعـرض لهـا في غـزوة الأحـزاب ؟

**يهـــــود وراء تحزيب الأحزاب :** المعلوم من أخبار هذه الغزوة أنها على بعض الروايات كانت في ذي القعدة ، ولكن معظم الروايات تعتمد زمن حدوثها شهر شوال ، وقد امتد الحصار فيها شهراً تقريباً ، فقد تكون ابتدأت في شهر شوال ولما تنتهي إلاَّ في ذي القعدة .. من السنة الخامسة للهجرة ، وذلك أن يهود بني النضير خرجوا حتى قدموا قريشاً في مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم حتى نستأصله .

فقالت لهم قريش - التي جربت الحرب مع رسول الله ﷺ في بدر وأُحد واكتوت بنارها - : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟! قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه .. وشهدوا لقريش أن أصنامها أولى بالاتباع من إلـه محمد ﷺ ، فهم الذين أنزل الله فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ ( النساء : ٥١ ) .




# غـــزوة الأحزاب

عمر عبيد حسنه

فسَرَّ ذلك قريشاً ، ونشطوا لما دعوهم إليه ، واجتمعوا لذلك واتعدوا له ، ثم خرج يهود حتى جاؤوا غطفان ، وهكذا طافوا على بقية القبائل عارضين عليها مشروع غزو المدينة المنورة وموافقة قريش على ذلك .

وهذه ليست حادثة تاريخية عابرة ، خاصة في هذا العصر بعد أن أصبحت الشعوب تحاكم إلى تاريخها ، ولم يعد سراً أن يهود كانوا ولا يزالون وراء تحزيب الأحزاب في معظم المراحل ، ابتداءً من الحملات الصليبية ، على عالم المسلمين ذلك أن اليهود ركبوا الحصان الأوروبي بشكل مبكر حيث استقرت هجراتهم في أوروبا تاريخياً ، ووجهوه الوجهة التي يريدون .. فكانت الحروب الصليبية وكان الاستعمار ، ويركبون وليده الأمريكي الآن والنتائج ماثلة للعيان ...

كما أنه لم يعد سراً أنهم كانوا وراء تقويض الخلافة الإسلامية ، وصناعة الأحزاب ذات الدعوات الإقليمية وتقديم البدائل الفكرية عن الإسلام بعد مرحلة سقوط الخلافة .. والشهادة لهذه البدائل أنها أهدىٰ من الإسلام سبيلاً ؛ كما أنهم وراء تحزيب بعض الكتاب الذين انتهوا إلى مناخ الثقافة اليهودية التلمودية ، ولا همَّ لهم إلا الانتقاص من الإسلام والمسلمين ، وَتَسَقُّطِ العورات وتتبعها والتخصص فيها ، والقدرة العجيبة على البجاحة في الكلام عن الحرية والديمقراطية ، وهم من سدنة الظلم والظالمين ، في الوقت الذي يدفع المسلمون دماءهم في أكثر من موقع دفاعاً عن الإنسان وانتقاص حقوق الإنسان ، لكنه العوار العقلي !!..

## من التحالف اليهودي الوثني القبلي إلى التحالف الصليبي اليهودي الوثني القبلي :

لقد تم التحالف الوثني اليهودي القبلي ضد المسلمين ، كانت يهود وقريش وغطفان من أهم أعضائه ، واتفقوا على شروط ، من أهمها : أن تشـــارك غطفان بستة آلاف مقاتل ، وأن يدفع اليهود لها كل ثمار خيبر لسنة واحدة ؛ وحشدت قريش أربعة آلاف مقاتل فكانوا عشرة آلاف ... ... إن هذا التحالف لم يتوقف لحظة واحدة في تاريخ المسلمين الطويل وإن تغيرت أسماؤه وتبدلت وسائله ... والمال اليهودي يمده على أكثر من مستوىٰ ...

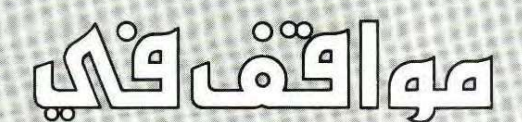
إن المال اليهودي الذي اشترى غطفان وحركها صوب المدينة هو الذي امتد إلى السلطان عبد الحميد ، فلما أبىٰ ذلك تقدم المال اليهودي لشراء رجال جمعية الاتحاد والترقي ، الذين كانوا الجسر الحقيقي لوصول يهود إلى فلسطين ، وإن التحالف الوثني الصليبي اليهودي الجديد هو الذي تقاسم مناطق النفوذ ، واقتسم تركة الرجل المريض ، وفرَّق عالم المسلمين ، وأسكن يهود في فلسطين ، لقد أسقط الحلفاء في الحرب العالمية كل وعودهم للعرب ، والتزموا بكل وعودهم ليهود ، ولا يزال العالم الإســـلامي يعاني من مسألة « الشرق الأوسط » أو « المسألة الشرقية » .. ولا يزال يعاني من لعبة الوفاق الدولي في فلسطين وأريتريا وأوغادين وكشمير وأفغانستان ولبنان وغيرها ... ويراد للمسلمين أن يكونوا في ذلك أدوات ، توظف دماؤهم في عملية الوفاق الدولي ، ولا يسمح لحركاتهم الجهادية أن تتجاوز المدىٰ المرسوم لها مسبقاً والحجم المقرر لها سلفاً .

## موقع الشورىٰ من حياة المسلمين :

لما سمع رسول الله ﷺ بزحف الأحزاب إلى المدينة ، وعزمها على استئصال شأفة المسلمين ، استشار المسلمين ، وقرروا بعد الشورىٰ : التحصن في المدينة والدفاع عنها ، وأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق ، وقال : يا رسول الله ، إنَّا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا ... فأمر بحفر الخندق ، واستمر الحصار نحو شهر تقريباً ، كما قدمنا ، وعظم البلاء وانخلعت القلوب وشاع النفاق ، وظن بالله كل ظن ، وبلغت القلوب الحناجر ، ونكتفي هنا بمثال واحد : قال بعض المنافقين « معتب بن قشير » : كان محمد يعدنا بكنوز كسرىٰ وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

وقال « أوس بن قيظي » على ملأ من رجال قومه : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا ، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنَّا ، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا ...




فلما اشتد البلاء على الناس ، وحقناً لدماء المسلمين ، بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن ، وإلى الحارث بن عوف المري ـ قائدي غطفان ـ وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، وأحضرت الصحيفة والدواة ليكتب عثمان بن عفان رضي الله عنه الصلح ، وهموا بكتابته ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمته إلا المراوضة في ذلك ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فذكر ذلك لهما ، واستشارهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله ، أمر تحبه فنصنعه ؟ أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ؟ أم شيء تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنَّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرىً أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطهم أموالنا ! والله ما لنا بهذا من حاجة .. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .. فقال رسول الله ﷺ : فأنت وذلك . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : ليجهدوا علينا .

إن ما يلمحه الإنسان في هذه الغزوة وفي غيرها من حوادث السيرة أن الرسول ﷺ أنزل الشورىٰ منزلتها وأصَّلها في حياة الأمة ، إذ لا بد من توسيع قاعدة الرأي ، والحاجة إليها إنما تكون خاصة في الشدائد والقرارات المصيرية والملمات على غاية من الأهمية ، حيث يكون الخطأ قاتلاً ، فالشورىٰ استفادة من كل الخبرات والتجارب ، واجتماع للعقول في عقل ، وقضاء على الاستبداد والفردية في الرأي ، وبناء يساهم الجميع في إقامته ، ومن ثم تكون أعلى أنواع التضحية والبذل في الدفاع عنه .

والرسول ﷺ مستغن عن الشورىٰ بالوحي ، فهو المؤيد بالوحي ، وهو المسدد به ، ولا حاجة به إلى الشورىٰ ، لكن لا بد من تأصيلها لتكون أصلاً من أصول الحكم لا يملك المجتمع المسلم أن يحيد عنها ، كما لا يملك الحاكم المسلم أن يتجاهلها أو يعتدي عليها ، ويقظة المسلم دائمة في العمل لها وعدم التنازل عنها ، لأن ذلك إلى جانب كل مضاره في الدنيا مدعاة لسخط الله الذي جعلها من سمات مجتمع المسلمين بقوله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورىٰ:٣٨) ، ومع ذلك لا يزال في عالم المسلمين اليوم من يستهويه الاستبداد ، ويتصيد الوقائع التاريخية ، ويجهد نفسه في تفسير النصوص ليخرج على المسلمين بأن الشورىٰ ليست ملزمة للحاكم ، وإنما هي معلمة له فقط ، وأن الحاكم بالخيار إن شاء عمل بها وإن شاء تركها ، وأُعطيَ الحاكم في الدولة وأُعطيَ المسؤول عن أية جماعة مسلمة من العصمة ما لم يعطه النبي المرسل ﷺ عندما سأله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة : شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيء تصنعه لنا ؟

وإذا كانت إلزامية الشورىٰ أو إعلاميتها اجتهاداً يمكن أن يخطىء ويصيب ، كما هو الحال في سائر الاجتهادات ، فما هو المسوغ للاستمساك بعدم إلزامية الشورىٰ والدفاع عن ذلك بعد هذه الانهيارات الرعيبة وألوان الاستبداد في عالم المسلمين ، وهذا التردي والتصرف الفردي في بعض الجماعات التي تعمل للإسلام ؟!

وهناك قضية أخرىٰ تشكل الوجه الآخر لاجتهاد واعتقاد أن الشورىٰ معلمة وليست ملزمة ، وهي قضية هامة مطلوب إعادة النظر فيها بإلحاح ، وهي قضية البيعة العامة ، وما يترتب عليها من أحكام شرعية وقضايا سلوكية ، وكيف أن البيعة العامة في الشريعة الإسلامية لا يمكن أن تكون إلا لأمير المؤمنين الذي يمتلك من الصلاحية والمسؤولية ما يجعله قادراً على إقامة الدين وإنفاذ الأحكام ، وتنفيذ العقوبات الشرعية ، وإعلان الحرب ، والجنوح إلى السلم ، وما إلى ذلك مما هو مختص بأمير المؤمنين في التصور الإسلامي ، وأن كل الزواجر التي وردت في شق عصا الطاعة ومفارقة الجماعة وما إلى ذلك إنما هي في هذا المجال .

أما البيعة الخاصة فهي عهد على تنفيذ مهمة معينة من خلال الظروف المتاحة والامكانات المتوفرة ، كقول الرسول ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فأمِّروا أحدكم » ، لتنظيم الحياة الاجتماعية ، ولضبط السلوك في البنية الاجتماعية كائنة ما كانت ، وبالتالي فلا يمكن لنا أن نجير الأحكام الفقهية للبيعة العامة لبعض مسؤولي الجمعيات والجماعات ، لأن المقومات الأصلية مفقودة ،



# غزوة الأحزاب

فهو ليس أمير المؤمنين ، ولا يمتلك من ذلك شيئاً ، فكيف والأحكام ثمرة لذلك فنفتقد الأصل ونستمسك بالفرع ؟! لذلك لا بد من التحري في ذلك لأنه محل نظر من الناحية الشرعية ، وقد سبب الكثير من الارتكاسات من ناحية السلوك العملي .

فالشـــورىٰ ليست ملزمة ! والبيعة عامة ! والمقومات مفقودة ، والنتائج كما نرىٰ ، فكيف يجوز أن يستعملا سيفاً مسلطاً على رقبة الفرد يحولان دون مناقشة الخطأ تحت عنوان : « في عنقـه بيعـة ، والشـورىٰ غير ملزمـة » !!

**نعيم بن مسعود .. ودقة تحديد موقع العمل الفاعل :**

وبينما رسول الله ﷺ وأصحابه فيما كان من الشدة والبلاء من الخارج ، وشكوك المنافقين وإشاعتهم الرعب في النفوس من داخل الصف :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ( يوسف : ١١٠ ) .

وقد بلغت المحنة غايتها ، جاء نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني ، فقال : يا رسول الله ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت . فقال رسول الله ﷺ : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » ، فأتى بني قريظة فقال : قد عرفتم ودّي إياكم ، لا تقاتلوا محمداً مع قريش وغطفان حتى تأخذوا منهم رُهُناً ، فإنهم إن لم يصيبوا نهزة لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبينه ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ... قالوا صدقت .

فأتى قريشاً فأظهر لهم إخلاصه ونصحه ، وأخبرهم بأن يهود قد ندموا على ما فعلوا ، وسيطلبون منهم رجالاً من أشرافهم تأميناً للعهد ، وسيسلمونهم إلى النبي ﷺ فيضرب أعناقهم .. وقال لغطفان مثل ما قال لقريش ، فكان كلا الطرفين على حذر ، وطلب أبو سفيان ورؤوس غطفان معركة حاسمة بينهم وبين المسلمين ، فتكاسل اليهود وطلبوا منهم رهائن من رجالهم ، فتحقق لقريش وغطفان صدق حديث نعيم وامتنعوا عن تحقيق مطلب يهود ، وبذلك تحقق اليهود من صدق نعيم كذلك ... وتوغرت صدورهم على يهود ، ودبت الفرقة بين الأحزاب .

وهكذا تمزق الشمل ، وتفرقت الكلمة ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وهنا لا بد من وقفـة وإن كانت هذه الوقفة ، مهما كانت طويلة سوف لا تعطي قضية نعيم حقها « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » لقد وضعه الرسول ﷺ على الجادة ، وأحسن نعيم السير ... أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي ، فمرني بما ترىٰ ... أية قدرة هذه في تحديد الموقع الفاعل للعمل الإسلامي من القائد ! وأية قدرة هذه على التصرف وحسن التحرك من خلال الظروف والامكانات من المسلم ؟! لم يعلم أحد بإســـلامي ـ الحـــرب خدعة ...

إن القدرة على التصرف من خلال الظروف المتاحة والإمكانات المتوفرة ، وتحديد موقع العمل الفاعل بدقة واختيار وسيلته المجدية هي مشكلة العمل الإسلامي اليوم ...

إن السلوك النبوي في مرحلة الدعوة والإنجاز النبوي في مرحلة الدولة يمدنا برؤية زاخرة تبتدىء عتبتها من قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ... ﴾ (النحل:١١٠) في مرحلة الدعوة ، واشتداد الظلم ، وفضل الصبر ، وتنتهي إلى قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ ( الأنفال: ٣٩ ) .

إنها القدرة كل القدرة على تحديد مواقع العمل من خلال هذه السلسلة الطويلة من الآفاق المتعددة ... ولعل العجز عن الرؤية هنا يأتي قاتلاً ، فقد نحنط أنفسنا أو يحنطنا أعداء الإسلام في موقع لا نستطيع أن نبصر غيره ـ وقد نتجاوز المواقع الممكنة والمجدية ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، إلى المواقع المستحيلة فنكلف أنفسنا بما لم يكلفنا الله به ـ ونرتاد مواقع لا نمتلك إمكاناتها ، الأمر الذي يوقعنا في الإحباط والانكسار ، وقد يلجئنا إلى محاضن مرفوضة شرعاً تحت شعار : « الضـــرورات تبيـح المحظـورات » ..

إنهـا الضرورات التي صنعنـاها بـأيدينـا لتـأتي النتـائج المترتبـة عليهـا أشبـه بمسلمـات تحكم العمـل الإسلامي لا تجوز مناقشتها .. والله المستعان على كل حال . □□

بقلم : اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ




**■■ روى الإمام أحمد والبخاري عن سليمان بن صُرَد والبزَّار برجال ثقات ؛ وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، والبيهقي عن قتادة رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال حين أجلى الله تعالى عنه الأحزاب :**

**« الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم ... » ( سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد : ٤/ ٥٤٩ ) ■■**

## قرار خطير ونقطة تحول تاريخية

هذا الحديث الشريف ، قرار خطير في تاريخ الإسلام يستحق أن نقف أمامه بكثير من التأمل والتدبر ، لما ينطوي عليه وما ترتب عليه من دروس تنفع المسلمين وتنير لهم الطريق للخروج من واقعهم الأليم .. **﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾** (هود : ١٢٠) .. **﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾** (النساء : ٢٦) .

فلقد كان هذا القرار نقطة تحول بارزة في صراع المسلمين مع أعدائهم في عصر النبوة ، انتقلت فيها المبادأة [ المبادأة ( أو المبادرة ) معناها باختصار : حرية العمل ، والذي يملك المبادأة يحرم خصمه من حرية العمل ، ويحصر أعماله في نطاق رد الفعل . وإحراز المبادأة من أهم عوامل النصر والنجاح في الحرب والسياسة على حد سواء ] إلى أيديهم لأول مرة في تاريخ هذا الصراع ، وترتب على هذا الانتقال آثار بعيدة المدى .. فطوال الفترة التي قضوها في المدينة من يوم الهجرة إلى ما قبل غزوة الخندق ، كانوا يتلقون هجمات أعدائهم ويواجهونها « **بمعارك دفاعية** » كان أبرزها : **غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة وأحد في السنة الثالثة ، ثم كانت غزوة الخندق في السنة الخامسة التي واجهوا فيها هجوم قريش والقبائل العربية واليهود** ..

**فقرار الرسول القائد ﷺ بعد غزوة الخندق (الأحزاب) :**

**« الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » ، معناه : أن يتحول المسلمون من الدفاع إلى الهجوم ، وأن يسيروا إلى أعدائهم بدلاً من البقاء انتظاراً لضرباتهم ، وبعبارة أخرى ، فإن معنى القرار أن يتحول المسلمون من حالة « رد الفعل » إلى « الفعل »** ..

ولا بد هنا من أن نصحح ما في بعض الأذهان من خطأ في فهم معنى « **الهجوم** » على أنه يعني العدوان أو الاغتصاب .. فالهجوم شكل من أشكال العمليات الحربية تتحرك فيه القوة إلى العدو وتوجه ضربتها إليه في مواقعه ، وطبيعة الحرب تجعل الهجوم شكلاً من الأشكال الضرورية لتحقيق الأهداف حتى في إطار العمليات الدفاعية ، ومن الأقوال الشهيرة في هذا المجال :

**« الهجــوم خير وسيلة للدفاع »** .

فليس من صواب الرأي أن نعتبر الهجوم مرادفاً للعدوان أو منطوياً على نواياه ، ولقد أوضح لنا **الرسول القائد** ﷺ هذا المعنى وأكده في معارك عصر النبوة ، فكل الغزوات والسرايا التي تحرك فيها المسلمون إلى عدوهم ليوجهوا إليه ضرباتهم هي « **عمليات هجومية** » تمت في إطار « **استراتيجية دفاعية** » تستهدف الدفاع عن الدعوة وحرية التدين ، ولم يكن العدوان أو الاغتصاب أو القهر هدفاً من أهدافها ، وإنما كانت أهدافها حقاً وعدلاً ودفعاً للاعتداء وإعلاء لكلمة الله .

## أسس هذا التحول التاريخي

وخطورة هذا القرار التاريخي وما ترتب على تنفيذه من نتائج تدعونا إلى محاولة تقصي الأسس التي بُنِيَ عليها ، فإن تنفيذ هذا القرار ينطوي على مواجهة تحديات كبيرة ، أهمها :

**أن المسلمين في عملياتهم المقبلة ضد قريش سوف يتركون المدينة قاعدتهم الرئيسة ، ويسيرون اربعمائة كيلومتر في ارض اقل ما يقال فيها انها « ارض غير صديقة » ، ثم يتجهون إلى مكة قاعدة قريش الرئيسة بكل ما فيها من « قوة بشرية » بأكبر حشد ، وبكل ما فيها من « حوافز معنوية » لأهلها للدفاع عنها في معركة تعد**

# الرسول صلى الله عليه وسلم ينتزع المبادأة من يد أعدائه

« معركة مصير » بالنسبة إليهم .

وليس من شك في أن **الرسول** ﷺ كان مدركاً لحجم هذه التحديات التي لم يسبق أن واجه المسلمون مثلها ، وفي أنه ـ مع ذلك ـ كان « مطمئناً » إلى اتخاذ قراره بكل ما له من عواقب ونتائج .

والواقع أن مما يعين على استخلاص أسس ذلك القرار ، استقراء تطور الأحداث خلال السنوات الخمس الأولى للهجرة :

## فشل قريش في تحقيق أهدافها

ففي خلال تلك الفترة كانت قريش تملك زمام المبادأة ، لكنها لم تستطع تحقيق **هدفها** الأساس وهو القضاء على الإسلام أو القضاء على المسلمين في موطنهم الجديد ، لقد قاتلت المسلمين في عدة معارك ، **أهمها** : **بدر** ، **واحد** ، **والخندق** بلا جدوى .

حتى في تلك الغزوة الأخيرة (**الخندق**) التي أرادت لها أن تكون « فاصلة » ، فحشدت لها كل ما أمكنها من قوى أخرى إلى جانب قوتها متمثلة في القبائل العربية واليهود ، لم تُجْدِها شيئاً .. والذي يُتصور أن قريشاً ـ إزاء هذا الفشل ـ سوف تضعف عزيمتها ، ويفتر استعدادها للعودة إلى التجربة مرة أخرى .

وهنا تظهر عبقرية **الرسول** ﷺ في فهمه لطبائع البشر ، وفراسته في « **رصد ملامح الضعف** » في قوة خصمه ، وسرعته الفائقة في اتخاذ القرار الصحيح في الوقت الملائم تماماً لتوجيه « **الضربة القاضية** » :

« **الآن نغزوهم ، ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم ...** » !!

## الضغط الاقتصادي على قريش :

وخلال تلك الفترة نجح المسلمون في فرض الحصار الاقتصادي على قريش بالسيطرة على طريق التجارة إلى الشام ثم على طريق العراق الذي تحولت إليه ؛ فبعد أن أصبح طريق الشام محفوفاً بالمخاطر ، تحولت قريش إلى طريق العراق ، فقد قال صفوان بن أمية : « **إن محمداً ﷺ واصحابه قد عوَّروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل واهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندري اين نسلك ، وإن اقمنا في دارنا هذه ، اكلنا رؤوس اموالنا ، فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء . فاشار عليه الأسود بن عبد المطلب ان يتخذ طريق العراق ، ففعل ، وتجهز من البضائع والفضة بما قيمته مائة الف درهم ، غير ان الرسول ﷺ بعث زيد بن حارثة في مائة راكب فاستولى على القافلة وهي في طريقها عند ماء يقال له (القَرَدة) من مياه نجد ، وهكذا لم يعد امام قريش إلا التجارة مع الحبشة ، وكان لذلك اسوأ الأثر على حياتها الاقتصادية** .

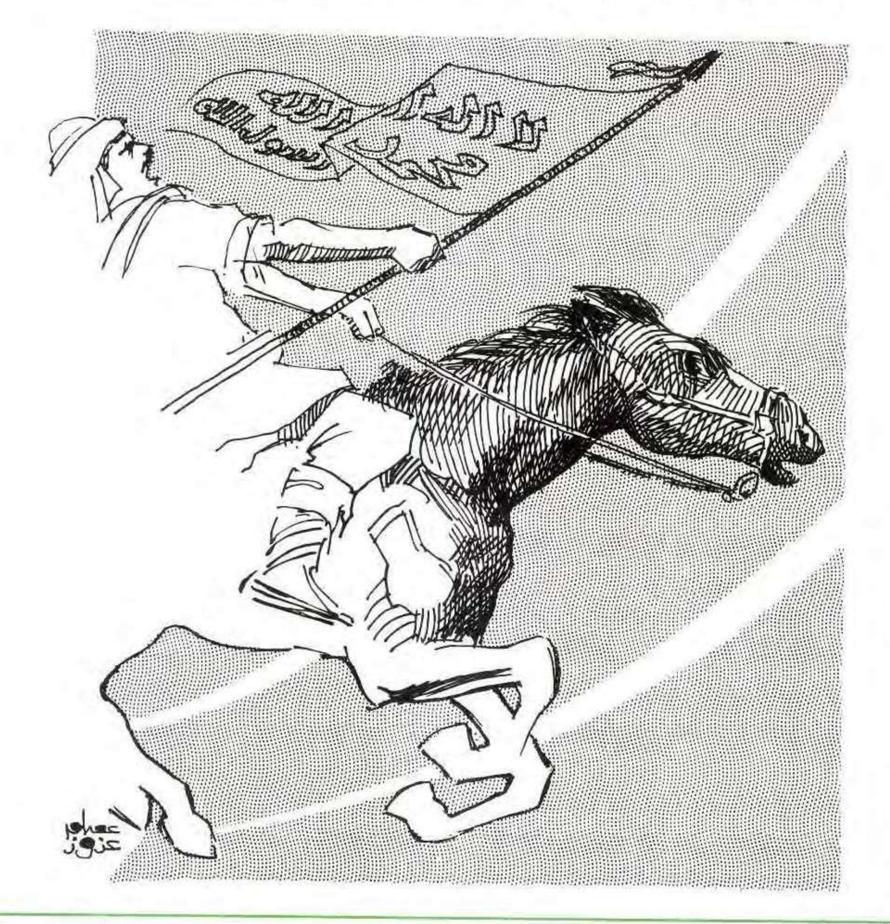
ولا بد وأن يكون لهذا الضغط الاقتصادي أثر كبير في عودة قريش إلى أن « تعيد النظر في موقفها » ضد المسلمين ، فيكون الضغط العسكري الذي يتحقق بعد انتزاع المبادأة ، « دافعاً » لها أكثر وأكثر في هذا الاتجاه .

## تأمين قاعدة المدينة :

لقد أصبحت المدينة خلال تلك الفترة « **قاعدة أمينة** » يستطيع **الرسول** ﷺ أن « **يتركها** » خلفه ، و « **يبعد** » عنها ما شاء من مسافات ، و « **يغيب** » عنها ما شاء من زمن ، ثم « **يعود** » إليها ليجدها ـ كما تركها ـ صلبة قوية أمينة .

والواقع أن تأمين المدينة المنورة كقاعدة للإسلام ، بدأ منذ اللحظة الأولى لوصول المسلمين إليها بعد الهجرة ، فكان أول ما عمد إليه **الرسول القائد** ﷺ إقامة جبهة داخلية صلبة ، وذلك بجمع صفوف المسلمين وتوحيد جبهتهم وإيجاد رابطة قوية بينهم ( توحيد صف الأنصار من أوس وخزرج ، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ) ثم بتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لسكان المدينة كافة من المسلمين والمشركين واليهود بمقتضى ميثاق المدينة .. كل ذلك تأمين للقاعدة « **من الداخل** » ..

**ثم كان تأمين المدينة « من الخارج »** بعقد المعاهدات والاتفاقات مع مختلف القبائل العربية ، فهذه الاتفاقات ـ فضلاً عن أنها كفلت حرية الدعوة ـ فقد كفلت حسن الجوار



**● ليس من صواب الرأي أن نعتبر الهجوم مرادفاً للعدوان أو منطوياً على نواياه ، وإنما هو شكل من الأشكال الضرورية لتحقيق الأهداف في إطار العمليات الدفاعية ..**

والمعاملة ، وهو ينطوي على تأمين كبير للمدينة لأنه يحرم قريشاً من الاعتماد على هذه القبائل أو محالفتها أو اتخاذها « **قاعدة** » للعدوان عليه .

## كفاءة أجهزة المعلومات والأمن :

ثبت خلال تلك الفترة أن للمسلمين أجهزة للمعلومات والأمن على درجة عالية من الكفاءة تتمثل في أمرين :

**الأمر الأول** : شبكة من العيون والأرصاد منتشرة في أنحاء شبه الجزيرة ، لإبلاغ **الرسول** ﷺ بالمعلومات عن نوايا أعدائه وحركاتهم ، فقد علم عليه الصلاة والسلام من عمه العباس في مكة بتجهز قريش لمهاجمته قبل غزوة أحد وغزوة الخندق .. وكان الدليل الناصع على كفاءة أجهزة المعلومات هذه أن المسلمين « **لم يؤخذوا على غرة** » أبداً ، فشكلت بذلك مصدر أمن مستمر يكون له دور فعال في تأمين حركة المسلمين وحرمان أعدائهم من مباغتتهم .

ثم نضيف إلى أجهزة المعلومات ، جهاز الأمن الذي نجح في المحافظة على أسرار المسلمين وحرمان العدو من كشفها ، وواقعة منع رسالة **حاطب بن بلتعة** من أن تصل إلى قريش قبل غزوة الفتح خير ما يذكر دليلاً على ذلك ، هذا إلى ما كان لدى المسلمين من وعي الأمن والمحافظة على الأسرار .

## تنفيــذ القــرار :

لقد كان فتح مكة بطبيعة الحال **هو** قمة الأعمال التنفيذية لقرار انتزاع المبادأة ، باعتبار أن مكة **هي** الهدف الرئيس . لكن فتح مكة لم يقع إلا في رمضان من السنة الثامنة للهجرة أي بعد صدور القرار بسنوات ثلاث تقريباً .. **فما هو السر في هذا ؟** الواقع أن دراسة أحداث تلك الفترة من بعد الخندق إلى ما قبل الفتح تكشف عن مخطط بالغ الدقة والإحكام ، مهد الطريق تماماً لسير المسلمين إلى هدفهم الرئيس : مكة ، **كما تبرز لنا درساً عظيماً يعلم المسلمين أن يبتعدوا عن العمل المتسرع أو غير المخطط ، وأن تكون خطواتهم نحو أهدافهم محسوبة بكل الدقة والإحكام** .

فإنه يلفت نظر الباحث المدقق أن الغالبية العظمى لسرايا القتال بُعثت خلال تلك الفترة ( **أكثر من ثلاثة أرباع مجموع عدد السرايا** ) كما أن **الرسول** ﷺ قاد في تلك الفترة خمس غزوات هي : **غزوة بني قريظة ، وبني لحيان ، وذي قرد ، والحديبية ، وخيبر** .

## توطيد الأمن في المنطقة الشمالية :

أما بعث هذا العدد الكبير من السرايا فكان لتأمين المنطقة الشمالية حتى حدود الشام والعراق ، والسيطرة على القبائل العربية في تلك المنطقة ، مثل : **هوازن وبني كلاب وبني مرة وبني عوال وبني عبد ابن ثعلبة وغطفان وبني سليم وبني الملوح وجهينة والقبائل التي عاونت الروم ضد المسلمين** .

## القضاء على اليهود عسكرياً :

وأما الغزوات فقد قضى **الرسول** ﷺ على اليهود عسكرياً بغزوهم في بني قريظة وخيبر . لقد فتح اليهود ـ بنقضهم العهد ـ « **جبهة ثانية** » ضد المسلمين كان عليهم أن يواجهوها بالردع الذي تستحقه ، وكانت غزوة خيبر ضربتهم القاضية ، إذ كانت المعقل الرئيس لليهود في شبه الجزيرة ، وكان بها سبعة حصون تكتنفها البساتين ، وكان أهلها أقوياء مسلحين استماتوا في الدفاع إذ كانوا يعلمون علم اليقين أن اندحارهم معناه القضاء الأخير على بني إسرائيل في شبه الجزيرة .

وهكذا أمن **الرسول القائد** ﷺ ـ بسقوط خيبر ـ بأس اليهود ، وآمن بأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، وبأنه يستطيع بعد ذلك أن يتحرك جنوباً نحو هدفه الرئيس .

## زيــادة قــوة الجيش ... ورفع كفــاءته القتالية :

ولقد أتاحت غزوة الحديبية قيام هدنة أتاحت للمسلمين أن يزيدوا من حجم الجيش إلى درجة لم يكونوا بالغيها من قبل ، يؤكد ذلك مقارنة قوة الجيش في غزوة الخندق بقوته في الفتح ، ففي الخندق كانت القوة ثلاثة آلاف ، وفي الفتح كانت عشرة آلاف ؛ وتلك قفزة كبيرة في زمن قصير نسبياً .

وارتفعت كفاءة الجيش القتالية إلى أقصى حد ، بعد أن بلغ رصيده من عمليات القتال منذ بدأ الصراع في السنة الثانية للهجرة إلى ما قبل الفتح قرابة ستين عملية ، قاد منها **الرسول** ﷺ أربعاً وعشرين غزوة ، وقاد أصحابه ما بقي منها ، ومارس المسلمون في هذه العمليات كل أشكال القتال من دفاع وهجوم ومطاردة وإغارات وقتال في القرى وحصار المواقع الحصينة .. وغيرها .. كما أصبح للجيش عدد كبير من القادة الأكفاء القادرين على قيادة العملية المستقلة .

## إضعاف إرادة قريش القتالية ..

وأصيبت إرادة قريش القتالية بالضعف نتيجة لعدة عوامل ، نذكر منها :

- **« تجريدها » من الحلفاء خاصة اليهود بعد القضاء عليهم عسكرياً .**
- **انفتاح المجال أمام الرسول ﷺ ـ بعد الحديبية ـ لمحالفة القبائل التي لم تكن مطمئنة إلى محالفته لقوة قريش لوجود الكعبة في مكة مما أضعف شوكة قريش .**
- **انتشار الإسلام جعل جانباً من قريش يدين بالإسلام ، وجانباً آخر باقياً على الشرك ، فأصبح من المستحيل أن تجتمع كلمتها على حرب المسلمين .**

## أغلى الــدروس ...

وهكذا أصدر **الرسول** ﷺ قراره التاريخي بانتزاع المبادأة ـ في الوقت المناسب ـ من يد أعدائه ، وانتقل بالمسلمين من نطاق رد الفعل في غير اندفاع أو مجازفة ، بل بتخطيط سليم ، وخطوات محسوبة ، واضعاً في اعتباره كل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ، ثم سار نحو هدفه الرئيس فحققه على أكمل ما يكون التحقيق ، وجنى ثمرة الأخذ بالأسباب والإعداد والاستعداد ، واثقاً ـ منذ البداية ـ من معيــة الله ، شاكراً لربه ومسبحاً بحمده على النصر والفتح ورؤية الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ..

# فتح مكة

## وعِبرته لحاضر المسلمين ومُستقبلهم

اللواء الركن محمود شيت خطاب

### الموقف العام

١ ـ المسلمون :

**● كانت هدنة الحديبية خيراً على المسلمين ، فقد قضوا خلالها على يهود في المدينة المنورة وخارجها عسكرياً ، فلم يعد لهم أى خطر عسكرى يهدد المسلمين . كما أتاحت للمسلمين السيطرة على القبائل العربية في شمالى المدينة حتى حدود الشام والعراق ، وانتشر الاسلام بين القبائل العربية كلها ، فأصبح المسلمون القوة الضاربة الأولى في شبه الجزيرة العربية كلها .**

**ولم يبق أمام المسلمين غير فتح مكة ، تلك المدينة المقدسة التى انتشر الاسلام فيها أيضاً ، ولم يحل دون فتحها وعودة المستضعفين الذين أخرجوا منها بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، إليها ، غير صلح الحديبية الذى يحرص النبي صلى الله عليه وسلم على الوفاء به ●**

٢ ـ المشركون :

أدى انتشار الاسلام بين قسم كبير من القبائل ومن ضمنها قريش وبقاء القسم الآخر على الشرك إلى تفرق كلمة القبائل واستحالة جمع تلك الكلمة على حرب المسلمين .

ولم يبق في قريش زعيم مسيطر يستطيع توجيهها إلى ما يريد حين يريد : المسلمون فيها لا يخضعون الا لأوامر الاسلام ، والمشركون فيها بين متطرف يدعو للحرب مهما تكن نتائجها ، ومعتدل يعتبر الحرب كارثة تحيق بقريش .

### اعـلان الحرب :

أراد بنو بكر حلفاء قريش أن يأخذوا بثاراتهم من بنى خزاعة حلفاء المسلمين ، وحرضهم على ذلك متطرفو قريش بقيادة عكرمة بن أبى جهل (١) وقسم من سادات قريش ، وأمدوهم سراً بالرجال والسلاح . وقامت بكر بالهجوم المباغت على خزاعة ، فكبدوهم خسائر بالأرواح والأموال . والتجأت خزاعة إلى البيت الحرام ، فطاردتهم بكر مصممة على القضاء عليهم غير مكترثة بصلح الحديبية ، فانتهت الهدنة بين قريش وحلفائها من جهة وبين المسلمين وحلفائهم من جهة أخرى ، وكان الذى نقض هذه الهدنة قريش وبكر .

وسارع عمرو بن سالم الخزاعي بالتوجه إلى المدينة حاملا أنباء نقض صلح الحديبية ، فلما وصل إلى المدينة قصد المسجد وقص على النبى صلى الله عليه وسلم ما أصاب خزاعة من بكر وقريش في مكة وخارجها ، فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم : «نصرت يا عمرو بن سالم» .

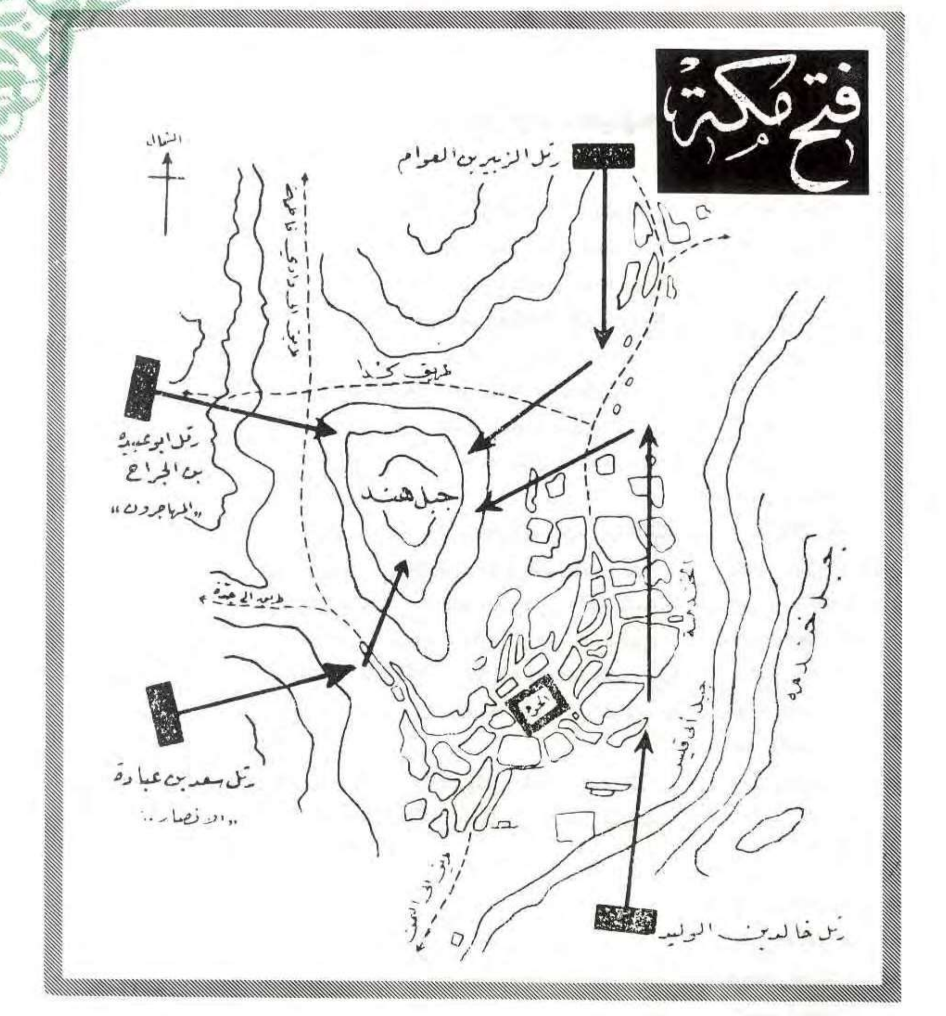
وخرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة ، حتى قدموا المدينة ، فأخبروا النبى صلى الله عليه وسلم بما أصابهم ، فعزم النبى صلى الله عليه وسلم على فتح مكة .

وقدر قادة قريش المعتدلون وعقلاؤهم ، ماذا يعنيه انتهاء الهدنة بين قريش والمسلمين ، فقرروا إيفاد أبى سفيان بن حرب إلى المدينة للتشبث بتثبيت العهد وإطالة مدته .

ولما وصل أبو سفيان (عسفان) (٢) في طريقه إلى المدينة ، لاقى بديل بن ورقاء وأصحابه عائدين من المدينة ، فخاف أن يكونوا جاؤوا النبى صلى الله عليه وسلم وأخبروه بما حدث بين بكر وخزاعة ، مما يزيد مهمته التى جاء من أجلها تعقيداً ، الا








**• لقد غاب عن المسلمين النصر منذ غاب عنهم الإسلام.**

**• إن سلم الأقوياء القادرين هو السلام الذي يأمر به الإسلام ..**

**أما سلم الضعفاء العاجزين فهو الإستسلام**

أن بديلا نفى مقابلته للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن أبا سفيان فحص فضلات راحلة بديل ، فوجد فيه نوى التمر ، فعرف أنه كان في المدينة .

ووصل أبو سفيان إلى المدينة ، فقصد دار ابنته أم حبيبة رضى الله عنها زوجة النبى صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يجلس على الفراش فطوته دونه فقال لها : « يابنية اما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى !!» ، فقالت : «بل هذا فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس» ، فقال : «والله لقد أصابك بعدى شر» .

واستشفع أبو سفيان بأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ليكلم النبى صلى الله عليه وسلم ، فأبى ..

واستشفع بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأغلظ له فى الرد ، وقال : «أأنا أشفع لكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لو لم أجد إلا الذر (٣) ، لجاهدتكم به » .

ودخل أبو سفيان على علي بن أبى طالب كرم الله وجهه وعنده فاطمة رضى الله عنها ، فقال علي : «والله يا أبا سفيان ! لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه » .

واستشفع أبو سفيان بفاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم أن يجير ابنها الحسن بين الناس ، فقالت : «ما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

واستنصح أبو سفيان علياً بعد أن اشتدت عليه الأمور ، فنصحه أن يعود من حيث أتى ، فقفل أبو سفيان عائداً إلى قريش ليخبرهم بما لقى من صدود ، ولم يبق هناك شك في إعلان الحرب .

## الاستعدادات للحرب :

أمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بانجاز استعداداتهم للحركة ، وبعث من يخبر قبائل المسلمين خارج المدينة بانجاز استعداداتهم للحركة أيضاً ، كما أمر أهله أن يجهزوه ، ولكنهلم يخبر أحداً بنياته الحقيقية ولا باتجاه حركته بل أخفى هذه النيات حتى عن أقرب المقربين إليه ، ثم أرسل سرية أبى قتادة الأنصارى إلى بطن (إضم) ، ليزيد من اسدال الستار الكثيف على نياته الحقيقية (٤) .

ودخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على ابنته عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : «أى بنية ! أأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجهزوه ؟» ، قالت : «نعم ، فتجهز»

# فتح مكة

## وعبرته لحاضر المسلمين ومستقبلهم

قال : «فأين ترينه يريد ؟» ، قالت : «والله لا أدرى !» .

ولما اقترب موعد الحركة ، صرح النبى صلى الله عليه وسلم بأنه سائر إلى مكة ، وبث عيونه ليحول دون وصول أنباء اتجاه حركته إلى قريش ، ولكن حاطب بن أبى بلتعه كتب رسالة أعطاها امرأة متوجهة إلى مكة ، يخبرهم فيها بنيات المسلمين ، فعلم النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الرسالة ، وبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضى الله عنهما ليدركا المرأة ويأخذا منها تلك الرسالة ، فأدركاها وأخذا منها تلك الرسالة التى كانت معها .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً يسأله : ما حمله على ذلك ؟! قال : « يا رسول الله بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم» ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «يا رسول الله ! دعنى فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق» . ولكن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «أما إنه قد صدقكم ، وما يدريك ؟ لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال : «اعملوا ما شئتم !!» .

وشفع لحاطب ماضيه الحافل بالجهاد ، فعفا عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمر المسلمين أن يذكروه بأفضل ما فيه .

### قوات الجانبين :

١ ـ المسلمون :

عشرة آلاف رجل ، بقيادة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام .

٢ ـ المشركون :

قريش وبنو بكر ، كل قبيلة منهما لها قائدها الخاص .

### في الطريق إلى مكة المكرمة :

غادر المسلمون المدينة المنورةفي رمضان من السنة الثامنة الهجرية قاصدين فتح مكة ، وكان جيش المسلمين مؤلفاً من الأنصار والمهاجرين وسليم ومزينة وغطفان وغفار وأسلم .. وطوائف من قيس وأسد وتميم وغيرهم من القبائل الأخرى ، في عدد وعُدد لم تعرفه الجزيرة العربية من قبل ، وكلما تقدم الجيش من هدفه ، ازداد عدده بانضمام مسلمى القبائل التى تسكن على جانبى الطريق إليه . ومع كثافة هذا الجيش وقوته وأهميته ، فقد بقى سر حركته مكتوماً لا تعرف قريش عنه شيئاً ، فبالرغم من اعتقاد قريش أن النبى صلى الله عليه وسلم في حل من مهاجمتهم ، ولكنها لم تكن تعرف متى وأين وكيف سيجرى الهجوم المتوقع . ولشعور قريش بالخطر المحدق بها ، أسرع كثير من رجالها بالخروج إلى المسلمين لاعلان اسلامهم ، فصادف بعض هؤلاء ، ومنهم العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم جيش المسلمين في طريقه إلى مكة المكرمة .

ووصل الجيش إلى موضع (مر الظهران) على مسافة أربعة فراسخ من مكة ، فعسكر المسلمون هناك .

وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يوقد كل مسلم في جيشه ناراً ، حتى ترى قريش ضخامة الجيش دون أن تعرف هويته ، فيؤثر ذلك فى معنوياتها فتستسلم للمسلمين دون قتال ، وبذلك يحقق النبى صلى الله عليه وسلم هدفه السلمي في فتح مكة بدون إراقة الدماء .

وأوقد عشرة آلاف مسلم نيرانهم ، ورأت قريش تلك النيران تملأ الأفق البعيد ، فأسرع أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام بالخروج باتجاه النيران ، ليعرفوا مصدرها ونيات أصحابها ، فلما اقتربوا من موضع معسكر المسلمين ، قال أبو سفيان لصاحبه بديل : «ما رأيت كالليلة نيراناً ولا عسكرا» فرد عليه بديل : « هذه والله خزاعة حمشتها (٥) الحرب» ، فلم يقتنع أبو سفيان بهذا الجواب ، فقال : «خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها» .

وكان العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم قد خرج من معسكر المسلمين راكباً بغلة النبى صلى الله عليه وسلم ، ليخبر قريشاً بالجيش العظيم الذى جاء لقتالها والذى لا قبل لها به ، حتى يؤثر في معنوياتها ويضطرها على التسليم دون قتال ، فيحقن بذلك دماءها ويؤمن لها صلحاً شريفاً ويخلصها من معركة خاسرة معروفة النتائج سلفاً ، فسمع وهو فى طريقه محاورة أبى سفيان وبديل بن ورقاء ، فعرف العباس صوت أبى سفيان ، فناداه وأخبره بوصول جيش المسلمين ، ونصحه بأن يلجأ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى ينظر في أمره قبل أن يدخل الجيش فاتحاً صباح غد ، فيحيق به وبقومه ما يستحقونه من عقاب .

وأردف العباس أبا سفيان على بغلة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتوجها نحو معسكر المسلمين ، فلما وصلا إلى المعسكر ودخلاه ، أخذا يمران بنيران الجيش فى طريقهما إلى خيمة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما مرا بنار عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عرف أبا سفيان ، وأدرك أن العباس يريد أن يجيره ، فأسرع عمر إلى خيمة النبى صلى الله عليه وسلم ، وسأله أن يأمره بضرب عنق أبى سفيان ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم أمر عمه أن يستصحب أبا سفيان إلى خيمته ، ثم يحضره إليه صباح غد ، فلما كان الصباح وجيء بأبى سفيان إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، أسلم ليحقن دمه ، فقال العباس : «يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً» . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «نعم ، من دخل دار أبى سفيان ، فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن» .

وأراد النبى صلى الله عليه وسلم ، أن يستوثق من سير

● قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال : « اعملوا ماشئتم »

● ما أحوج المسلمين اليوم أن يتعلموا الكتمان من غزوة الفتح
فأمورهم كلها مكشوفة لعدوهم

● مهلا ياعباس فوالله اسلامك يوم أسلمت كان أحب لي من إسلام الخطاب لو اسلم

الأمور كما يحب بعيداً عن وقوع الحرب ، فأوصى العباس باحتجاز أبى سفيان في مضيق الوادى حتى يستعرض الجيش الزاحف كله ، فلا تبقى في نفسه أية فكرة للمقاومة .

قال العباس : « خرجت بأبى سفيان ، حتى حبسته بمضيق الوادى حيث أمرنى رسول الله ، ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس ! من هؤلاء ؟ فأقول : سليم ! فيقول : مالى ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة ، فيقول : يا عباس ! من هؤلاء ؟ فاقول : مزينة ! فيقول : مالى ولمزينة ؟ حتى نفدت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سألنى عنها ، فاذا أخبرته قال : مالى ولبنى فلان ؟ حتى مر الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منها إلا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله ! يا عباس ! من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل ! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً !» .

قال العباس : «يا أبا سفيان !! إنها النبوة !» قال : «نعم إذن» .

عند ذاك قال العباس لأبى سفيان : «النجاء إلى قومك» ، فأسرع أبو سفيان إلى مكة .

## قبل دخول مكة المكرمة :

دخل أبو سفيان مكة مبهوراً مذعوراً ، وهو يحس أن من ورائه إعصاراً إذا انطلق اجتاح قريشاً وقضى عليها . ورأى أهل مكة قوات المسلمين تقترب منهم ، ولم يكونوا حتى ذلك الوقت قد قرروا قراراً حاسماً بشأن القتال ولا اتخذوا تدابير القتال الضرورية ، فاجتمعوا إلى ساداتهم ينتظرون الرأى الأخير ، فأذا بصوت أبى سفيان ينطلق مجلجلا جازماً : «يا معشر قريش ! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان كان آمنـــاً » .

وسمعت هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبى سفيان التى كانت تشايع المتطرفين من مشركى قريش ما قاله زوجها ، فوثبت إليه وأخذت بشاربه وصاحت : «اقتلوا هذا الحميت الدسم الأحمس (٦) (أى هذا الزق المنتفخ) ، قبح من طليعة قوم (٧)» .

ولم يكترث أبو سفيان بسباب امرأته ، فعاود تحذيره : «ويلكم لاتغرنكم هذه من أنفسكم ، فانه قد جاءكم مالا قبل لكم به فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » ..

وقالت قريش : قاتلك الله ، وما تغنى عنـــا دارك ؟! قـــال : «ومن أغلق عليه بابه ، فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن» .

وأصبحت مكة المكرمة تنتظر دخول المسلمين : اختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة ، واجتمع بعضهم في المسجد الحرام ، وبقى المتطرفون مصرين على القتال .

## خطة الفتح :

كانت مجمل خطة الفتح تتلخص : الميسرة بقيادة الزبير بن العوام ، واجبها دخول مكة من شماليها .

والميمنة بقيادة خالد بن الوليد ، واجبها دخولمكة من جنوبيها . وقوات الأنصار بقيادة سعد بن عبادة ، واجبها دخول مكة من غربيها ، وقوات المهاجرين بقيادة أبى عبيدة بن الجراح واجبها دخول مكة من شماليها الغربي من اتجاه جبل هند .

ومثابة اجتماع قوات المسلمين بعد انجاز الفتح في منطقة جبل هند .

وكان اجتماع قوات المسلمينبعد انجاز الفتح في منطقة جبل هند .

وكانت أوامر النبى صلى الله عليه وسلم لقادته تنص : بألا يقاتلوا إلا إذا اضطروا اضطراراً على القتال ، لغرض أن يتم الفتح سلمياً وبدون قتال .

## الفتح :

قبل شروع أرتال المسلمين بدخول مكة المكرمة ، سمع قسم من المسلمين سعد بن عبادة يقول : اليوم يوم الملحمة (٨) ، اليوم

# فتح مكة

## وعبرته لحاضر المسلمين ومستقبلهم

تستحل الحرمة ... لذلك رأى النبي صلى الله عليه وسلم حين بلغه ما قال سعد ، أن يأخذ الراية منه ويدفعها الى ابنه قيس بن سعد ، إذ كان قيس أهدأ أعصاباً من أبيه وأكثر سيطرة على نفسه ، لكي يحول عليه الصلاة والسلام دون اندفاع سعد لاثارة الحرب وسفك الدماء ، دون مسوغ .

ودخلت قوات المسلمين مكة ، فلم تلق مقاومة ، إلا جيش خالد ابن الوليد ، فقد تجمع متطرفو قريش مع بعض حلفائهم من بني بكر في منطقة (الخندمة) (٩) ، فلما وصلها رتل خالد ، أمطروه بوابل من نبالهم ، ولكن خالداً لم يلبث أن فرقهم بعد أن قتل رجلان من رجاله ضلا طريقهما وانفصلا عنه . ولم يلبث صفوان ابن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل حين رأوا الدائرة تدور عليهم أن تركوا مواضعهم فى الخندمة وفروا مع قواتهم .

واستسلمت المدينة المقدسة للمسلمين ، وفتحت أبوابها لهم ، وعاد المستضعفون الذين أخرجوا منها بغير حق الى ديارهم وأموالهم .

### في مكة المكرمة :

عسكر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون في منطقة جبل هند ، بعد أن سيطر المسلمون على جميع مداخل مكة ، فلما استراح وتجمعت أرتال الجيش ، نهض والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد الحرام ، فأقبل الى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم طاف بالبيت العتيق وحول البيت ، وكان فى الكعبة ستون وثلاثمائة صنم ، يطعنها بالقوس وهو يقول : (جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً . جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ) .

ثم دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ودخلها ، فرأى الصور تملؤها ومن بينها صورتان لابراهيم واسماعيل يستقسمان بالأزلام ، فمحا ما في الكعبة من صور ، ثم صلى ودار في البيت يكبر . ولما انتهى تطهير البيت من الاصنام والصور ، وقف على باب الكعبة ، وقريش تنظر ماذا يصنع ، فقال : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أومال ، فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، يا معشر قريش ؟ إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء : الناس من آدم ، وآدم من تراب (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير (١٠) . يا معشر قريش ! ما ترون أني فاعل بكم ؟» .

قالوا : «خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم» . قال : «فاني أقول كما قال يوسف لاخوته : (لا تثريب عليكم اليوم) (١١) ، اذهبوا ، فأنتم الطلقاء» .

طهر المسلمون البيت من الأصنام ، وأتم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في أول يوم من أيام فتح مكة ما دعا اليه منذ عشرين سنة : أتم تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية في البيت الحرام بمشهد من قريش ، ترى أصنامها التي كانت تعبد ويعبد آباؤها ، وهي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً .

وأقام النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر يوماً ، نظم خلالها شؤون مكة ، وفقه أهلها في الدين ، وأرسل بعض السرايا للدعوة الى الاسلام وتحطيم الأصنام ، من غير سفك للدماء .

### عبرة الفتح :

١ ـ الكتمان :

ما أحوج المسلمين اليوم أن يتعلموا الكتمان من هذه الغزوة ، فأمورهم كلها مكشوفة ، بل مكشفة ، وأعداؤهم يعرفون عنهم كل شيء ، لا تكاد تخفى عليهم ، فلا سر لدى المسلمين يبقى مكتوماً .

لقد حرص النبى صلى الله عليه وسلم أشد الحرص على ألا يكشف نياته لفتح مكة لأي انسان ، عندما اعتزم الحركة إلى مكة وكان سبيله إلى ذلك الكتمان الشديد .

لم يبح بنياته لأقرب أصحابه إلى نفسه : أبى بكر الصديق ، بل لم يبح بنياته لأحب نسائه إليه عائشة بنت أبى بكر الصديق وبقيت نياته مكتومة حتى أنجز هو وأصحابه جميع استعدادات الحركة ، وحتى وصل أمر الاستحضار إلى المسلمين كافة خارج المدينة وداخلها ، ولكنه كشف نياته في الحركة إلى مكة قبيل موعد خروجه من المدينة ، حيث لم يبق هنالك مسوغ للكتمان ، لأن الحركة أصبحت وشيكة الوقوع .

ومع ذلك ، بث عيونه وأرصاده ، لتحول دون تسرب المعلومات عن حركته إلى قريش .

بث عيونه داخل المدينة ، ليقضى على كل محاولة لتسريب الأخبار من أهلها إلى قريش ، وقد رأيت كيف اطلع على إرسال حاطب بن أبى بلتعة برسالته إلى مكة ، فاستطاع حجز تلك الرسالة .

وبث عيونه وأرصاده داخل المدينة وخارجها ، ليحرم قريشاً من الحصول على المعلومات عن نيات المسلمين ، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من ارسال المعلومات إليها .

وبقى النبى صلى الله عليه وسلم يقظاً كل اليقظة ، حذراً كل الحذر ، حتى وصل إلى ضواحى مكة ، ونجح بترتيباته في حرمان قريش من معرفة نيات المسلمين أعظم النجاح .

ولكى يلقى النبي صلى الله عليه وسلم ظلا كثيفاً من الكتمان على نياته ، بعث سرية أبى قتادة الأنصارى إلى بطن (إضم) ، شمالى المدينة المنورة ، بينما كان يستعد لفتح مكة في جنوب المدينة المنورة ، فسارت أخبار المسلمين بأنهم يتجهون شمالا لكتمان اتجاههم نحو الجنوب !

ولو انكشفت نيات المسلمين لقريش فى وقت مبكر ، لاستطاعت

**● القائد المتميز هو الذى يتسم ببعد النظر ويتخذ لكل أمر محتمل الوقوع التدابير الضرورية دون أن يترك مصائر قواته للاحتمالات بدون إعداد كامل**

حشد حلفائها وتنظيم قواتها وإعداد خطة مناسبة لمقابلة المسلمين ، ولاستطاعت مقاومة المسلمين أطول مدة ممكنة دفاعاً عن مكة المكرمة ولأوقعت بهم خسائر في الأرواح والأموال ، وكانت قريش قد استطاعت حشد عشرة آلاف مقاتل في غزوة الأحزاب كما هو معروف ، وباستطاعتها أن تحشد مثل هذا الحشد وأكثر دفاعاً عن مكة .

وليس من السهل أبداً ، أن يتحرك جيش ضخم تعداده عشرة آلاف مقاتل من المدينة إلى مكة بالمراحل ، دون أن تعرف قريش وقت حركته وموعد وصوله ونياته ، حتى يصل ذلك الجيش اللجب إلى ضواحى مكة القريبة ، فيفلت الأمر من قريش ، ولا تعرف ما تصنع إلا اللجوء إلى الاستسلام دون مقاومة .

إن تدابير النبى صلى الله عليه وسلم في الكتمان ، أمنت له مباغتة كاملة لقريش ، وأجبرتها على الرضوخ للأمر الواقع : الاستسلام .

وهذا الكتمان لا مثيل له فى سائر الحروب ، ما أحرانا أن نتعلمه ونقتدى به ونسير على منواله .

## ٢ ـ بعد النظر :

القائد المتميز هو الذى يتسم ببعد النظر ، بالاضافة إلى مزاياه الأخرى ، ويتخذ لكل أمر محتمل الوقوع ، التدابير الضرورية لمعالجته ، دون أن يترك مصائر قواته للاحتمالات بدون إعداد كامل .

إن النصر من عند الله ، يؤتيه من يشاء ، ولكن الله سبحانه وتعالى ينصر من أعد عدته واحتاط لكل احتمال كبير أو صغير قد يصادفه ، لذلك يشدد العسكريون على إدخال أسوأ الاحتمالات فى حسابهم فى أية عملية عسكرية .

لقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يحبس أبو سفيان فى مدخل الجبل إلى مكة ، حتى تمر به جنود المسلمين ، فيحدث قومه عن بينة ويقين ، ولكى لا يكون اسراعه في العودة إلى قريش قبل أن تنهار معنوياته تماماً ، سبباً لاحتمال وقوع أية مقاومة من قريش ، مهما تكن نوعها ودرجة خطورتها .

وفعلا اقتنع أبو سفيان بعد أن رأى قوات المسلمين كلها ، أن قريشا لا قبل لها بالمقاومة .

وقد أدخل النبى صلى الله عليه وسلم في حساباته أسوأ الاحتمالات أيضا ، عند ، تنظيمه خطة الفتح ، فكانت تلك الخطة تؤمن تطويق البلد من جهاته الأربع بقوات مكتفية بذاتها ، بامكانها العمل مستقلة عن القوات الأخرى عند الحاجة ، وبذلك تستطيع القضاء على أية مقاومة في أية جهة من جهات مكة ، كما تؤمن توزيع قوات قريش إلى أقسام لمقاومة كل رتل من أرتال المسلمين على انفراد ، فتكون قوات قريش ضعيفة في كل مكان .

واتخذ النبى صلى الله عليه وسلم هذه التدابير الفاعلة ، بالرغم من اعتقاده بأن احتمال مقاومة قريش للمسلمين ضعيف جداً ، وذلك ليحول دون مباغتة قواته وإيقاع الخسائر بها ، مهما تكن الظروف والأحوال .

فما أحرى أن يتعلم المسلمون هذا الدرس ويطبقوه فى اعداد خططهم المصيرية .

## ٣ ـ العقيدة :

كان جيش الفتح مؤلفاً من المهاجرين والأنصار ومسلمى أكثر القبائل العربية المعروفة في حينه ، لا يوحد بينه غير العقيدة الواحدة ، التى يضحى الجميع من أجلها ، وتشيع بينهم الانسجام الفكرى الذى يجعل التعاون الوثيق بينهم سائداً .

لقد كانت انتصارات المسلمين الأولين انتصارات عقيدة بلا مراء ، وكان النصر من أول ثمرات هذه العقيدة على النطاق الجماعى .

أما على النطاق الفردى ، فقد رأيت كيف طوت أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فراش النبى صلى الله عليه وسلم عن أبيها أبى سفيان ، وقد جاءها من سفر قاصد بعد غياب طويل نلك لأنها رغبت به عن مشرك نجس ، ولو كان هذا المشرك أباها الحبيب .

وعندما جاء أبو سفيان مع العباس ليواجه النبى صلى الله عليه وسلم ، رآه عمر بن الخطاب ، فغادر خيمته واشتد نحو خيمة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما وصل إليها قال : «يا رسول الله ! دعنى أضرب عنقه» . قال العباس : «يا رسول الله ! إنى قد أجرته» ، فلما أكثر عمر قال العباس : «مهلا ياعمر ! ما تصنع هذا إلا أنه من بنى عبد مناف ، ولو كان من بنى عدى ما قلت هذه المقالة » ، فقال عمر : « مهلا يا عباس ! فوالله اسلامك يوم أسلمت كان أحب لى من اسلام الخطاب لو أسلم» .

لقد كان يمثل عقيدة المسلمين الأولين ، بينما كان العباس حديث عهد بالاسلام .

وكيف نعلل اقدام المهاجرين على المشاركة في غزوة الفتح ، التى لم يكن من المستبعد أن تصطرع فيها قوات المسلمين وقوات قريش؟

# فتح مكة

## وعبرته لحاضر المسلمين ومستقبلهم

إن عقيدة المسلمين لا تخضع للمصالح الشخصية ، بل هى رهن المصالح العامة وحدها ، وقد انتصر المسلمون بالعقيدة الراسخة ، وهى اليوم غائبة عنهم فذلوا وهزموا ، فما أحراهم أن يعودوا إلى عقيدتهم ليستعيدوا مكانتهم بين الأمم ، ولينتصروا على أعدائهم ، فقد غاب عنهم النصر منذ غاب عنهم الاسلام .

### ٤ ـ المعنويات :

لم تكن معنويات المسلمين في وقت من الأوقات أعلى وأقوى مما كانت عليه أيام فتح مكة ، البلد المقدس عند المسلمين الذي يتوجهون إليه في صلاتهم كل يوم ، ويحجون بيته كل سنة . وكانت أهمية مكة للمهاجرين أكثر من أنها بلد مقدس ، فهى بلدهم الذى هاجروا منه فراراً بدينهم وخلفوا فيه أموالهم وذويهم وكل عزيز عليهم .

لذلك لم يتخلف أحد من المسلمين عن هذه الغزوة إلا القليل من ذوى الأعذار القاهرة الصعبة .

أما معنويات قريش ، فقد كانت متردية للغاية ، فقد أثرت فيهم عمرة القضاء ، كما أثر فيهم انتشار الاسلام فى كل بيت من بيوت مكة تقريباً ، وبذلك فقدت مكة روح المقاومة وروح القتال .

ومما زاد فى انهيار معنويات قريش ، ما اتخذه النبى صلى الله عليه وسلم من إيقاد عشرة آلاف نار في ليلة الفتح ، ومرور الجيش كله بأبى سفيان قائد قريش أو أكبر قادتها ، ودخول أرتال المسلمين في كل جوانب مكة .

لقد كانت غزوة الفتح معركة معنويات بالدرجة الأولى ، ما أحرانا أن نتعلمها لحاضرنا ومستقبلنا .

### ٥ ـ السلم :

حرص النبى صلى الله عليه وسلم من خروجه لفتح مكة على نياته السلمية ، ليؤلف بذلك قلوب المشركين ، ويجعلها تقبل على الاسلام .

وقد عهد عليه الصلاة والسلام إلى قادته حين أمرهم أن يدخلوا مكة ، ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم .

وبقى النبى صلى الله عليه وسلم مصراً على نياته السلمية بعد الفتح أيضاً ، فقد أصدر العفو العام عن قريش قائلا : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

وكما حرص النبى صلى الله عليه وسلم على السلم الجماعي ، حرص كذلك على السلم الفردى ، فمنع القتل حتى لفرد واحد من المشركين ، مهما تكن الأسباب والاعذار .

فقد قتلت خزاعة حلفاء المسلمين رجلا من هذيل غداة يوم الفتح لثأر سابق لها عنده ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم أشد الغضب ، وقام في الناس خطيباً ، ومما قاله : «يا معشر خزاعة ! ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر إن نفع ، لقد قتلتم قتيلا لأدينه ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين ، إن شاؤوا قدم قاتله ، وإن شاؤوا فعقله» ، أى ديته ، ثم ودى بعد ذلك الرجل الذى قتلت خزاعة .

بل إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقتل رجلا من المشركين أراد اغتياله شخصياً وهو يطوف في البيت ، بل تلطف معه . فقد اقترب فضالة بن عمير يريد أن يجد له فرصة ليقتله ، فنظر إليه النبى صلى الله عليه وسلم نظرة عرف بها طويته ، فاستدعاه وسأله : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟» قال : «لاشىء ! كنت أذكر الله» ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وتلطف معه ووضع يده على صدره ، فانصرف الرجل وهو يقول : «مارفع يده عن صدرى ، حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه» .

ورأى علي بن أبى طالب رضى الله عنه مفتاح الكعبة بيد النبى صلى الله عليه وسلم فقال : «يا رسول الله ! اجمع لنا الحجابة مع السقاية» ، فقال عليه الصلاة والسلام : «أين عثمان ابن طلحة ؟» ، فلما جاء عثمان قال له : « يا ابن طلحة ! هاك مفتاحك ، اليوم يوم بر ووفاء» .

وقد رأى المسلمون النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح يتواضع لله ، حتى رأوه يوم ذاك ورأسه قد انحنى على رحله ، وبدا عليه التواضع الجم ، حتى كادت لحيته تمس واسطة راحلته خشوعاً ، وترقرقت في عينيه الدموع تواضعاً لله وشكراً .

تلك هى سمات الخلق الاسلامى الرفيع فى السلم والوفاء والتواضع ، ولكنه سلم الأقوياء لا سلم الضعفاء ، ووفاء القادرين لا وفاء العاجزين ، وتواضع العزة لا تواضع الذلة .

إن سلم الأقوياء القادرين هو السلام الذى يأمر به الاسلام ، أما سلم الضعفاء العاجزين فهو الاستسلام الذى ينهى عنه الاسلام .

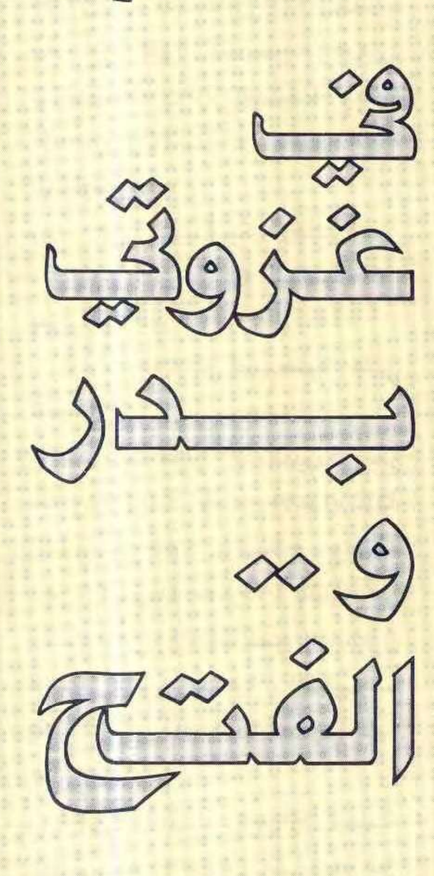
تلك ما ينبغى أن نتعلمه من فتح مكة ، لحاضر المسلمين ومستقبلهم ، لحاضر أفضل ومستقبل أحسن ، وهى عبر لمن يعتبر .

**هوامش**

(١) أصبح عكرمة بعد اسلامه احد قادة الفتح الاسلامي ، انظر سيرته مفصلة في كتابنا : « قادة فتح الشام ومصر » ص : ٨٥ ـ ٩٥ .
(٢) عسفان : على مرحلتين من مكة على طريق المدينة والجحفة ..
(٣) الذر : صغار النمل .
(٤) اضم : واد بجبال تهامة ، وهو الوادي الذى فيه المدينة المنورة ..
(٥) حمشتها الحرب جمعتها الحرب .
(٦) الحميت : في الأصل : زق السمن ، والدسم : الكثير الودك ، ،الاحمس : الشديد اللحم ، تريد تشبيهه به ، لعبالته وسمنه .
(٧) طليعة قوم : الذى يتقدمهم او يحرسهم .
(٨) الملحمة : الحرب الشديدة .
(٩) الخندمة : جبل باسفل مكة ..
(١٠) الحجرات : ١٣ .
(١١) يوسف : ٩٢ .

# الردّ الإسلاميّ

■■ تحتوي غزوتا بدر الكبرى وفتح مكة على دروس غالية، ينبغي على الأمة الإسلامية أن تتدبرها وتسترشد بها لتصحيح الخلل في موازين القوى بينها وبين أعدائها والمحافظة على سلامتها وأمنها. ■■





بقلم اللواء الركن :

محمد جمال الدين محفوظ


والأمر الذي يستحق التأمل والتدبر ما يلي :

١ - هذه الدروس الغالية تنبثق من التطبيق العملي لاستراتيجية الردع الإسلامية التي تتمثل في قول الله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم ﴾ ( الأنفال : ٦٠ )

وفي قول الرسول القائد ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » [رواه البخاري] .

٢ - قدم الرسول ﷺ لأمته أكثر من طريقة لردع الأعداء :

● ففي بدر : كان الردع « بالقتال ».. أي « باستخدام القوة » .

● وفي الفتح : كان الردع « بغير قتال » .. أي « بإظهار القوة » .

٣ - كان استخدام كل من هاتين الطريقتين موافقاً لمقتضيات الموقف من ظروف وأحوال استراتيجية وظروف المكان والزمان ومتفقاً مع مفهوم الإسلام للسلام والقوة والحرب .

● فقوة الأمة الإسلامية يجب أن تكون « قادرة على إيقاع الرهبة » في قلوب أعدائها بحيث يمتنعون عن العدوان عليها .

● فإذا لم يمتنعوا عن العدوان فيجب أن يقاتلهم المسلمون « مدفوعين بفكرة القوة » أيضاً فتكون ضربتهم للمعتدي من القوة بحيث « تفقده توازنه النفسي وتلزمه حدوده . » .

٤ - أوضح الرسول ﷺ لأمته - وهو القائد والمعلم والأسوة الحسنة - أساليب التنفيذ والعوامل التي تحقق للردع أهدافه في تأمين سلامتها ورد العدوان عنها .

٥ - وأخيراً فإن تطبيق نظرية الردع في « بداية الصراع » في بدر وفي « نهاية الصراع » في الفتح يقول للأمة : « ها أنتم ترون أنه لا سبيل أمامكم للمحافظة على أمنكم ورد العدوان عليكم إلَّا « ببناء القوة الرادعة » وتأسيس سياستكم الدفاعية على « الردع » أولًا وأخيراً ... » .

## الدرس الأول

على المسلمين - لكي يتغلبوا على العدو المتفوق - أن يستغلوا مواردهم المتاحة بأقصى قدر من الكفاية في التنظيم والإدارة .

يذكر علماء الإدارة - للتعبير عن أهمية الإدارة في تحقيق الأهداف - القول المشهور لـ « روبرت مكنمارا[٢] » :

# الردع الإسلامي في غزوتي بدر .. والفتح

« إن الولايات المتحدة تمتلك تكنولوجيا عالية جداً ، وكذلك الاتحاد السوفيتي ، ولكن الذي سوف يحسم المعركة هو الإدارة السليمة » ، أي أن العبرة في التغلب على الخصم ليست بالتفوق والتقدم في القوة البشرية والسلاح بقدر ما هي بالتفوق في إدارة البشر والسلاح .

لكن الإسلام لديه ما هو أكثر من ذلك فالقول المذكور قد بني على أن الإدارة السليمة هي التي تحسم الصراع بين « قوتين متكافئتين » أما الإسلام فقد تجاوز هذا الحساب وقرر أن القوة المحدودة الموارد تستطيع بالإدارة السليمة وبقوة الإيمان والعقيدة أن تقهر القوة المتفوقة عليها .

ويبرز هذا المبدأ بكل وضوح في « إدارة » الرسول ﷺ للمعركة في بدر ، في أمور :

أولاً : إحكام السيطرة على الموارد :

لقد كانت موارد المسلمين في بدر محدودة للغاية ؛ إذ كان الأعداء ثلاثة أمثالهم في العدد والسلاح ، ولديهم « قوة هجومية ضاربة » تتمثل في مائتي فرس يواجهها لدى المسلمين فرسان اثنان ثم إن « الذخيرة » بالقياس إلى ذلك كانت محدودة جداً عند المسلمين .

فلكي تستغل هذه الموارد المتاحة لأقصى حد لا بد من قدر كبير من المركزية في السيطرة على استخدامها ، بحيث يمكن تحقيق حشد القوة مع الاقتصاد لإنفاقها في الوقت نفسه وهذا ما فعله الرسول ﷺ :

(١) باتخاذ تشكيل القتال بالصفوف فهو يضمن سيطرة القائد المحكمة على جيشه على نحو لا يتحقق في أسلوب الكر والفر الذي اعتادت عليه العرب ، ففرق كبير في مجال السيطرة بين قوة ثابتة متلاصقة وبين قوة تتردد في الحركة السريعة بين الأمام والخلف ؛ هذا فضلاً عن أن أسلوب الصفوف يؤمن للقائد احتياطياً يعالج به المواقف الطارئة .

(٢) ورغم سهولة السيطرة على هذا الجيش القليل عدده إلَّا أن الرسول ﷺ ـ لتحقيق المزيد من السيطرة ـ قسمه إلى كتيبتين وجعل لكل منهما قائداً .

(٣) ثم تصل السيطرة الى أقصى حد بأن يأمر الرسول القائد ﷺ رجاله : « لا تقاتلوا حتى أُوذِنَكم »[٣] فلا يبدأ القتال إلا بأمر منه .

ثانيا : استخدام الموارد بأقصى حشد مع الاقتصاد في الإنفاق .

فقد أصدر الرسول ﷺ « أمر القتال » الذي وردت فيه عدة روايات منها :

- إذا أكثبوكم ( أي اقتربوا منكم ) فارموهم واستبقوا نبلكم[٤] .
- إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل[٥] .
- لا تقاتلوا حتى أوذنكم ، وان اكتنفوكم فارموهم ، ولا تسلّوا السيوف حتى يغشوكم[٦] .

ويعني هذا الأمر ما يلي :

[١] تقسيم المعركة الى مرحلتين : الأولى : الرمي بالسهام عند اقتراب العدو . والثانية : القتال المتلاحم عندما يصل العدو الى صفوف المسلمين .

هذا التقسيم غاية في البراعة في التنظيم والإدارة فهو يضمن في المعركة الأولى استخدام السهام وهي السلاح بعيد المدى « بأقصى حشد » كما يضمن في المرحلة الثانية استخدام السيوف « بأقصى حشد أيضاً » وهكذا يستثمر المسلمون مواردهم بأقصى طاقاتها في الوقت المناسب وإلى أقصى حد .

[٢] الاقتصاد الشديد في الاستهلاك :

فالذخيرة محدودة للغاية كما قدمنا والاقتصاد في استهلاكها يصبح « ضرورة حتمية » لا تفوت القيادة الإسلامية فقد قصد الرسول ﷺ من أمر القتال :

- ألَّا يبدأ الرمي إلَّا بإذنه « حتى أوذنكم » .
- وألَّا يبدأ الرمي إلَّا حين يقترب الأعداء « إذا أكثبوكم » .
- ثم زاد تأكيده على الاقتصاد في الاستهلاك بقوله : « واستبقوا نبلكم » .

فالمسلمون إذا أطلقوا سهامهم والعدو بعيد فسوف يطيش منها الكثير لعدم دقة التصويب على البعد ، وعددها القليل لا يحتمل أن يضيع سهم منها بغير طائل فكان على المسلمين أن « يُمهلوا » عدوهم الزاحف حتى يصبح في متناول سهامهم ويأتي كل سهم برجل منهم[٧]

**الدرس الثاني**

على المسلمين أن يُفقدوا الأعداء توازنهم النفسي وإرادتهم القتالية .




يعرف رجال العسكرية أن أكبر ما يفقد الجيوش توازنها النفسي ويضعف من إرادتها القتالية ما يلي :

(١) فداحة الخسائر التي تتعرض لها وخاصة إذا وقعت هذه الخسائر « بحجم كبير وفي زمن قصير » وفي ذلك يقول « شارنهورست » في كتابه ( التكتيك ) :

« إن عشرة رجال يسقطون معاً في ميدان المعركة يجبرون فوجاً - حوالي (١٠٠٠) رجل - على التراجع بصورة مؤكدة ، أكثر من خمسين جريحاً يسقطون تدريجياً في أماكن مختلفة » .

فلو حاولنا رسم « صورة ذهنية » لما حدث لقريش نتيجة لتنفيذ المسلمين لأمر القتال فسوف نرى أعداداً كبيرة منهم تسقط صرعى في اقصر وقت فذلك هو النتيجة المنطقية لرمي المسلمين سهامهم « بأكبر حشد وفي وقت واحد وبأدق تصويب » .. اضف إلى هذا « سقوط مبارزيهم » الذين دفعوا بهم قبل المعركة صرعى على أيدي مبارزي المسلمين ، ولا يفوتنا هنا أن نذكر كيف حرص الرسول ﷺ على أن يختار ذوي الكفاءة الفائقة في المبارزة ليكون نجاحهم على رجالات قريش مضموناً ، وكيف حرص على تكليف بعض رجاله باصطياد زعماء قريش وساداتها من الصفوف واستئصالهم ؛ من ذلك قيام بلال بقتل أمية بن خلف . وليس من شك في أن كل هذه الأعمال قد أصابت قريشاً بالصدمة النفسية في اللحظات الأولى من المعركة .

(٢) حدوث نقص شديد في المواد الحيوية للقتال كالذخيرة والوقود والمياه .

وقد عرض المسلمون قريشاً لهذا الوضع حين اتخذوا موقعهم في بدر بحيث يسيطرون على المياه ويحرمون عدوهم منها ، وهو أمر بالغ التأثير في حروب الصحراء .

(٣) فقدُ المبادأة :

● فقدْ تملك المسلمون المبادأة في بدر بسيطرتهم على الماء واستدرجوا عدوهم - نتيجة لذلك - إلى القتال « في أرض من اختيارهم » فإن سيطرتهم على الماء حددت مكان المعركة واضطرت المشركين إلى أن يصلوا إلى هذا المكان لينازعوهم على الماء وهذا ما عبر عنه سلوك الأسود المخزومي حين صرخ بأعلى صوته : وحق اللات والعزى لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه !

● وتملكوا المبادأة أيضا في فتح مكة حين قرر الرسول ﷺ أن يتحرك ليهاجم قريشاً في عقر دارها بعد أن نقضت عهدها الذي أقرت بنوده في

# الردع الإسلامي في غزوتي بدر والفتح

هدنة الحديبية .

(٤) التعرض للمباغتة[٨] :

● ففي بدر تعرضت قريش للمباغتة بسبب اتخاذ المسلمين لأسلوب جديد في القتال وهو الصفوف ثم سيطرتهم على مياه بدر .

● وفي الفتح تعرضت للمفاجأة على نحو أكبر إلى حدّ أنه تعذر عليها معرفة هوية الجيش الكبير الذي عسكر على أربعة فراسخ من مكة .

(٥) اهتزاز الثقة في القضية وفي القدرة على إحراز النصر :

هذا ما وقع لقريش في فتح مكة :

● فزعيم قريش أبو سفيان استطاع الرسول ﷺ أن « يغزو قلبه وعقله ونفسه » حتى جرده تماماً من إرادة المقاومة والقتال إلى حد أنه دفع قومه إلى الاستسلام ، ومن ذلك أنه أوصى عمه العباس باحتجازه في مدخل الجبل إلى مكة حتى يمر به جيش المسلمين فيحدث قومه عمَّا رآه عن بينة ويقين بأنه لا أمل لهم في النصر ، وأبلغ دليل على ذلك قوله لهم : « يامعشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به » .

● وقريش نفسها فقدت قدرتها على المقاومة حين رأت جيوش المسلمين تطوق مكة من جهاتها الأربع وانه لا سبيل لديها لتركيز قوتها وحشدها في جبهة واحدة ، كما أنه لا أمل لها في النصر إذا شتتت قواها لكي تواجه أرتال المسلمين الأربعة .

● ثم ها هي تتعرض بعد ذلك « للضربة النفسية القاضية » التي تتمثل في إعطاء المسلمين للأمان مقابل الاستسلام على لسان زعيمها : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن . » كل هذه الأعمال أحدثت خللاً كبيراً في التوازن النفسي للمشركين وأوقعتهم على وجه التأكيد تحت وطأة الضغوط النفسية التالية :

(أ) الإحساس بأنهم يواجهون موقفاً سيئاً .

(ب) التشتت الذهني والتمزق النفسي والشعور بأنهم قد وقعوا في « فخ » يصعب التخلص منه .

(ج) تولد الشعور بالعجز عن القيام بعمل مضاد لحركة المسلمين .

وهذا ما أكده الخبير الحربي ( ليدل هارت ) حين قال : « ينبئنا التاريخ العسكري في جميع العصور ، وفي جميع الحروب الحاسمة على التقريب ، أن الإخلال بتوازن العدو نفسياً ومادياً هو المقدمة التي لا محيص عنها للقضاء عليه » .

## الدرس الثالث

العقيدة الراسخة ترجح كفة المسلمين في موازين القوى :

لقد ضرب المسلمون في هذا المجال أمثلة لا نظير لها في تاريخ الحروب على مر العصور ، حسبنا أن نذكر أن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قتل أباه في معركة بدر ، وأن عبد الرحمن بن أبي بكر كان مع المشركين فقال لأبيه أبي بكر رضي الله عنه بعد إسلامه : « لقد صدفت لي يوم بدر فلم أقتلك » فقال أبو بكر : « والله لو صدفت لي لقتلتك » ، فما الذي يدعو إلى أن يقتل الابن أباه والأب ابنه غير قوة الإيمان والعقيدة الراسخة التي تتضاءل أمامها سائر العلائق ؟ ولقد كان الإسلام حريصاً على أن يزوِّد المسلمين بأقوى الدوافع النفسية التي تملأ نفوسهم حمية واستبسالاً فكانت هذه الدوافع الصادقة تحارب إلى جانب أصحابها كما يحارب الجندي إلى جانب صاحبه ، ولهذا كان حساب المسلمين في موازين القوى حساباً خاصاً لا يتسامى إليه غيرهم ، فلقد كان حساب المقاتل المجاهد في الحرب مقدراً بما في قلبه من إيمان وعقيدة وبما في نفسه من مبادىء يحارب عنها وأسباب تدعوه إلى خوض هذه الحرب .

وهذا ما نجده في قول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِنْكُم عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُن مِنْكُم مَائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ( الأنفال ٦٥ )

ذلك لأن الذين كفروا قد خلت نفوسهم من المبادىء الكريمة والدوافع الصادقة ، ولهذا حُرموا « الفقه » الذي كان من شأنه أن يبصرهم بالمبادىء التي يقاتلون عليها ، والمثل التي يدافعون عنها ، ومن حرم هذا الفقه في مجال الحرب ، فقد تعرَّى من كل سلاح يدافع به ، وكانت عاقبته الهزيمة والبوار .

## الدرس الرابع

على الأمة الإسلامية أن تحافظ على اسرارها لكي تنتصر على عدوها .

● ففي بدر ، انطلق الرسول ﷺ أمام جيشه وبصحبته أبو بكر رضي الله عنه للاستطلاع قبل المعركة ، فوقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم . قال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما ؟ .. قال الرسول ﷺ : « إذا أخبرتنا ، أخبرناك . » وعلم عليه الصلاة والسلام من رد الشيخ أن عير قريش قريبة منه فقال له : « نحن من ماء » !

فانظر كيف حرص الرسول ﷺ على إخفاء هويته وإخفاء أمر المسلمين عن الشيخ حتى لا تعلم قريش بهم : فهو حين التقى به ، لم يسأله عن قريش فقط ، بل سأله عن الطرفين ( عن قريش وعن محمد ) وحين طلب الشيخ أن يعرف هويته وصاحبه كشرط للإجابة ، استطاع الرسول « تأجيل » الرد حتى يقول الشيخ ما عنده أولاً ، وفي النهاية حين أراد أن يجيب الشيخ عن هويته قال : « نحن من ماء » وهو رد صحيح ( أي من ماء دافق وهو المني ) لكنه لا يكشف سر المسلمين .

● وحفلت غزوة الفتح بتدابير عدة لإخفاء أسرار حركة المسلمين ونواياهم كلها وردت في كتب السيرة ، ونكتفي للبرهان على دقة هذه التدابير وإحكامها بأن المسلمين منعوا الرسالة التي أراد حاطب بن أبي بلتعة إرسالها إلى قريش من أن تصل إليهم ، وأن السيدة عائشة رضي الله عنها أخفت أخبار الرسول ﷺ ونواياه عن أبيها أبي بكر رضي الله عنه حين سألها : يا عائشة أهمَّ رسول الله ﷺ أن يغزو ؟ .. فقالت : « ما أرى ، لعله يريد بني سليم ، لعله يريد ثقيفاً ، لعله يريد هوازن ! » .

وبعد :

● فلعلنا قد لاحظنا أن « ضعف » المسلمين في نظر أعدائهم ( في بدر ) جعلهم يستهينون بهم ، و( أغراهم ) بالعدوان عليهم ، وأن ( قوة ) المسلمين في الفتح ( أرهبت أعداءهم ) فامتنعوا عن العدوان .. إنه درس عظيم ينبغي على الأمة أن تتدبره بكل الفهم والوعي .

● ولعلنا أدركنا ( تفوق ) الحسابات الإسلامية لوزن المسلم في ميزان القوى مع أعدائه لكي ننفذ ماأراده الله بها من المؤمنين وهو أن يحققوا في أنفسهم مايجعلهم أهلاً لتلك الغلبة الفذّة والانتصار الفريد ، من التربية الخلقية والعسكرية والإقدام على التضحية وإتقان الجهاد والثبات في مواطن البأس .

(١) الواقع أن الردع طبق في أغلب الغزوات ، لكننا هنا نركز على ما أبرزته بدر والفتح من دروس .

(٢) كان وزيراً للحربية للولايات المتحدة في الخمسينيات ويعتبر من أبرز علماء الإدارة المعاصرين .

(٣) الواقدي : مغازي رسول الله ﷺ ص ٤٨ .

(٤) البخاري : ج ٧ ص ٢٤٥ .

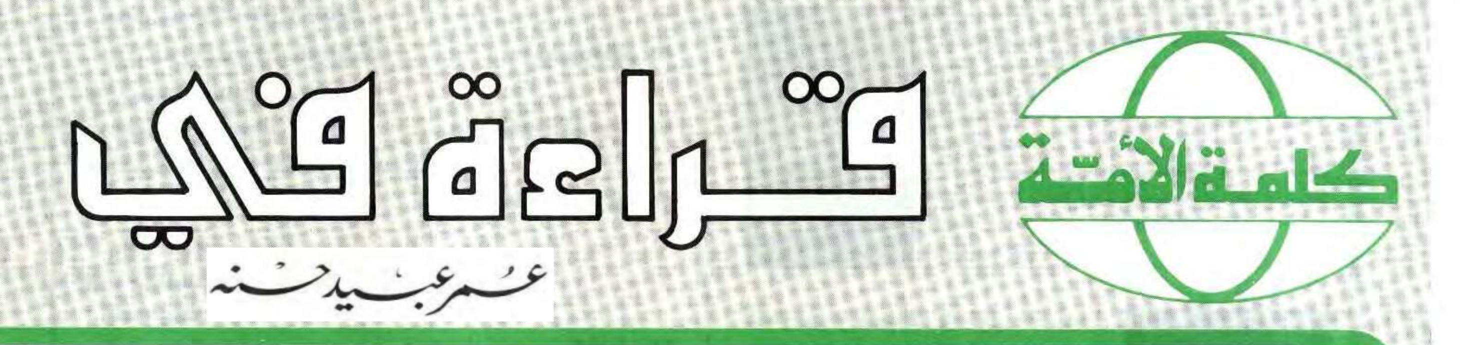
(٥) ابن هشام : ج ٢ ص ٦٢٥ .

(٦) الواقدي : مغازي رسول الله ﷺ ص ٤٨ .

(٧) المدهش أن هذا الأمر ( واستبقوا نبلكم ) هو بعينه قاعدة يتعلمها العسكريون اليوم في الدفاع ويطلقون عليها ( كبت أو حبس النيران ) فرصاص البنادق اليوم يصل مداه إلى عدة مئات من الأمتار لكن أصول الرمي في الدفاع تقضي بأن « يحبس » المدافعون نيران بنادقهم حتى يصل العدو المهاجم إلى مدى (١٠٠) متر أو أقل حتى يضمنوا دقة الإصابة مع الاقتصاد في استهلاك الذخيرة في الوقت نفسه .

(٨) المباغتة في العلم العسكري هي « إحداث موقف لا يكون العدو مستعداً له » وهي تتخذ أشكالاً عدة فقد تكون في الوقت أو المكان أو الأسلوب أو غير ذلك .






□□ إن أهم الانتصارات التي ما تزال تعطي هذه الأمة القوة ، وتمدها بأسباب النهوض ، وتشكل لها الحصانة في العقيدة والشريعة والثقافة والفكر ، والضمانة في السلوك والأخلاق ، وتحميها من السقوط والذوبان : هو هذا القرآن . ولا تكاد أمة من الأمم في التاريخ العام تمتلك مثل هذه الثروة من : العقيدة الجامعة ، والقيم التشريعية التي تجمع عليها ، وتدين لها بالمشروعية العليا ، وهذا الرصيد الفكري ، والتطبيقات العملية التي تكوّن قاعدتها الصلبة ، وهذا الدليل الثقافي - إن صح التعبير - لمختلف العقائد والملل والنحل ، والمقياس الأمين والدقيق لعوامل سقوط الأمم وشروط نهوضها .

حتى كان التذكير بالقرآن والجهاد به ، والقيام بأداء رسالته في البلاغ المبين من المهام الكبرى ، وعهدة التكليف التي أنيطت بالفرد المسلم ، والتي اعتبرت رسالته في الدنيا ونجاته في الآخرة .. قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ( قاف : ٤٥ ) وقال : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ ( الفرقان : ٥٢ ) وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ... ﴾ ( الجن : ٢٢ - ٢٣ ) .

---

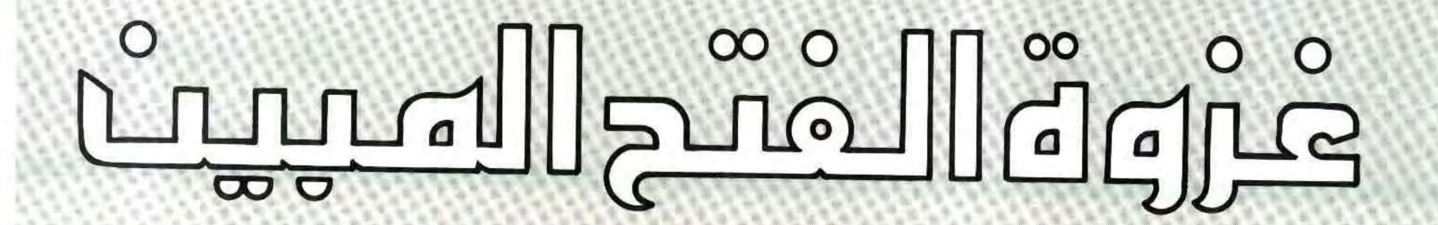
ولعل فضل رمضـــان ، وتميزه عن شهور السنة إنما يتحدد لأنه شهر نزول القرآن : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ ( البقرة : ١٨٥ ) إلى جانب أنه وعاء لكل معاني الخير ودليل لسبل السلام ، وعاء لكل الانتصارات التي شكلت منعطفات كبرى في تاريخ البشرية وحضارة الإنسانية ، إنه شهر نزول القرآن ، ومدارسة القرآن ، وملازمة القرآن ، والقضاء على الهجر للقرآن والحيدة عن طريقه ومنهجه : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ ( الفرقان : ٣٠ ) .

لقد بدأت انتصارات هذه الأمـــة في شهر رمضان ، بدأ انتصارها بنزول القرآن الذي كانت به خير أمّـة أخرجت للناس ، تقودهم إلى الخير وتهديهم سبيل الرشاد ، وتشهد عليهم عند الله : ومهمة قيادة البشرية والشهادة عليها لا بد لها من رجال امتلأت قلوبهم بخشية الله ، واستقامت أعمالهم بشريعة الله ، وترفعت نفوسهم عن الدنايا ، وانخلعت أرواحهم من أسر الشهوات والخوف على المصالح وانتظار ما عند الناس وإيثار الدنيا ... وسوف لا يتحقق هذا إلاّ في مدرسة الصوم التي يتم فيها الاستنارة بنور القرآن والتدريب على معاني الخير ...

ففي الصيام انتصار على شهوات النفس من الطعام والشراب والجنس ، تلك الأمور التي أذلت البشرية وعبّدتها لغير الله ، من لدن آدم عليه الصلاة والسلام ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كلما حادت عن نهج الله ، وأخضعتها لسلطان الطغاة من متألهي العصور المختلفة حيث إن من لوازم الطغيان والاستبداد السياسي ، وضمان استمراره وتعطيل الإحساس به والقدرة على مقارعته : إطلاق العنان لشهوتي البطن والفرج ، والتشجيع على ذلك والترويج له ، ووضع الفلسفات والمسوغات ، وممارسته تحت شعارات الحرية ، ولا يعنيهم من كل مفهومات الحرية إلا حرية الجنس والإباحية ... قال رسول الله : « صنفان من الناس لم أرهما : نساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، على رؤوسهن كأسنمة البخت . ورجال في أيديهم كأذناب البقر يضربون بها وجوه الناس » وقد لا يحتاج الإنسان إلى كثير من العناء والتفكير ليكتشف أن هذين الصنفين من لوازم بعضهما ، والشواهد على ذلك ووسائل الإيضاح التي تملأ على الناس حواسهم لم تدع استزادة لمستزيد . فالمجتمعات الظالمة المستبدة هي الأكثر تشجيعاً على الإباحية .

ومن خبث يهود أنهم أخذوا يميتون في نفوس الناس التمرد على هذه الحاجات ، ففسروا لهم الحياة والتاريخ والأخلاق والأديان على ضوء ضغط هذه الحاجات ، وفلسفوا الخضوع لها لتستمر سيطرتهم على البشرية باسم العلم ، إذ لم يتمكنوا من السيطرة عليها باسم القوة ...

فجاء الصيام في شهر القرآن والجهاد ليعلن انتصار المسلم على هذه الشهوات المتحكمة في كثير من الناس اليوم ، هذا الانتصار الذي يعتبر المقدمة التي لا بد منها للانتصار على العدو الذي نعاني منه أشد ما تكون المعاناة ، وسوف لا يتحقق هذا الانتصار إلا في مدرسة الصوم ،




فالمهزوم أمام شهواته حري بأن يهزم أمام عدوه ...

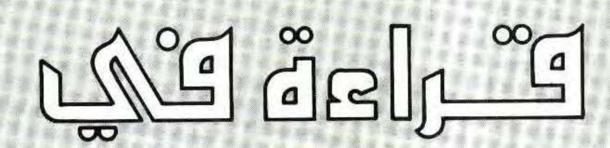
ولا شك أن المسلمين عندما كانوا على مستوى خطاب التكليف القرآني : وعياً وإدراكاً وحركة ، استطاعوا أن يكونوا شهداء على الناس ، ويقدموا من الإنجازات الكبيرة في مجال العطاء الحضاري الإنساني المتوازن ما لم تستطعه أمة من الأمم ، ويمكننا أن نقول : إن الانتصارات الكبرى في القديم والحديث كان وعاؤها شهر رمضـــان إلى حد بعيد ، ابتداءً من انتصار قاعدة الإسلام الأولى وضمانة استمرار عقيدة التوحيد في ( بدر ) « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض » وانتهاءً بالعصر الحاضر حيث لا تزال أقباس رمضـــان وانتصاراته تتكرر على مستوى الأفراد والجماعات ... وسوف نعرض هنا لبعض المواقف في غزوة الفتح المبين - صلح الحديبية - التي كانت بما ترتب عليها من فتح مكة المنعطف الكبير بعد بدر لتحويل الجزيرة العربية ، مهد الدعوة ، إلى الإسلام والانطلاق لقيادة البشرية ، ونحن في قراءتنا لهذه المواقف ، لا بد لنا من البدء من ساحة الأسباب والمقدمات التي قادت فيما بعد إلى فتح مكة ، ومن ثم الانتهاء إلى النتائج التي أدت إليها هذه الأسباب ، حيث لا يمكن الكلام عن غزوة فتح مكة دون الوقوف عند غزوة الفتح المبين ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ ( الفتح : ١ ) في غزوة الحديبية أو صلح الحديبية ، وسوف لا يعنينا كثيراً هنا السرد التاريخي للأحداث إلا بالقدر الذي نحتاج إليه في إبراز الموقف ، أو كشف بعض ملابساته علّنا نصل إلى النتائج المأمونة التي تشكل دليلاً لمسلم اليوم يستهدي بها ، وتكسبه البصيرة فيدرك الصواب في عمله الإسلامي ودعوته إلى الله : والعودة لاستلهام السيرة النبوية ضرورة حتى لا تضل الفهوم ، وتجنح الممارسات ، وتتجاوز البدهيات الشرعية تحت عنوان « مصلحة الدعـوة » فلقد قتل بعض الخوارج علياً رضي الله عنه تحت عنوان « مصلحة الإسلام والمسلمين » !! ونسارع هنا إلى التحذير مما وقع فيه بعض المسلمين تاريخياً ولا يزال يقع فيه بعض العاملين للإسلام اليوم من وجود أمور وعلاقات اجتماعية وأحلاف تقرر مسبقاً ، وقد لا يكون للإسلام فيها نصيب ، ثم يأتي دور السيرة النبوية متأخراً ليضفي صفة المشروعية ويقدم صيغة المبررات والمسوغات سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد أو الجماعات والحكومات في صلحهم وتحالفاتهم ومعاهداتهم ... حيث إن صلح الحديبية الذي أبرمه الرسول ﷺ مع قريش يستخدم اليوم مظلة لكثير من التعاهدات والتحالفات التي ما تزال آثارها تشهد عليها ، وقد لا يختلف كثيراً هنا دور فقهاء الظلم والاستبداد السياسي عن دور بعض الفقهاء والعلماء الذين أصيبوا بداء التعصب الحزبي من الذين غادروا المبادىء إلى تسويغ بعض العهود لتحقيق المصالح ...

والمعروف من أخبار هذه الغزوة أن الرسول ﷺ بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة بست سنوات من المواجهة الداخلية مع المنافقين ، والخارجية مع الكافرين قرر العمرة وزيارة البيت الحرام ، فأحرم بالعمرة مع أصحابه وساق الهدي وأعلن أنه إنما جاء معظماً للبيت ، يريد زيارته ولا يريد قتالاً ، حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي ، فقال : يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً . فقال الرسول ﷺ : « يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ... فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة » ثم استشار أصحابه في سلوك طريق غير الطريق التي هم بها ... وقد شق سلوك هذه الطريق على المسلمين حتى إذا كان الرسول ﷺ في ثنية المرار بركت ناقته ، فقال الناس : خلأت . فقال : « ما خلأت وما هولها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » ثم قال للناس : « انزلوا ... » وقد جرت بين رسول الله ﷺ وبعض من أرسلت قريش لقاءات ومفاوضات معروفة في مظانها من كتب السير والمغازي لا يتسع المجال لذكرها ولا بد من الرجوع إليها لاستكمال صورة الصلح وما أحاط به من ملابسات ...

ولعل من أهمها ، ما روى الزهري عن بعث عروة بن مسعود الثقفي حيث قابل الرسول ﷺ وتعرف على مجتمع المسلمين عن قرب ، ومن ثم رجع إلى قريش ، فقال : إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد - ﷺ - في أصحابه ، لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم .

وقد دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال : يا رسول الله ، إني أخاف




قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ، ولكن أدلك على رجل أعزّ بها مني : عثمان بن عفان رضي الله عنه . فدعا عثمان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته ... فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وأشراف قريش ، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقال أبو سفيان لعثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ ... فاحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قتل ، فقال : « لا نبرح حتى نناجز القوم » ودعا إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة التي كان لأصحابها فيما يروى مكانة أهل بدر من خصوصية الغفران والثواب ...

ثم أرسلت قريش سهيل بن عمرو ، فقالوا : إئت محمداً وصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً . فأتاه سهيل ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً ، قال : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ... » وبعد أن تكلما وتراجعا جرى الصلح بينهما ... فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقال : « اكتب ، بسم الله الرحمن الرحيم » قال سهيل : لا أعرف هذا ، اكتب ، باسمك اللهم . فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه : « اكتب ، باسمك اللهم » فكتبها . قال : « اكتب ، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله - ﷺ - سهيل بن عمرو » قال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، لكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله ﷺ : اكتب ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على :

- وضع الحرب عن الناس عشر سنين .
- من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه يرده ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه .
- وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، فتواثبت خزاعة ، فقالوا : نحن في عقد محمد ؛ وتواثبت بنو بكر ، فقالوا : نحن في عقد قريش ...
- وأنك ترجع عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت فيها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب : السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها ...

فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه فضرب وجهه ، وأخذ بتلبيبه ، وقال : يا محمد ، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت ، فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ، يعني يرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أُرد إلى المشركين يفتنوني في ديني . فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم ... » .

وسوف نعرض هنا لبعض القضايا والمواقف في غــزوة الفتح المبين هذه :

قضيـــة الشــورى : لا على أنها إحدى مقومات نظام الحكم في الإسلام ، وإحدى سمات وخصائص المجتمع المسلم فحسب ، حيث رافقت مجتمع المسلمين في خطواته الأولى ، قال تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ( الشورى : ٣٨ ) والآية مكية ، وإنما من حيث إنها ملزمة للحاكم المسلم ، وقائدة المجتمع المسلم إلى الصواب ، ذلك أن الاستدلال على عدم إلزاميتها من موقف الرسول ﷺ في صلح الحديبية بعد أن كان من موقف عمر رضي الله عنه ، ورأي الصحابة رضوان الله عليهم ، فيكفي لنا هنا إيراد قول الرسول ﷺ عندما خلأت ناقته في ثنية المرار ، فقال الناس : خلأت . قال : « ما خلأت وما هو بخلق لها ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ... » ويمكن أن نلمح ذلك أيضاً من موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما جاءه عمر بن الخطاب رضي الله عنه مستنكراً ما حدث ، فقال له أبو بكر : يا عمر ، الزم غرزه ، فإني أشهد أنه رسول الله : وعندما رد رسول الله ﷺ على عمر رضي الله عنه بقوله : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني » .

فالقضيـــة هنا لا مجال فيها للشورى ، حيث أمر الله ووحيه نص ، إضافة إلى أن عمل الرسول ﷺ سنة ، وهو مستغن عن الشورى بالوحي ، والشورى اجتهاد الجماعة ، ولا اجتهاد في مورد النص ، ومجال الشورى إنما يكون فيما لا وحي فيه ... ولسنا بحاجة إلى التذكير بما أحدثه غياب المؤسسات الشورية ، وسيطرة فلسفة الاستبداد السياسي من مخاطر في المجتمع المسلم ، ومن أخطار في مجال العاملين للإسلام ، ذلك أن سيادة الشورى والالتزام بها هو المأمن الوحيد لحماية السفينة من الخرق ، والتي ما تزال تخرق ويتكرر اللدغ من الجحور المختلفة




تحت عنوان أن الشورىٰ معلمة وليست ملزمة .. وفي اعتقادنا لو أن الصحابة رضوان الله عليهم فهموا أن الشورىٰ معلمة وليست ملزمة لاكتفوا بتقديم الرأي وينتهي الأمر ، لكن الإصرار والمتابعة وتحرك عمـر لإقناع الصديق وغيره رضي الله عنهم جميعاً دليل على أن الأمر يثمر الإلزام إذا لم يكن هنالك نص ...

والقضيـــة الثانيـــة : إن علاقة الصحابة مع رسول الله ﷺ كانت طبيعية للغاية ، كان الحوار وكان تعدد وجهات النظر حول القضية الواحدة يبلغ أبعد مدى ممكن ، « ألست برسول الله ؟ ألسنا بالمسلمين ؟ فلماذا نرضى الدنيّة في ديننا ؟ » إلا أن ذلك ما كان لينتهي إلى الخلاف والخصام والاصطدام ثم الافتراق ... صحيح أن مجتمعهم القدوة وعلاقاتهم تميزت على واقع المجتمعات البشرية جميعاً حيث تحطمت في هذا المجتمع صورة كسرىٰ في ملكه ، وقيصر في حكمه ، والنجاشي في مملكته ، إلا أنهم بشر تربوا في مدرسة الرسول ﷺ ، والمبالغات الكثيرة حول حياتهم التي قد تخرج بهم عن بشريتهم يخشى أن تساهم سلبياً في نقل الدعوة الإسلامية من مجال الواقعية وإمكانية التطبيق ضمن طاقات البشر إلى ضرب من الخيالية والأوهام ...

والقضيـــة الثالثـــة : إن الصلح ـ دون شك ـ كان في مصلحة المسلمين حتى أسماه الله تعالى « الفتح المبين » ولم يبق هذا محلاً للاجتهاد بعد نزول القرآن وظهور النتائج التي أدت إلى فتح مكة ونشر الإسلام ، على عكس رؤية بعض الصحابة أو معظمهم ، ذلك أن قريشاً بهذا الصلح اعترفت عملياً ، ولأول مرة ، بالوجود الإسلامي ، أو ما يسمى بلغة القانون اليوم : « الاعتـــراف الفعلي » وهذا مكسب كبير للإسلام .

القضيـــة الرابعـــة : لا شك أن هذا الاعتراف ، وما استتبعه من وضع الحرب أوزارها عشر سنوات أتاح الفرصة لكثير من الخائفين على أنفسهم من القبائل العربية للدخول في الإسلام ، ذلك أن الفرصة الحقيقية لانتشار الإسلام ، والوسيلة الحقيقية لنشره هي السلم ، أما الحرب وامتشاق الحســـام فهي حالات خاصة تتحدد بالضرورة لدفع العدوان ، ولعل نظرة إلى العدد الذي جاء به الرسول ﷺ في عمرة الحديبية سنة ست للهجرة كان ألفاً وخمسمائة رجل ، والعدد الذي دخل فيه مكة فاتحاً سنة ثمان للهجرة كان حوالي عشرة آلاف رجل أو يزيد ، دليل كاف على ذلك ... وهذه الحقيقة لا ترتبط بفترة زمنية معينة ، وإنما هي سنة ماضية ، ولو ألقينا نظرة على خارطة العالم الإسلامي اليوم لوجدنا أن البلاد التي دخلها الإسلام فاتحاً لا تعدل خمس بلاد العالم الإسلامي ، ولا يزال الإسلام يكسب يومياً مؤمنين جدداً رغم ما يعاني العالم الإسلامي من ضعف واستعمار ....

القضيـــة الخامســـة : الرؤية الواضحة للمستقبل والتبصر بما ستؤول إليه الأمور من خلال المقدمات فقد تبدو ظاهرة عدم المساواة في : أن من جاء محمداً من قريش مسلماً بدون إذن وليه يرده ، ومن جاء قريشاً لا يردونه ، ذلك أن الذي يرتد عن إسلامه ويلتحق بقريش فلا حاجة لله به ولا حرص للمسلمين عليه .

القضيـــة السادســـة : التزام الخلق الإسلامي حتى مع الخصم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ( المائدة : ٨ ) فالغاية لا تبرر الوسيلة ، لقد جاء أبو جندل مسلماً يرسف في قيوده ، واستجار بالمسلمين ، ودخل عليهم في ذلك همٌّ عظيم حيث تقضي نصوص المعاهدة بردّه إلى قريش ، وهو ينادي : أتردونني يفتنني المشركون عن ديني !! فما كان من الرسول ﷺ إلا أن قال : « إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم ، فاصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » لقد كانت هذه الأخلاق والعهود وراء إسلام سهيل بن عمرو وخالد بن الوليد اللذين كانا من عتاة قريش ، وغيرهم كثير ، وهذا مؤشر على أن عمليات التغيير التي ننشدها في المجتمعات سوف لا تتحقق إلا بالقدر الذي يتمتع به العاملون للإسلام بأخلاق الإسلام السامية ، ويمتلكون من صفات يفتقدها الآخرون ، ويشعرون أنهم بحاجة إليها ... الأخلاق التي تثير الاقتداء ، أما إذا كان العاملون للإسلام يحملون علل مجتمعهم نفسها فأنّى لهم التغيير ؟!

وبعــــــد : فلقد أسمى الله تعالى صلح الحديبية وما ترتب عليه بالفتح المبين ، ذلك أن آثاره امتدت في أعماق التاريخ ، وشكلت منعطفاته الكبرى ، واعتبر ذلك تمهيداً لفتح مكة حيث دانت الجزيرة العربية بالإسلام لينطلق منها إلى العالم ، ففي بدر انتصر الإسلام وتأصلت عقيدة التوحيد ، وفي الحديبية انتشر الإسلام حتى عم الجزيرة وانطلق منها إلى العالم حتى كانت مكانة أهل بيعة الرضوان عند الله في سوية مكانة أهل بدر ، ولذلك شواهد كثيرة من أحاديث الرسول ﷺ ، من ذلك قوله : « لا يدخل النار من شهد بدراً والحديبية » ، وسوف نتابع الكلام إن شاء الله عن فتح مكة في العدد القادم ... □□

# تحليل نوعي وكمي

**بلغ عدد العمليات الحربية فى عصر النبوة أكثر من ستين عملية ما بين غزوة وسرية ، وقاد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بنفسه من هذه العمليات ثماني وعشرين غزوة ..**

**وإذا تناولنا هذه الغزوات بالتحليل الاحصائى ، من حيث النوع والكمية والتوزيع الزمنى ، فسوف تتكشف لنا عدة مبادىء في القيادة الحربية ، في غاية الفائدة للأمة الاسلامية ، وتعد من أبرز خصائص العسكرية الاسلامية ..**

اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ

أولا : تحليل التوزيع الزمنى والكمى :

ولعل أول ما يسترعي الانتباه ، التوزيع الزمني للغزوات خلال الفترةالتي دار فيها الصراع المسلح بين المسلمين وأعدائهم في عصر النبوة ، والتى امتدت سبع سنوات تقريباً من السنة الثانية إلى السنة التاسعة للهجرة (من صفر سنة ٢ هـ . إلى رجب سنة ٩ هـ .) . حيث يتضح التوزيع كما يلي :

| | |
|---|---|
| عدد الغزوات فى السنة الثانية للهجرة : | ٨ |
| عدد الغزوات فى السنة الثالثة للهجرة : | ٤ |
| عدد العزوات فى السنة الرابعة للهجرة : | ٣ |
| عدد الغزوات فى السنة الخامسة للهجرة : | ٤ |
| عدد الغزوات فى السنة السادسة للهجرة : | ٣ |
| عدد الغزوات فى السنة السابعة للهجرة : | ٢ |
| عدد الغزوات فى السنة الثامنة للهجرة : | ٣ |
| عدد الغزوات فى السنة التاسعة للهجرة : | ١ |

ومن ذلك نلاحظ ما يلي :

١ ــ ان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم حرص على مباشرة القيادة بنفسه طوال فترة الصراع كلها .

(من السنة الثانية إلى التاسعة للهجرة) وفى كل سنة من سنواتها بلا استثناء ، مع إتاحة الفرصة ــ فى الوقت نفسه ــ لأصحابه أن يتولوا قيادة الأعمال الحربية المختلفة تحت اشرافه وتوجيهه بصفته القائد الأعلى ، وهذه العمليات تسمى بالسرايا التي بلغ عددها خلال نفس الفترة أكثر من ثلاثين سرية .

٢ ــ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قاد في السنة الثانية للهجرة ــ وهى أولى سنوات الصراع ــ أكبر عدد من العمليات الحربية ، وهو ثمانى غزوات بينما لم يزد عدد العمليات التي قادها في كل سنة بعد ذلك عن ثلاث أو أربع عمليات في المتوسط

هذا التركيز في قيادة عمليات أولى سنوات الصراع ، له دلالاته التي لا تفوت القائد المحنك الخبير بفن الحرب(١) ، ويعد في نظر العلم العسكري والاستراتيجية الحربية من علامات القيادة الحربية الفذة .

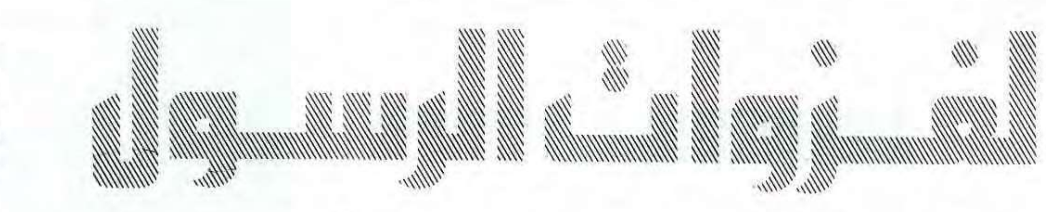
● فهو يتيح للقائد ــ فى بداية الصراع وقبل تصاعده ــ الفرصة لدراسة مسرح العمليات دراسة شخصية من الناحية «الطبوغرافية» (مثل طبيعة الأرض والطرق وموارد المياه والتضاريس .. الخ) ومن الناحية «الديموغرافية» (مثل تركيب السكان وتوزيعهم ومظاهر الكثافة والتخلخل السكاني .. الخ) ، فكل ذلك يمكنه من تحديد «الأهداف الاستراتيجية» (وهي الأهداف التي تسبب للعدو من الأضرار ما يؤدي الى إحداث تغييرات حادة في الموقفين العسكري والسياسي ويؤثر تأثيراً بالغاً على تطور الصراع المسلح عامة) .

● ويتيح للقائد كذلك الفرصة لدراسة عدوه عن طريق الاحتكاك المباشر ، وتقييم كفاءته القتالية مادياً ومعنوياً ، ودراسة أساليبه في القتال ، وأسلحته التى يستخدمها ، وكل ذلك يكسب القائد ما يسمى «بالخبرة القتالية» .

● هذه الدراسة الشخصية الشاملة ، تمكن القائد من التخطيط السليم لجميع العمليات الحربية المقبلة ، كما تمكنه من إدارة المعارك بكفاية تامة ، ومن توجيه المقاتلين إلى ما يحقق لهم النصر على أعدائهم .

● ونتيجة لذلك تنمو لدى القائد ثقته بنفسه وبكفاءته وقدراته ، كما تنمو لدى سائر أفراد الجيش ثقتهم بأنفسهم وقائدهم ، فيواجهون تحديات الصراع المقبلة واثقين من النصر .

٣ ــ ونلاحظ أيضاً من تحليلنا لهذا التوزيع الكمي والزمني







للغزوات : أنه يكشف عن مبدأمن أهم مبادىء إعداد القادة العسكريين لتولي القيادة ، وهو أن يتولى قادة المستقبل قيادة الوحدات الفرعية للجيش تحت قيادة القائد العام ، وهذا الأسلوب يفيد القادة من عدة نواح نذكر منها :

● مباشرة القيادة عملياً تحت إشراف القائد الأكبر ، والافادة من ملاحظاته وتوجيهاته .

● إتاحة الفرصة لهم لملاحظة أسلوب القائد «المعلم» في القيادة الحربية من حيث التخطيط للمعركة وإدارتها ، وتصرفه في مواقفها المختلفة ، وهى فرصة ممتازة للتعليم على الطبيعة واكتساب الخبرة القتالية في الوقت نفسه .

● تدريب قادة المستقبل على فن التفكير واستخدام العقل والتعبير عن الرأي وذلك من خلال اشتراكهم مع القائد الأكبر في فى مرحلة التخطيط للمعارك ، ويدخل ذلك في نطاق مبدأ الشورى الذى أمر به الاسلام ، وطبقه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم خير ما يكون التطبيق حتى قال عنه أبو هريرة رضى الله عنه :

« مارأيت أحداً قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقد استشار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه فى كافة غزواته (٢) ففى غزوة بدر مثلا استشارهم في مبدأ دخول المعركة ضد قريش ، واستقر الرأى على قبول المعركة وعندما وصل جيش المسلمين الى مكان المعركة نزل الرسول عليه الصلاة والسلام على رأي الحباب بن المنذر الذي أشار بأن ينتقل الجيش إلى مكان آخر أفضل من الأول ، لأنه قريب من ماء بدر ويتحكم فيها . وفي غزوة أحد استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه في مبدأ البقاء في المدينة ولقاء قريش فيها ،أو لقائهم خارجها ، فاستقر الرأي على الخروج ، واستجاب صلى الله عليه وسلم لذلك الرأي وقال لهم : «لكم النصر ما صبرتم» .

● ثم إن هذا الاسلوب يفيد قادة المستقبل من حيث انه يكسبهم القدرة على اصدار القرارات السليمة ، وفي وقتها المناسب ، مما يعد من أهم خصائص القيادة الناجحة ، ذلك لأن مشاركتهم في مرحلة التخطيط تتيح لهم معرفة واسعة بفكر القائد ونواياه وأهدافه ، وإحاطة وافية بجوانب الموضوعات ، والقضايا تمكنهم من اتخاذ القرارات السليمة في المواقف التي يواجهونها في المستقبل بهدى تفكيرهم وحده ، ودون حاجة إلى الرجوع إلى القيادة الأعلى ، وخاصة في المواقف المفاجئة أو التى لا تحتمل التأخير .

ثانياً : التحليل النوعي للغزوات :

وإذا تناولنا الغزوات بالتحليل من حيث النوع ، أو الطابع فسوف تنكشف لنا جوانب أخرى في القيادة الحربية ، وفى إعداد القادة وتدريبهم .

فلقد احتوت الغزوات على شتى صور وأشكال العمليات الحربية كما يلي :

● عمليات الاغارة ودوريات القتال والردع والتأثير المعنوى مثل :

غزوة ودان – بواط – العشيرة – بدر الأولى – بنى سليم – ذي أمر – بحران – ذات الرقاع – بدر الآخرة – دومة الجندل – بني المصطلق – بني لحيان – الحديبية – عمرة القضاء .

● العمليات الدفاعية مثل :

● غزوة بدر الكبرى – أحد – الخندق .

● العمليات الهجومية مثل :

غزوة فتح مكة – غزوة حنين – تبوك .

● عمليات المطاردة مثل :

غزوة السويق – حمراء الاسد – ذي قرد .

● عمليات الحصار والقتال في القرى الحصينة مثل :

غزوة بني قينقاع – بني النضير – بني قريظة – خيبر – الطائف .

ومن هذا التحليل نستخلص أن جيش الاسلام الاول (قادة وجنداً) قد تعلموا ومارسوا عملياً كل أشكال العمليات الحربية تحت قيادة القائد المعلم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنهم اكتسبوا بذلك خبرة قتالية فائقة .

كما نستخلص أنهم اكتسبوا خبرة حربية في مواجهة التنظيمات الحربية ، والنظريات القتالية المختلفة ، فهم قد حاربوا المشركين من العرب الذين كانوا يقاتلون بأسلوب الكر والفر ، وحاربوا اليهود الذين كانوا يحاربون «من وراء جدر» ومن داخل حصونهم ، وقراهم المحصنة .

فاذا ما أضفنا الى ذلك المعارك التى دارت فى مواجهة الروم فى عصر النبوة «مؤتة وتبوك» ، يكون جيش الاسلام قد اكتسب الخبرة القتالية في مواجهة الجيوش المنظمة ، بالاضافة إلى خبرته في قتال الجيوش غير المنظمة (قريش والقبائل العربية الأخرى).

وبعد ، فانه يبقى لنا من هذا التحليل درس عظيم ، هو أن نمط «القائد المعلم» هو النمط الذي يدعو إليه الاسلام والذي لا يرتضي عنه القائد المسلم بديلا ، وأن القائد في الاسلام «صاحب مدرسة ورسالة» يدرك تماماً أن قيامه باعداد أجيال من القادة من أسمى واجباته لها ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، قال تعالى : «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة» صدق الله العظيم .

# السيرة النبوية ..

□□ كانت السيرة النبوية ، ومازالت ، مصدر الهام للأعمال الأدبية والفنية على توالي العصور ، ولقد تمثلت في مسيرتها الطويلة جميع الفنون الأدبية ، من قصة إلى قصيدة ، إلى مسرحية ، كما أفادت من وسائل الاتصال في الحضارات الإعلامية المختلفة ، منذ الحضارة السمعية ، ومروراً بحضارتي : التدوين والطباعة ، وحتى حضارة الاذاعة المسموعة والمرئية .

وفي هذه الدراسة ننظر في الاعمال التي تناولت السيرة النبوية في هذه الحضارات الاعلامية وفي الفنون الأدبية المختلفة ، في محاولة لاستقراء خصائص الشخصية الاسلامية كما تمثلها الوجدان الاسلامي ، وعبر عنها شعراً ونثراً ، في الأدب الفصيح ، وفي الأدب الشعبي على السواء . □□

ومن ذلك ما يكشف عنه تحليل مضمون السيرة الشعبية الذي أظهر لنا أن الوجدان الاسلامي طالما لجأ إلى السيرة النبوية ، ولا سيما في أوقات المحن ، ليؤكد على هذه الشخصية الاسلامية من خلال السيرة العطرة ، وذلك أن الملاحم الشعبية الباقية من الحضارة السمعية تطالعنا بسمة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حرفة الشاعر الشعبي ، وهي أنه يبدأ حديثه أو شعره بالصلاة على النبي ﷺ، وهي ظاهرة لا تحتاج في تحليلها إلى كثير من التأمل وانعام النظر ، خاصة إذا عرفنا أن الصلاة على النبي تقرن دائماً بصفة مميزة .

ويمكننا أن نصل إلى النتيجة نفسها عندما نتصدى لدراسة الآداب الشعبية في البلاد العربية والاسلامية الأخرى ، كما نصل اليها من دراسة السيرة النبوية في الأجناس الفنية المختلفة ، ومن ذلك في الحضارة السمعية مثلا ، ما نجده في أقدم المدائح النبوية ، حيث يقول الأعشى :

نبي يرى مالا ترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغبّ ونائلٌ ... وليس عطاءُ اليوم مانِعَهُ غدا
متى ما تُنَاخِي عند باب ابن هاشمٍ ... تُراحِي وتَلْقَى من فواضِله نَدَى

ومهما يكن من أمر صدق الأعشى في مدح الرسول ﷺ، الا أنه حرص على تأكيد الخصائص العربية الاسلامية في الشخصية المثلى ، وكذلك الحال في قصيدة ( **بانت سعاد** ) التي قالها كعب ابن زهير في مدح الرسول ﷺ ، والتي منها :

إن الرسول لنور يستضاء به
وصارم من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما اسلموا زولوا
زالوا فمازال انكاس ولا كشف
عند اللقاء ولا ميل معازيل
شم العرانين أبطال لبوسهمُ
من نسج داود في الهيجا سرابيل
لا يفرحون اذا نالت رماحهم
قوما وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا
يمشون مشي الجَمَال الزُّهْرِ يعصمهم
ضربٌ اذا عرَّد السُّودُ التنابيلُ
لا يقع الطعنُ الا في نحورهمُ
وما لهم عن حياض الموت تهليل

بقلم الدكتور : عبد العزيز شرف

# والنقل الحضاري بين الأجيال

## الشخصية الاسلامية في السيرة النبوية :

ومما تقدم يتضح أن السيرة النبوية تمثل القاسم المشترك الأعظم بالنسبة للشخصية الاسلامية رغم وجود فروق بين شعب اسلامي وآخر ، ذلك أن السيرة النبوية تمثل قيماً حضارية مشتركة ، لها تأثيرها على السلوك الاجتماعي للشعوب الاسلامية المختلفة ، يتضح في الاهتمام بالدنيا الى جانب الاهتمام بالدين ، وتحقيق التعادلية بين سعادة الروح وسعادة الجسد ، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ، وهو سلوك تعادلي ، أفاد من الحديث الشريف توجيهه إلى الاتحاد ، فـ « **المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً** » وفي السيرة النبوية دعوة للعرب وللناس جميعاً إلى ترك الانفرادية والانعزالية ، وأن يصبح العمل الموحد في سبيل الغاية المشتركة أساساً مستفاداً من السيرة النبوية في كل العصور ، فالناس جميعاً عباد الله ، وكلهم مشتركون في هذه الصفة « متساوون فيها ، ليس لأحدهم فضل ولا تقديم الا بمقدار ما في قلبه من الاخلاص وفي سعيه من عمل مثمر يعود على البشر بالخير والسعادة »[٣] .

وإلى جانب ما تحققه السيرة النبوية من وظائف في تطهير النفوس وتهذيبها ، وما قامت به من تحرير للمجتمع العربي من الشوائب والمفاسد المتمثلة في تقاليدهم وعاداتهم ، وفي قيمهم ونظرتهم للحياة ، والصلات المختلفة بين الناس ، وطرق العيش وتحصيل الكسب ، كذلك تحرير معتقداتهم وإرسائها على قواعد ثابتة مكينة ، الى جانب هذا **كله نجد الاسلام قد وضع الأسس للتاريخ المجيد للأمة الاسلامية ، وما تتمتع به من مقومات** بمفهومها الذي نعرفه الآن ، متمثلاً في اللغة والتاريخ والحضارة . كذلك كان الاسلام سبباً فيما نحيا فيه الآن من سعي نحو تأكيد دور **الأمة الاسلامية** فقد دعا العرب المتباعدين المتنافرين إلى تكوين **أمة** مترابطة متجانسة موحدة الأهداف والآمال :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ( آل عمران : ١١٠ ) ، ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ ( آل عمران : ١٠٤ ) ، ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة : ١٤٣)

فهذه الآيات واضحة الدلالة على أن الاسلام صاغ هذه الأمة العربية صياغة جديدة ورفع مكانتها بين الأمم وشرفها بهذه الرسالة السامية ، وأعطاها من تراث العلم والمعرفة ما تستطيع أن تقف به بين الأمم مفاخرة معتزة . وهذب الاسلام الأمة العربية بتوحيد قبائلها وفض منازعاتها ، وتوحيد جهادها ورسم أهدافها لخير المسلمين وخير البشرية[٣] .

وإذا كانت الشخصية المشتركة هي بوجه عام : « السمات النفسية والاجتماعية والحضارية لأمة ما ، وتتسم بثبات نسبي ، ويمكن عن طريقها التمييز بين هذه الأمة وغيرها من الأمم »[٤] ، فإن دراسة الأعمال الأدبية التي تناولت السيرة النبوية ، تطلعنا **على عدد من خصائص الشخصية الاسلامية المثلى** ، وهي تؤكد التكامل الانساني في صاحب السيرة ﷺ ، ومن ذلك ما جاء في كتاب **الشفاء للقاضي عياض في مقدمة كلامه في أوصاف محمد ابن عبد الله** ﷺ : أن خصال الجمال والكمال في البشر نوعان : ضروري دنيوي اقتضته الجبلة ، وضروة الحياة الدنيا ، ومكتسب ديني ، وهو ما يحمد فاعله ، ويقرب إلى الله تعالى زلفى ، ثم هي على فئتين أيضاً ، منها ما يتخلص لأحد الوصفين ، وما يتمازج ويتداخل . فأما الضروري المحض ، فما ليس للمرء فيه اختيار ، ولا اكتساب ، مثل ما كان في جبلته من كمال خلقه وجمال صورته ، وقوة عقله ، وصحة فهمه ، وفصاحة لسانه ، وكرم أرضه ، ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه من غذائه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه .

وأما المكتسبة الأخروية ، فسائر الأخلاق العلية والفضائل الشرعية من الدين ، والعلم ، والحلم ، والرحمة ، وحسن المعاشرة .. وهي التي جماعها حسن الخلق .

ومن ذلك يبين أن القاضي عياضاً قد قسم الأوصاف التي تحلى بها النبي عليه الصلاة والسلام قسمين :

**أحدهما — ما كان بالفطرة الانسانية وهي كمال الفطرة ، ويلحق بها أوصافه الجسمية ، صلى الله تعالى عليه وسلم .**

وثانيهما — **ما اكتسبه بمقتضى التعاليم الشرعية وذكر منها التواضع والحلم ، والصبر والشكر ، وحسن المعاملة ، وبشكل عام ما يتعلق بحسن الأخلاق** الذي هو جماع الفضائل الإنسانية ، ويذكر أن من هذه الصفات المكتسبة بحكم الشرع الشريف والوحي إليه مما تلتقي فيه الفطرة المستقيمة مع الوحي ، فالجود والتواضع والصبر والفصاحة ، والتأني ، وحسن التأتي للأمور ، والرفق في القول والعمل ، ولين الجانب من غير ضعف ، والقول الحق من غير عنف ، كل هذه الصفات كانت في محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت فيه بفطرته المستقيمة ، وبتهيئة الله تعالى له قبل الرسالة ، اعداداً لهذا المنصب الخطير ، وهو رسالة الله تعالى الى خلقه .[٥]

وإنا لنركز في هذه الدراسة ، على ما كان فيه بمقتضى الطبع الانساني السامي الذي فطره الله تعالى عليه وما كان من صفات تتعلق بالمعاملات ، والعلاقات الانسانية والمودة والرحمة والرفق ، والفصاحة ، وغيرها مما كانت مهيئة للرسالة وتحمل الأعباء[٦] ، في محاولة لتصور الشخصية الاسلامية المثلى ، ووصف السمات النفسية والاجتماعية والحضارية للأمة الاسلامية ، كما صورتها السيرة في عصورها المختلفة ، والتي يمكن عن طريقها التمييز بين هذه الأمة وغيرها من الأمم .

وتثير هذه القضية أمام عالم النفس الاجتماعي مشكلة على جانب كبير من الأهمية والخصوبة معاً ، هي كيف يتم نقل عناصر الإطار الحضاري من شخص إلى آخر ؟ من الآباء إلى الأبناء مثلاً خلال عملية التنشئة الاجتماعية أو ما يعرف اصطلاحاً بالتطبيع **SOCIALIZATION** ؟ ذلك أن الاطار الحضاري لا يجوز تصوره على أنه يحيط بنا فحسب ، بل الواقع أن جزءاً كبيراً منه لا يمكن أن يقوم إلا من خلالنا . ومن ذلك مثلاً نظام القيم والرموز وأشكال السلوك المقبولة أو المنشودة ، هذه كلها جوانب من الحضارة لا يمكن أن تقوم إلا بواسطة أبناء المجتمع ولا يمكن أن تستمر عبر الأجيال إلا بأن ينقلها أبناء الجيل إلى أبناء الجيل التالي فكيف يتم هذا النقل[٧] ؟ وبالقياس إلى **السيرة النبوية وسمات الشخصية الاسلامية** ، نطرح السؤال نفسه ، كما نتساءل : **هل تنقل جميع السمات أم بعضها** ؟ وإذا كان بعضها فقط فما هي القوانين المنظمة لانتخابه ؟ مشكلات على جانب كبير من الأهمية ، ولاسيما حينما نتصدى لدراسة السمات التي تمثلها الشخصية الاسلامية من السيرة النبوية . وعندما ننظر إليها على مستوى التفاعل بين الأفراد من خلال عملية التطبيع أو من خلال عملية التحضير**ACCLTURATION** للكشف عن القوانين العامة التي تنظمها ، لا تصبح موضوعاً من الموضوعات التي يختص علم النفس الاجتماعي بمعالجتها فحسب ، وإنما من شأنها كذلك أن تزيد بصيرة التفسير الاعلامي للسيرة النبوية بجوانب أرحب وأعمق .

وهذه القضية ترتبط بمفهوم البناء الأساسي للشخصية ، والذي يذهب إلى أن الناس في « **ثقافة** » معينة يميلون إلى أن يتشابهوا في شخصياتهم ، وقد ثارت مشكلة تتعلق بتحديد العلاقة بين النظم الاجتماعية داخل الثقافة نفسها ، وان كانت الميزة التي لا تنكر لمصطلح « الأنموذج الثقافي » هي أنه اعتراف بالحقيقة التي مؤداها أن ثمة علاقة وطيدة بين الشخصية والنظم الاجتماعية ، وأن هذه العلاقة تتسم بالدوام[٨] .

ومن هنا يتضح الارتباط بين السيرة النبوية والنقل الحضاري بين الأجيال ، تأسيساً على أن الثقافات تنتقل داخل أي مجتمع ،

# السيرة النبوية .. والنقل الحضاري بين الأجيال

من جيل إلى آخر ، ونفيد في دراسة هذا الارتباط من الصياغات الموجودة في « **نظرية التعلم LEARNING THEORY** » غير أن هناك **جوانب** قصور في الاعتماد على نظرية التعلم وحدها ، من **أهمها أن هناك** وفق ما نعلمه عن عمليات تأثير الثقافات بعضها ببعض وانتشارها حداً يتعلق بمضمون الثقافة التي يمكن أن تنتقل عبر عمليات التعلم المباشر . ومن ناحية أخرى يثور التساؤل حول ، ما إذا كانت عملية التعلم بمفردها يمكن أن تفسر انتقال الثقافة ، ولماذا يصعب فهم السبب الذي يجعل الثقافة تتغير دون أن تستعير شيئاً من الثقافات الأخرى ؟ والمشكلة أن عمليات التعلم لا تستطيع أن تفسر الطابع التكاملي للذهن الانساني ، وذلك إذا ما وضعنا في الاعتبار العلاقات الانفعالية للفرد مع بيئته . وهناك عامل آخر يحدث فعله وهو عامل تستطيع عيادة التحليل النفسي أن تلقي عليه مزيداً من الضوء . فبالاضافة إلى عمليات التعلم المباشر ، فإن الفرد بين سلسلة بالغة التعقيد من الأنساق التكاملية التي ليست نتيجة للتعلم المباشر[٩] .

ومن أجل ذلك كله نلجأ الى جانب نظرية التعلم في التفسير الاعلامي للسيرة النبوية إلى نظرية أخرى ، ونعني بها « **نظرية الاتصال COMMUNICATION THEORY** » والتي تذهب إلى أن **عملية الاتصال** لا يمكن أن تتحقق وأن تحدث في حد ذاتها ، ولكنها تحدث كافتراض أساسي للعملية الاجتماعية ، وفي ذلك تعد العملية الاجتماعية افتراضاً أساسياً للاتصال[١٠] . ولقد حاول موريس جانوفيتز- **MORRIS JANOWITZ** وهو من كبار العلماء المهتمين بدراسة الاتصال — أن يحدد في مقاله عن**The Study of Mommunication** أهم وظائف الاتصال الجماهيري فذكر ثلاث وظائف أساسية هي : **نقل تراث المجتمع** من جيل لآخر **وجمع المعلومات** التي تساعد على مراقبة البيئة والاشراف عليها ، ثم المساعدة على ترابط **مختلف أجزاء المجتمع** في وجه التغيرات الهائلة التي تطرأ على تلك البيئة . وقد تبدو هذه ( الوظائف ) غريبة بعض الشيء ، أو على الأقل غير مألوفة للكثيرين ممن يتصورون أن لوسائل الاتصال الجماهيري وظائف وأهدافاً أخرى غير هذه ، مثل الدعاية السياسية والترويج للمذاهب والايديولوجيات والأفكار المتعلقة بنظام الحكم القائم ، أو حتى الترويج لأنواع معينة من النشاط الاقتصادي عن طريق الاعلان ، وذلك فضلاً عن توفير بعض مواد التسلية والترفيه المفيدة ، وربما كانت هذه الوظائف الثلاث التي ذكرها جانوفيتز في نظره « **الوظائف النهائية** » **أو الوظائف** « **العليا** » التي ينبغي لوسائل الاتصال الجماهيري أن تعمل على تحقيقها في آخر الأمر ، إلا أن اختلاف وجهات النظر وتعددها حول هذا الموضوع خليق بأن يكشف لنا عن مدى أهمية الاتصال الجماهيري في حياة



الفرد والمجتمع ، وتنوع بل وتغاير وتباين المجالات التي يمكن أن يفيد فيها ، وهذا كله يعني في آخر الأمر أن أية محاولة لدراسة الاتصال الجماهيري يجب أن تعطى كثيراً من الاهتمام لدراسة وفهم النظم التي تصوغ عمليات الاتصال ، والسياسات التي تهدف إليها ، والآثار المترتبة عليها ، ومدى اقتناع الجماهير بما يقدم لهم من مواد ومعلومات .(١١) .

## التفسير الاعلامي يواجه صعوبات ..

على أن التفسير الاعلامي للسيرة العطرة ، يواجه صعوبات خاصة ، ترجع إلى أن المواقف التاريخية تكون على النقيض من المواقف التي لا يمكن التحكم فيها بصورة صناعية كما يحدث في احدى العمليات أو أحد المختبرات الكيميائية — ذلك أن المواقف التاريخية « لا تكرر نفسها بالضبط تماماً بحيث تسمح بصياغة قوانين وصفية دقيقة يمكن بدلالتها تفسير أثر ما ، والتكهن به في ثقة تامة . فمن المحال علينا أن نعاين الاحداث التاريخية الماضية معاينة مباشرة ، ذلك أن ما قد حدث وما أدى الى حدوث تلك الاحداث لابد من استنتاجه من أشتات أدلة وشواهد جزئية لا يمكن الاعتماد عليها في كثير من الاحوال ، ومن المحال اجراء التجارب على السلوك البشري الشامل على أي نطاق واسع . أجل إن التجارب توضع موضع الاختبار كما يحدث في نظام جديد للحكم أو أسلوب جديد من الفن ، ولكن ذلك لا يكاد يتم بأية حال تحت ظروف مقننة ، تسمح بالتحليل الموضوعي للأسباب والنتائج بالمقارنة مع مجموعة ضابطة ، وأن ما تتسم به الأحداث الثقافية من تنوع هائل وتعقد جسيم يجعل من العسير تمييز ما فيها من تكرارات دقيقة . وتبدو الظاهرات الثقافية كأنما هي تغير سلوكها على الدوام ، ثم ان تغايرات مجهولة لا يمكن التنبؤ بها لا تفتأ على الدوام تقلب توقعاتنا رأساً على عقب .

ونظراً لقلة ما لدينا من القوانين المفسرة الكافية ذهب بعض أصحاب النظريات من العلماء إلى أن التفسير الكامل الوحيد لحادثة معينة هو الوصف الكامل لجميع الأحداث السابقة ، وهو أمر محال بطبيعة الحال ، وكثيراً ما حذرنا الفلاسفة من أن الحادثة أو الحالة لا يتم تفسيرها تماماً بمحض تعقب تكوينها ، وخاصة عن طريق تتبع سلسلة مساعدة من الأحداث المؤدية الى الحادثة أو الحالة الراهنة »(١٢) .

وإذا كان من المتفق عليه أن « **التفسيرات الكاملة والمؤكدة والنهائية** » مستحيلة في التاريخ كما هي مستحيلة في العلم والفلسفة ، **فإن التفسيرات « الجزئية والمؤقتة والاختيارية »** ليست بمستحيلة وهي أشق في نظريات التاريخ منها في العلوم الدقيقة ، ومن ثم وجب أن تكون متواضعة فيما تدعيه من دعاوى . ومع هذا القدر من التحذير تصبح الفروض التفسيرية ممكنة فيما يتعلق بالتاريخ الثقافي بما في ذلك تاريخ الفنون ، قدر ما هي ممكنة في المواطن الأخرى من العلوم الاختبارية ، حيث يمكن اختبارها شيئاً فشيئاً على ضوء المعطيات الاختبارية ثم تدعيمها أو اضعافها أو تصحيحها . ذلك أن تفسيراً صادقاً — وان يكن جزئياً — على حد تعبير توماس مونرو(١٣) — يعتبر خيراً من لا شيء ، إذا لم تعده خطأ أنه كل التفسير وأنه التفسير الضروري والوافي ، واذا هو لم يعطنا صورة كاذبة ومشوهة لتتابع الاحداث الكاملة . ترى ما هو التفسير ؟ وإلى إي حد يحتاج إلى ايضاح العلاقة العلية ؟

والاسلام في تجدده وتجديده وانطلاقه وامتداده ليس الا **تفسيراً حقيقياً** للطبيعة المتجددة والطبيعة الممتدة في الحياة ، فالله جل شأنه قد مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ، كما قال في محكم آياته . والله لم يجعل الليل سرمداً ، ولم يجعل النهار سرمداً ، ولكن جعلهما موصولين امتداداً وانطلاقاً إلى أبد الآبدين ، ولو وقف الكون عند نهار دائم وحسب ، أوليل دائم وحسب ، لكان ذلك جموداً لا تصح به الحياة ، ولا يصح عليه الاحياء (١٤)

## دعوة الإسلام إلى العلم ..

**والاسلام من طبيعته التجديد ، وليس من طبيعته الجمود** ، وآية ذلك دعوته الدائمة إلى العلم وحثه عليه وقد أعلى الاسلام من شأن العلم ، ولم يساو بين عالم وغير عالم ، لأنه يريد للناس والانسانية ان يتجددوا مع الحياة ، ولا يقفوا بها عند حد معين (١٥) .

ولعل ايراد بعض آيات من مادة ( **العلم** ) في القرآن ليساند هذه القضية فالقرآن يقول : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة : ١١) ويقول : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ (العنكبوت : ٤٩) ويقول : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ ( آل عمران : ١٨ )

ويقول : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ ﴾ ( البقرة ٢٤٧ ) ويقول : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر : ٩) فالعلم متغير ، متجدد ، قابل للتطور والارتقاء ، وليس كذلك العبادات . ومن هنا كانت دعوة الاسلام إلى العلم ، لأنها دعوة إلى التجديد في الحياة .



وليس المقصود بالعلم هنا هو علم الدين فقط كما فهمه بعض المسلمين ، وجاراهم فيه خبثاء المستشرقين والباحثين في الاسلام ، من أمثال ( **سيكار** ) الفرنسي الذي ملأ مجلة ( مراكس الكاثوليكية ) في الثلاثينيات من هذا القرن بادعاءات وطعون في الاسلام ، زعم فيها أن الاسلام **لم يدع إلى العلم بمفهومه العام ، ولكنه دعا إلى الدين ، وذلك ليجرد الاسلام من فضيلة الدعوة إلى العلم مطلقاً والحث عليه** .. ونسي المسكين الحديث النبوي : ( **اطلبوا العلم ولو في الصين** ) فلو كان العلم هنا دينياً ما دعا النبي إلى طلبه في الصين ، لان أهلها من عباد الاوثان .. وهذا الحديث مما رواه العقيلي ، وابن عدي ، والبيهقي وابن عبد البر عن أنس[16] .

والاسلام — في دعوته إلى التجديد والانطلاق في آفاق الكون ، والنظر في ملكوت السموات والأرض ، وعدم الجمود عند حد معين — لم يجر على سنن غريب عليه ، وليس منه .. فهو في ذاته مجدد مصلح منذ أن دعا النبي ﷺ إلى سبيل ربه .. وهو أبو التجديد ورائده .. خاصة في شؤون التشريع ، فقد أتى على نظم الجاهلية وأدخل عليها من التجديد والاصلاح ما جعله حرياً بأن يوصف بالتجديد لا بالجمود .[17]

وإذا كان علماء الاعلام يذهبون — ونحن معهم — إلى أن الانسان كان يعيش خبرته الكلية المتكاملة الشاملة قبل ظهور اللغة الحديثة بحروفها الصوتية وبعد ظهورها تفجرت الانطباعات الكلية والمدركات للأشياء إلى أجزاء مجردة ، فإن السيرة النبوية في نشأتها قد ارتبطت **بالحضارة السمعية** واتخذت مظهر الرواية والتلقين ، وكان الخليفة الأموي **عبد الملك ابن مروان ، والوليد بن عبد الملك يوجهان** أسئلة تاريخية إلى الراوية المؤرخ « **عروة بن الزبير** » الذي كان يجيب عنها وخاصة ما يتصل بالسيرة النبوية من أحاديث جمعها . وبلغ من اهتمام الخليفة الاموي العادل **عمر بن عبد العزيز** بالسيرة أنه أمر الراوية : **عاصم بن عمر بن قتادة وهو** أنصاري من المدينة — أن يجلس في مسجد دمشق ليحدث الناس بالمغازي والسيرة النبوية ومناقب الصحابة ، وقد توفي هذا الراوية في سنة ١٢٠ هـ . أو ١٢٩ هـ . وتتسم الحضارة السمعية « بالتكرار » و « الاعادة ».

## الشـــعر كوسيلة إعلاميـــــــــــة ..

وكانت **القصيدة** أول ما عرفه **العرب وغير العرب من وسائل الاعلام** ، وكانت الاداة الوحيدة للتعبير عن رأي القبيلة في العصر الجاهلي ، فلما جاء الاسلام أدت قصائد الشاعر الاسلامي ( **حسان بن ثابت** ) دورها في مناصرة صاحب الدعوة . ثم في عصر بني أمية وجد ما يسمى **بالشعر السياسي** ، وعلى الشعراء السياسين من أمثال **جرير والفرزدق والاخطل والراعي وذي الرمة** اعتمد خلفاء بني أمية في كثير من قضاياهم السياسية . ثم في العصر العباسي ظهرت عصبية من نوع آخر . **اسمها « الشعوبية »** وحلت محل العصبية القبلية . كما ظهرت في العصر العباسي عصبيات من نوع ثالث هى العصبيات المذهبية[18] .

ثم في عهود الخلافة الفاطمية والسلطنة الأيوبية وعهد المماليك — وهي العهود التي شهدت **الحروب الصليبية كان** للشعر المكان الأول **في ميادين الاعلام والدعاية . وبالشعر كما بالسيف — كوسائل مادية — نجح الفاطميون في مصر . وبالشعر كما بالسيف نجح صلاح الدين واولاده في محاربة الصليبيين وفي التغلب عليهم وطردهم من البلاد الاسلامية .**
وبقيت للقصيدة الشعرية مكانتها ووظيفتها السياسية والاجتماعية والاعلامية والدعائية إلى يومنا هذا ، ففي كل حادث هام أو موقف من المواقف السياسية أو الاجتماعية الخطيرة نسمع صوت الشاعر إلى جانب صوت الصحفي[19] .

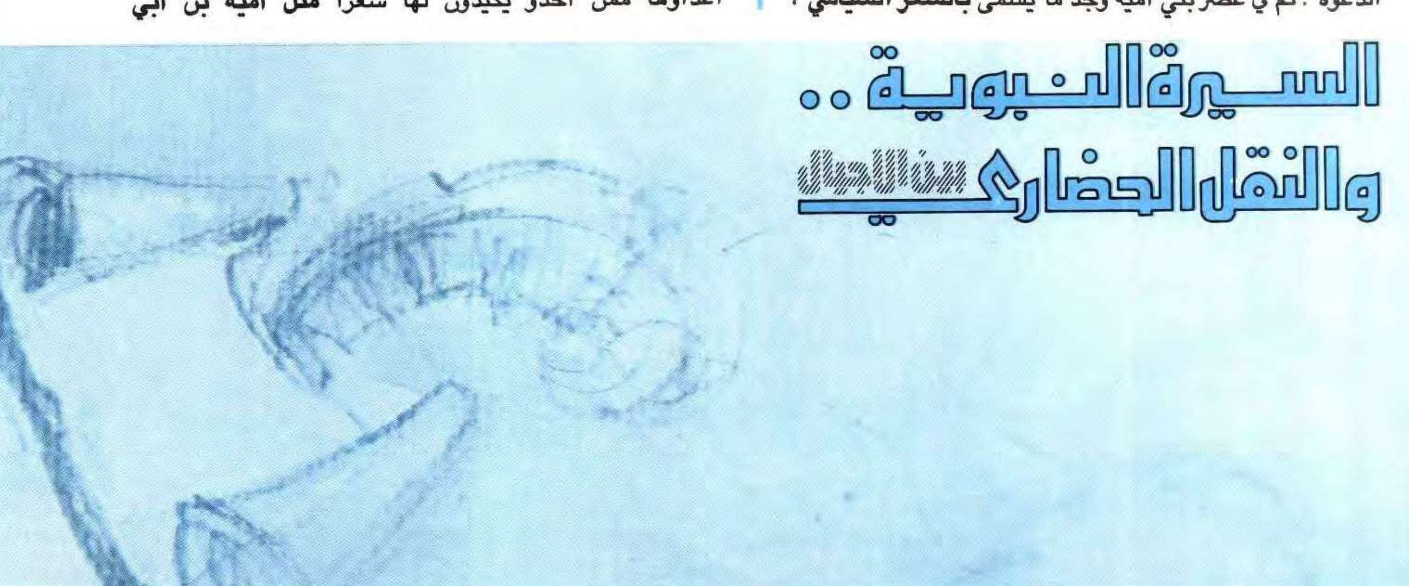
ولقد كان لقصيدة حسان بن ثابت أثرها في اعتراف « تميم » بأن محمداً عليه الصلاة والسلام موحى إليه ، بهذا الدين الذي يدعو إليه .

والحق أن حسان كان آية من الآيات أيد الله بها رسوله ﷺ فقد كان المشركون أهل لسن وفخر وهجاء ، وقد حاربوا الرسول بهذا السلاح ، فكان لابد له أن يعد لهم شاعراً سليط اللسان قوي البيان سريع العارضة ، وقد كان لمعسكر المسلمين شعراؤه ولابد أن يكون الكثير منهم قد تطلع لهذا الشرف السامي ، ولكن الرسول — عليه الصلاة والسلام — بثاقب نظره ، ندب **حسان لهذا الثغر من ثغور الدعوة** ، فحسان أنصاري ، والانصار قد نصروا رسول الله بسيوفهم ، فهم أجدر أن ينصروه بألسنتهم ، وهو من بني النجار — ذؤابة الخزرج — وهو شاعر ناضج معروف المكانة ، وقد كمل رسول الله ﷺ ناحية النقص في عدته الهجائية ، فعهد إلى أبي بكر رضي الله عنه أن يحدثه حديث القوم وأيامهم وأحسابهم وقد ظهر أثر ذلك كله في شعر حسان ظهوراً لم يخف على فطانة قريش ، فقالت بعد سماع شعر حسان : « هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبي قحافة » .

وقد سر النبي ﷺ لهذا التوفيق الذي أصاب شاعره ، فكان يستنشده ويطيل الاستماع إليه ثم يقول : « **لهذا أشد عليهم من وقع النبل** » وروي أنه قال : « أمرت **عبد الله بن رواحة** فقال وأحسن ، وأمرت **كعب بن مالك** فقال وأحسن ، وأمرت **حسان ابن ثابت** فشفى وأشفى »[20]

وواضح من المواقف التي وقفها حسان وأمثاله ، انه كما كان للدعوة شعراؤها المؤمنون بها المنافحون عنها ، فلقد كان كذلك لها اعداؤها ممن أخذو يكيدون لها شعراً **مثل امية بن أبي**

# السـيرة النـبويـة .. والنقل الحضاري بين الأجيال



الصلت ، وكعب بن الأشرف وعبد الله بن الزبعرى والحارث ابن هشام ، وغيرهم .

وإذا كان لهؤلاء ، وأولئك مواقفهم الشعرية بعد فتح مكة ، فقد كان لهم كذلك مواقفهم قبل الفتح .

ففي وقعة بدر الكبرى — مثلا — حيث كان نصر المسلمين رائعاً مؤزراً يقول حسان بن ثابت :

| | |
|---|---|
| سرنا ، وساروا إلى بدر لحينهم | لو يعلمون يقين العلم ما ساروا[21] |
| دلاهم بغرور ثم اسلمهم | ان الخبيث لمن والاه غرار[22] |
| وقال : اني لكم جار فاوردهم | شر الموارد فيه الخزي والعار |

ويمضي شعر المسلمين يسجل على قريش بغيها وبطرها الذي سجله القرآن من قبل ، فقال كعب بن مالك :

| | |
|---|---|
| عجبت لأمر الله والله قادر | على ما اراد ، ليس لله قاهر |
| قضى يوم بدر ان نلاقي معشرا | بغوا ، وسبيل البغي بالناس جائر |
| وقد حشدوا واستنفروا من يليهم | من الناس ، حتى جمعهم متكاثر |

وينهض شاعر يهودي قد ملأ قلبه غيظاً وحقداً على محمد ﷺ ودعوته ، وقد راى في موقعة بدر نذير سوء عليه وعلى قومه وعلى دياره في يثرب وما حولها فيذهب إلى مكة مستنهضاً قريشاً مستثيراً رجالها لياخذوا بثارات قتلاهم في بدر فيقول :

| | |
|---|---|
| طحنت رحى بدر لمصرع اهله | ولمثل بدر تستهل وتدمع |
| قتلت سراة الناس حول حياضهم | لا تبعدوا إن الملوك تصرع |
| نبئت ان الحارث بن هشامهم | في الناس يبني الصالحات ويجمع |
| ليزور يثرب بالجموع وإنما | يحمي على الحسب الكريم الأروع |

ومهما كان القول من جانب شعراء المشركين فقد كان لواء الشعر معقوداً على حسان ، حيث كان يضرب بشعره في مقاتل قريش ، ويحشد كل امكانياته البيانية في اطار ايمانه المنيع العميق وحبه للرسول ﷺ .

ويبدو أن حسان قد غطى كل أحداث عصر الرسول ﷺ بشعره بجانب ما نظم من مناقضات يرد بها على شعراء المشركين ، كما فعل في رده على ابن الزبعرى أو الأعشى بن زرارة التيمي حليف بني نوفل بن عبد مناف ، فقد كان كلاهما يبكي على بدر ، ويتحسر على مقتل كبار رجالات قريش[23] .

ويمكن القول : إن الشعر على ألسنة الشعراء المنافحين عن العقيدة ، كحسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك ، كان مكسواً ثوب الايمان ، ملتزماً المعاني الاسلامية ، طالما كان في التزامها مزيد من القوة للدفاع عن الدعوة ، جانحاً عنها إلى اسلوب الشعر الجاهلي متى كان في ذلك فائدة للدعوة أيضاً[24] ، وبعبارة أخرى ، كان الشعر يلتزم المعاني التي تؤذي نفوس قريش بالحديث عن الانساب والوقائع والأيام والمآثر ، وهو السلاح الذي ينفع مع قريش ، ذلك أنها لم تكن تحفل بوصمها بالشرك والكفر وعبادة الاوثان ، لأن ذلك كان مصدراً لفخرهم والاعتزاز بدين آبائهم فكان طبيعياً أن يهجوهم حسان وكعب بما يؤذي نفوسهم[25] .

على أن التفسير الاعلامي للأدب بوجه عام ، وللسيرة النبوية بوجه خاص ، ينظر إلى الأدب الشعبي ، في الحضارة السمعية — نظرة خاصة ، ذلك ان الأدب الشعبي ليس بالضرورة أدب لهجات دارجة ، وأن النسبة إلى الشعب هو الفيصل في التفريق بين ما هو شعبي وما هو غير شعبي ، فإن في الآثار الفصيحة ما يمكن أن يكون شعبياً ، وفي الآثار التي تتوصل باللهجات الدارجة مالا يستطيع باحث أن يضعه في دائرة الأدب الشعبي .

ذلك أن الأدب الشعبي في الحضارة السمعية يرتبط بفن « المحدث » المحترف فإذا كان الأدب المسرحي يقوم على التمثيل ويستمد حياته من حرفة المسرح ، والنظارة ، فإن القصص الشعبي يعتمد على الشاعر أو المحدث وجمهور المستمعين إليه ، ولعل أثر هؤلاء المستمعين في القصص الشعبي أعظم من أثر النظارة في الأدب المسرحي . فالتفاعل بين القصاص ، شاعراً أو محدثاً ، وبين جمهوره بالغ القوة . فهم يستطيعون حمله على الاطناب أو الإيجاز أو حتى على الحذف والتبديل في نص القصة ، يساعدهم على ذلك ، أن التقاليد ليست نصاً مكتوباً ذائعاً كبقية النصوص الأدبية ، وانما هي بطبيعتها شفوية يتلقاها القصاص عن شيخه وهكذا . وهذا التسلسل الشفوي من راوية إلى آخر ، يجعل القصص عرضة من هذه الناحية إلى الحذف والتغيير[26] .

وتفسير ذلك اعلامياً أن فن المحدث المحترف ينتظمه الاتصال الجمعي ، الذي يقوم على أساس من التفاعل المتبادل بين المُرسِل والمستقبل ، ومعنى ذلك أن فن المحدث المحترف نمط اتصالي مزدوج الاتجاه ، فيه أخذ ورد ، وإرسال واستقبال .

وقد ظهر المحدث المحترف ، في الاحتفال بذكرى المولد النبوي ، وان كنا لا نعرف أول من ألف في الموالد ، الا ان من اقدم ما عرفنا من هذا النوع كتاب « العروس » وهو مولد ألفه ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ ورسالة ابن جابر الأندلسي المتوفى سنة ٧٨٠ ، ورسالة الرعيني الغرناطي المتوفى سنة ٧٧٩[27] .

وفي دار الكتب المصرية نحو أربعين مولداً ألفت في عصور مختلفة ، « ولو استقصينا لعرفنا أن هذا النوع من التأليف كثر جداً : فلكل طريقة مولد ، بل لكل شيخ مولد ، وهي جميعا تتشابه في الغرض والاسلوب . على أن أكثر الموالد نظم في نثره نظماً غنائياً ليصلح للترتيل والتغني والانشاد ، ولم يرج بين الجمهور إلا الموالد التي روعي فيها نظام الفواصل المسجوعة التي تجري مجرى القصيدة ، في التزام القافية .[28] .

وهذا من آثار الحضارة السمعية ، التي أضافت إلى هذه المنظومات النثرية منظومات شعرية ينشدها المنشدون بعد كل



وصلة ، والوصلة تختم بدعاء مكرر ، كأن يقول المنادي :

**اللهم عطّر قبره بالتعظيم والتحية .**
**واغفـــــــــر لنا ذنوبنــا والآثــام**

وتلك المنظومات الشعرية ــ كما يقول الدكتور **زكي مبارك** ــ « ساذجة في ألفاظها ومعانيها فهي ليست من الأدب الفحل ، ولكن قيمتها ترجع إلى عمق أثرها في البيئات الشعبية »[٢٩] .

ولهذه المنظومات آداب وتقاليد رسمتها الحضارة السمعية ، فالمحدث يجلس على منصة عالية تجعله يشرف على مستمعيه ، ويجعل هؤلاء المستمعين يستطيعون رؤيته من غير عائق .. ويسترسل في حديثه وهو جالس ــ فإذا أراد إنشاد الشعر ، وقف واستعان عليه بالربابة ، وهي الآلة المعروفة « واحدة الوتر »[٣٠] .

ويصطنع المحدث شيئاً من التمثيل في بعض الاحيان ، فيحاكى مختلف اللهجات وبهذا تباين السيرة الخطابة ، وتقترب من التمثيل في الشكل والموضوع ، بيد أن التمثيل يعتمد على العين والاذن معاً ، والسيرة جل اعتمادها على الاذن[٣١] . كنتيجة لارتباطها بالحضارة السمعية وفي تقديرنا **أن السيرة النبوية في الحضارة السمعية ، شأنها في سائر الحضارات الأخرى ، ترتبط بتصوير الشعب العربي الاسلامي ، لوجدانه ، وتعبيره عن ذاتية العامة .**

وظهور الشاعر الشعبي ، وازدهار صناعته في مجتمع من المجتمعات ، **يعني أن الحضارة السمعية لم تنته باقبال الحضارة التدوينية ، ذلك أن التدوين بطبيعته له جمهور محدود ، هو الذي** يعرف القراءة والكتابة ، ومن هنا يجيء ظهور الشاعر الشعبي احتجاجا على قصور حضارة التدوين ، وتقصيرها في الاتصال بالجماهير ، ونحن نعلم مما سطرته كتب التاريخ والادب والتراجم ، ومما ذكره الجوابون ( الرحالة ) من شرقيين وغربيين ومما سجله المستشرقون من صدور الحفاظ وأهل هذه الحرفة ، أن الشاعر الشعبي كان عالي الصوت في المجتمع المصري في تلك القرون السالفة ، وأنه ظل يجوب المدن والقرى في الأعياد والمواسم والاحتفالات العامة بعد الاحتلال الانجليزي الذي رآه الوجدان الشعبي المصري امتداداً لحكم غير المصريين ، أو بعبارة أخرى كانت مألوفة في القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، لحكم غير « أولاد العرب »[٣٢] !

ولقد التمس الشعب المصري ــ مثلاً ــ عصر البطولة في سير فرسان العرب ، ولكنه وجد ذاته في السيرة النبوية العطرة ، التي نقلت إلى الجماهير شيئاً من اخبار الغزوات ، وحدثتهم عن أشياء كثيرة من شمائل الرسول عليه الصلاة والسلام .

### الحواشي

١ ــ د . عبد الحميد يونس : مجتمعنا ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ٢٧ .

٢ ــ د . محمد زغلول سلام : القومية العربية في الأدب الحديث ( القاهرة ، دار المعارف ــ ١٩٥٩ ) ص٣٣ .

٣ ــ المرجع نفسه ، ص ٣٢

٤ ــ Torhune, K. From : National Character to National Beghavior, A. Rofornulation, the Journal of Conflict Resolution, Vol. XIV, No. 2, June, 1970, 203—263

٥ ــ الامام محمد ابو زهره ، خاتم النبين ﷺ ، ( القاهرة دار الفكر العربي ) ص ١٨٢ .

٦ ــ المرجع نفسه ، ص ١٨٢ .

٧ ــ د . مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعي ، ( القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٥ ) ، ص٦٠

٨ ــ السيد يسن ، الشخصية العربية بين المفهوم الاسرائيلي والمفهوم العربي ، القاهرة . مطابع الأهرام التجارية ١٩٧٤ ) ص ٥٠ .

٩ ــ المرجع نفسه ، ص ٥١ .

١٠ ــ G. H. Mead, Self and Society, university of Chicago Press, 1945, pp. 290

١١ ــ د . احمد ابو زيد : « الاتصال في عالم الفكر » ــ الكويت ١٩٨٠ ، ص ٨

١٢ ــ عن المقالات النقدية التي تبحث في « المنهج » في تخيل الاشياء في صورة تاريخية ، بقلم سدنى هوك وغيره ، انظر ما كتبه . جـ . واندال ( الطبيعة والبشرية والتاريخية )
Nature and History Theories of Histoy

( كولومبنا ، نيويورك ، ١٩٥٨ ) ص ٦٤ جـ . وانظر كتاب « نظريات التاريخ لباتريك جاردنر ــ في توماس مونرو : ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد وآخرين ، التطور في الفنون جـ ٣ ، ص ١٨٨ ، ومابعدها .

١٣ ــ توماس مونرو : المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

١٤ ــ د . محمد عبد المنعم خفاجي : الاسلام والتجديد ، الهلال عدد يناير ١٩٨٠ ص ٤١

١٥ ــ المرجع نفسه ، ص ٤٢

١٦ ــ المرجع نفسه ، ص ٤٣

١٧ ــ المرجع نفسه ، ص ٤٣

١٨ ــ د . عبد اللطيف حمزه : الاعلام والدعاية ، ( بغداد : مطبعة المعارف ، ١٩٦٨ ) ص ٧٩

١٩ ــ المرجع نفسه ، ص ٧٩

٢٠ ــ راجع : دراسات في الأدب الاسلامي للأستاذ محمد خلف الله احمد ص ٣٥ ، نسمات من عبير الأدب للدكتور محمد سرحان ص ١٠٤ ط ٠٢

٢١ ــ الحين : الهلاك

٢٢ ــ دلاهم بغرور : أي أن الشيطان خدعهم وغرهم وزين لهم محاربة المسلمين فاسلمهم للهلاك راجع : د . محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الادبية في عصر صدر الاسلام ، ( بيروت ، دار الكتاب اللبناني ) .

٢٣ ــ المرجع نفسه ، ص ٤٧

٢٤ ــ تاريخ الشعر السياسي للاستاذ احمد الشايب ، الأدب في موكب الحضارة الاسلامية . مصطفى الشكعة ، د . خفاجى : المرجع السابق ، ص ٥٧

٢٥ ــ التطور والتجديد في الشعر الاموي ، ص١٦ د . شوقي ضيف ، الأدب في موكب الحضارة الاسلامية ص ٦٣ .

٢٦ ــ د . عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في الأدب الشعبي ، ص ٣١ .

٢٧ ــ د . زكي مبارك : المدائح النبوية ، ص ٢٦٥

٢٨ ــ المرجع نفسه ، ص ٢٦٦

٢٩ ــ المرجع نفسه ، ص ٢٦٩

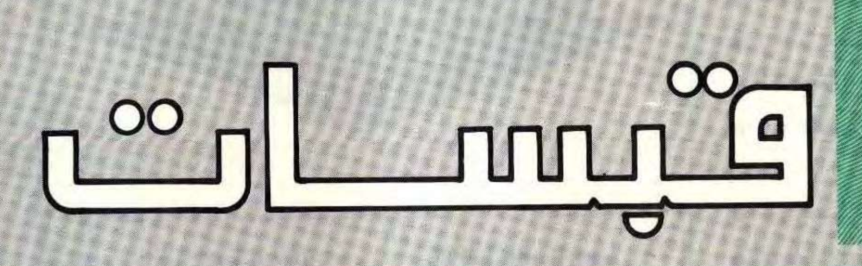
٣٠ ــ د . عبد الحميد يونس : المرجع السابق : ص ٣٣

٣١ ــ المرجع نفسه ، ص ٣٥

٣٢ ــ المرجع نفسه ، ص ٢٧ .

# السيرة النبوية .. والنقل الحضاري بين الأجيال




□□ إن الجهود والإمكانات والدعوات إلى النهوض بالأمة المسلمة إذا لم تتوفر لها الشروط الفنية اللازمة من الحسابات الدقيقة، والإدراك الواعي، والاختبارات الدائمة، والبصارة النافذة للواقع وكيفية التعامل معه لتحقيق الأهداف ... سوف تنقلب إلى جهود ضائعة، وإمكانات مبعثرة، وحركات غير مجدية تساهم بشكل أو بآخر في تكريس تخلف المجتمع، وتجديد أخطائه، وتبديد طاقاته، وتضييع أجياله، والدوران في حلقة مفرغة ـ وإن ترافق ذلك مع سلامة النية والإخلاص، والمزيد من الحماس والتوثب الروحي، في كثير من الأحيان ـ إنه الإخلاص السلبي الذي لا يفتح البصيرةَ ولا يحقق ملكة الفرقان، ولا تدرك أبعاده ومستلزماته فينقلب إلى مهرب وجداني، وقد يحقق لصاحبه سعادة ومتعة ذاتية تبقى حسيرة وعاجزة عن المساهمة بأي تغيير وأي نهوض بالأمة المسلمة، أو أي شحذ لفاعليتها وحل لمشكلاتها المتراكمة التي تطاول عليها الزمن وهي تنتظر المنقذ الذي يهبط عليها ليملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً وظلماً، وبذلك توقع لنفسها وثيقة الإعفاء من المسؤولية التي تعتبر الحافز والشرط الضروري للفعل الحضاري، والهاجس الدائم الذي يدفع إلى استكناه حقيقة التغيير وامتلاك وسائله، ومن ثم تحقق البعث الحضاري الإسلامي المنشود ... □□

وما نظن أحداً يقدر على الإنكار بأن الأمة المسلمة اليوم تمتلك من الطاقات والإمكانات، ما قد يفيض عن احتياجها، لكن الذي تفتقده: القدرات المختصة والشروط الفنية لتوظيف هذه الطاقات والإمكانات وحملها لتصب في مسارها الصحيح والسليم، إننا ـ من بعض الوجوه ـ كالأطفال الذين تمتلىء جيوبهم بالمال ولكنهم يفتقدون القدرة العملية والعقلية الراشدة لتوظيفه، وكالجاهل الذي يمتلك القنبلة، كسلاح فعَّال، لكنه لا يدري أي شيء عن شروط استعمالها، ولا عن المدى الذي يمكن أن تحققه، ولا العدو الذي يجب أن توجه إليه، إنه والحالة هذه قد يكون أقرب إلى تدمير نفسه من تدمير عدوه، ذلك أنه مالك للطاقة، لكنه فاقد للشروط الفنية في توظيفها واستخدامها ...

ومن الضياع والضلال أن نعتقد أن سبب هذا الضياع والضلال تتحكم به كله أسباب خارجة عن الذات المسلمة، ونظل نلقي بالتبعة على الماسونية والصهيونية والصليبية والإلحاد لنعفي أنفسنا من المسؤولية عن قضايانا، ونتهرب منها بطفولة محزنة،

ذلك أن الشجرة ذات الجذور الضاربة في الأرض، القوية في ذاتها لا تقتلعها الرياح، ولا تجتثها العواصف، إن استمرارية العداوة لهذا الدين لم تتوقف تاريخياً، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ( البقرة: ٢١٧ ) لكنها تختلف في تأثيرها بحسب قوة المسلمين الذاتية أو ضعفهم، وغفلتهم أو صحوتهم، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ... ﴾ ( النساء: ٧١ ) وقال تعالى: ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ... ﴾ ( النساء: ١٠٢ ).

والأمر الخطير في الموضوع اليوم أن الامة المسلمة التي ورثت النبوة ورحلة النبوة وتجربة النبوة من لدن آدم عليه الصلاة والسلام تعيش خارج نطاق كتابها الذي قص عليها وحمل إليها رصيد التجربة البشرية من عوامل قيام الأمم ونهوضها، وسبب دمارها وانقراضها، وكان نداؤه الخالد لها: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ ( الحشر: ٢ ) ففقدت الاعتبار وأصيبت بعطالة الإبصار وعدم إدراك البصائر؛ وتعيش خارج سيرة نبيها ﷺ، وتعجز عن تعدية الرؤية وتحقيق العبرة، ولم يبق لها من تاريخها نصيب إلَّا بما يحقق لها من طرب بسبب عظمة يعجز الوريث أن يتلمس أسبابها ...

إن التاريخ في مثل حالنا الذي نحن عليه يصبح عبئاً على الإنسان الكَلِّ بدل أن يكون حادياً وهادياً للإنسان العدل ..

# ١ من موقع القدوة

عمر عبيد حسنه

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ( النحل : ٧٦ ) .

ومن الأمور التي أصبحت حقيقة لا مراء فيها أن نهضة أي مجتمع متخلف لا يمكن أن تتم إلَّا من خلال الظروف والشروط العامة التي تم فيها ميلاده ، وهذا يعني أن أية محاولة للنهوض وإعادة بناء المجتمع الإسلامي الجديد لا يمكن أن تتحقق بالقفز من فوق الشروط الفنية والظروف العامة والبنية الأساسية التي تشكلت خلالها الفكرة الإسلامية والتجربة التأسيسية للمجتمع الإسلامي الأول .

**إن مجتمع الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام هو وحده محل القدوة لمجتمع العودة بعد الانسلاخ عن الإسلام ؛ ولقد أدرك الإمام مالك رضي الله عنه هذه الحقيقة عندما قررها في القرن الثاني للهجرة وقد بدأ يلمح نذر التراجع ، بقوله : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلَّا بما صلح به أولها » .**

إن هذا القول ـ فيما نحسب والله أعلم ـ لا يعني بحال من الأحوال الاقتصار على استحضار القيم والمبادىء والتحقيق في صحتها ونقلها من جيل إلى جيل فقط ، وإغفال الشروط العامة والظروف التي رافقتها وكيفية التعامل معها ، وأصول الدعوة ووضوح أهدافها وفقه مراحلها ؛ إن استحضار القيم لتصبح شعارات ترفع بالمناسبات وتعلن على المنابر ، وتردد بالاحتفالات ، وإن إغفال الظروف والشروط العامة والمناخات التي ترجمتها إلى قيم فاعلة ، وعدم رسم طريق العودة ومراحله بدقة وتدرج يعني مزيداً من الارتكاس والتعثر ، ولا نظن أن أحداً من المسلمين اليوم بات ينكر صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، وخلود الإسلام وصدق مبادئه وقدرته على استئناف حضارة إنسانية وسعادة بشرية ، إلى آخر هذه التعميمات التي أصبحت أقرب إلى المسلمات ومع ذلك لم يتبدل معها الواقع ، إنها شعارات محفوظة ومصدقة من كل المسلمين .

لقد تجاوزت الأمة المسلمة اليوم مرحلة الاقتناع بمصداقية الإسلام وضرورة العودة إليه ، وأصبح المطلوب البحث عن كيفية تطبيق مبادئه ، وتنزيل شرائعه على واقع الناس ، وتجسيد قيمه في حياتهم . وهذا لن يتأتى ما لم نعد إلى الاقتباس من المجتمع الأول . فكيف نخترق الحواجز القائمة ونحدد مراحل رحلة العودة لاستئناف الحياة الإسلامية التي بشرنا بها الخطباء والوعاظ والمتحدثون ؟ وما هي المداخل الحقيقية لشحذ فاعلية الأمة من جديد وتبصيرها بمراحل طريقها ؟ ولا نعني بذلك مزيداً من التوثب الروحي والحماس الملتهب ـ كما أسلفنا ـ والذي قد يكون أفقدنا ـ في كثير من الأحيان ـ الرؤية المتوازنة والحسابات الدقيقة ، ووظف من قبل أعداء الإسلام لتصفية حساباتهم ونحن ما نزال نظن أننا نحسن بذلك صنعاً ؛ ولعلّ في حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه زياد بن لبيد دلالة على ما نحن بصدده :

أخرج الإمام أحمد رحمه الله في مسنده ، وابن ماجه بإسناد صحيح من حديث زياد بن لبيد ، قال : ذكر النبي ﷺ شيئاً ، فقال : « وذلك عند ذهاب العلم » قال : قلنا : يا رسول الله ، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقرئه أبناءنا ، وأبناؤنا يُقرِئُونَه أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ فقال : « ثكلتك أمّك يا زياد ، إنْ كنتُ لأراك من أفقه رجل بالمدينة ، أوليس هذه اليهود والنصارىٰ يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون منهما بشيء ؟! » .

**إن ذهاب العلم والدراية والفقه ، وافتقاد ملكة الفرقان ، وغياب الروح الفاعلة ، وعدم إدراك شروط وظروف مجتمع النبوة ، لا يجدي معه استحضار القيم وحفظ النصوص وتحفيظها وانتقالها من الآباء إلى الأبناء والأحفاد !! لقد حذَّرنا الله تعالى من السقوط في علل اليهود والنصارىٰ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ( الجمعة : ٥ ) إنه حمل القيم ونقلها والعجز عن تمثلها ...**

لقد كانت رحلتنا شاقة أدمت أقدامنا ، وسَيَّرتنا في دروب مظلمة ، وشعاب وعرة عندما جرينا وراء التغريبيين ، وظننَّا أن نهضة مجتمعنا الإسلامي ، أو تأسيس نهضة ، يمكن أن يتم




# قبسات

بقيامه على أصول غريبة بعيداً عن الظروف والشروط التي رافقت ميلاد المجتمع الإسلامي الأول ، وكَلَونٍ من الافتتان بالغالب ومحاكاته ، حاولنا تأسيس نهضتنا على الأصول الغريبة الغربية فازددنا سقوطاً بتتبع سنن الأمم الأخرى والعدول عن سنننا ، فأضعنا النهضة وأضعنا الأصول جميعاً ... قال رسول الله ﷺ : « لتتبعنَّ سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

من هنا فنحن مدعوون دائماً للعودة للتأسي والاقتباس من المرحلة التاريخية التي تم فيها ميلاد المجتمع الإسلامي الأول - مرحلة السيرة - وإدامة النظر في الظروف والمراحل والشروط التي تم فيها ذلك الميلاد ؛ لنؤسس على ذلك نهوض مجتمعنا من جديد ... إن تحول سيرة الرسول ﷺ عند كثير منا إلى مناسبات وأعياد واحتفالات ومواسم وموالد تنسج حولها الخرافة ، وتمجد فيها البدعة ، وتهزم معها الحقيقة ، وتغيب عنها السيرة الصحيحة وتوليد العزمة الصادقة مؤشر واضح على الهبوط والانحدار ؛ وقد لا تختلف موالدنا الحديثة ( من اجتماعات ومناسبات واحتفالات ) عن تلك الموالد الخرافية الشعبية من حيث الأثر والنتيجة .

من هنا نقول ، ونحن على أبواب شهر ربيع الأنور : إن المطلوب من المسلمين الآن أكثر من أي وقت مضى ، إدامة النظر في السيرة العملية ، والقَبْس من مواقع الاقتداء حيث البيان الميداني التطبيقي لِتَنَزُّلِ آيات القرآن على واقع الناس .

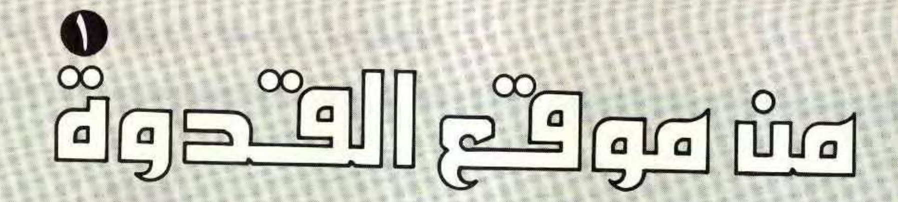
**لا بد من تحديد الظروف والشروط والمراحل والخطوات التي تمت فيها ولادة المجتمع الإسلامي الأول ليكون ذلك أنموذجاً لا بديل عنه للنهوض والارتقاء ؛ ولا نريد بذلك مزيداً من الكتب التي تسرد علينا السيرة النبوية ، كمرحلة تاريخية من مراحل تاريخ الأمة المسلمة ، أو مزيداً من الموالد الشعبية أو الرسمية والاحتفالات ، وإنما الذي نعني بإدامة النظر : الدراسة التحليلية التي نستطيع من خلالها أن نمتلك الرؤية الإسلامية الشاملة العملية الميدانية التي تكسبنا القدرة على إنزال النصوص والقيم الإسلامية على واقع الناس ؛ الدراسة التي نمتلك من خلالها الوقوف على منهج أصول الدعوة الإسلامية في العصر الحالي وفقه مراحلها وأهدافها ومقاصدها العامة ؛ لتكون ضوابط للسلوك ، وكوابح لردود الأفعال ، فلا تغيب الأهداف ولا تُفْتَقَد الحِكَمُ من خلال دفقات الحماس ، واهتياج العواطف ، وضغوط الصور غير الإسلامية على أعصابنا وعدم الإغراق في النظرات المثالية إلى مجتمع الميلاد الأول .**

إنه مجتمع البشر الذين يخطئون ويصيبون ويحملون معهم بعض أمراض مجتمعاتهم الجاهلية السابقة عن الإسلام ، ذلك أن النظرة المثالية التي انتهى إليها وأكدها بعض الدارسين أصبحت من العوائق والمثبطات ... من هنا نقول : إن ميلاد المجتمع الأول هو قدوة مجتمع النهوض .

إن النظرة إلى السيرة عند بعض دارسينا ومؤلفينا لا تخرج عن كونها مرحلة تاريخية تسرد حوادثها بالصورة ، وبالطريقة نفسها ، والنتائج نفسها التي تحكم الفترات التاريخية كلها في حياة الأمة ، وعند بعضهم الآخر لا ينظر إليها إلَّا من خلال ما يمكن أن يستنبط منها من فقه تشريعي ، حتى جاءت بعض المؤلفات تسرد حوادث السيرة ثم تُلحق ذلك بمجموعة أحكام فقهية مستنبطة .

إن هذه النظرة لم تقتصر على السيرة النبوية ، وإنما كانت النظرة نفسها إلى آيات القرآن الكريم ، فقد اقتصر بعضهم في ذلك على استنباط الأحكام الفقهية التشريعية ، أو ما سمي بآيات الأحكام التي أوصلها بعض العلماء إلى خمسمائة آية أو يزيد ، وكأن آيات الشورى والعدل والتربية ، وسنة انقراض الأمم وبناء الإنسان ، وسنن حكم الحياة والأحياء ليست هي مقصودة في التنزيل ، وعلى الرغم من الاستبحار العظيم والفائدة الكبيرة التي تحصلت من هذه الثروة الفقهية التشريعية ، إلَّا أن الجوانب الأخرى ليست أقل أهمية ، بل قد تأتي من الأهمية في المقام الأول ، إذ لا بد من بناء الإنسان القادر على فهم مناخه وتاريخه وعلاقاته الاجتماعية ، وسنن الحياة والأحياء ليكون بحق محلًا سليماً لتطبيق الأحكام ، فما قيمة تقرير الأحكام بغياب الإنسان ؟!

أما ما يمكن أن يتحصل من فقه حضاري يمكِّن من النظر في قيام الحضارات وسقوطها ، والعلل التي تتسلل إلى الأمم وتؤدي إلى




انقراضها ، وفقه الحركة التاريخية ودور الإنسان وفاعليته فيها ، والفقه السياسي والإداري والمالي ، والفقه الاجتماعي واكتشاف السنن والقوانين التي تحكم حركة المجتمعات البشرية ، فيكاد الإنسان لا يجد لها المساحة التي تتناسب مع أهميتها وخطورتها ...

من هنا تختلف السيرة - كمحضن اكتمل خلالها ميلاد المجتمع الإسلامي - عن التاريخ الإسلامي بشكل عام ، إنها مصدر للتشريع ومصدر لاستبانة أهداف الدعوة ووسائل العمل ، ومصدر للتربية والإعداد والمجاهدة والجهاد وكيفية التعامل مع الأعداء في الظروف والمناسبات ، ووسائل إيضاح ومعالم هدىً لا بد من استيعابها من حياة ومواجهات الداعية القدوة عليه الصلاة والسلام للمواقف المتنوعة والمختلفة من امتحانات النصر وامتحانات الهزيمة على حد سواء ، لأن الحياة ليست إلَّا مجموعة انتصارات ومجموعة هزائم ، والله تعالى يقول : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ( آل عمران : ١٤٠ ) وقد يكون مستغرباً إلى حد بعيد أن نقول : لا بد من إدامة الدراسة لإيضاح أهداف الدعوة ومقاصدها العامة بعد هذه القرون المتطاولة ، والعودة بين الحين والآخر لاختبار سلامة السير ومدى انطباقه على منهج أصول الدعوة ، وتحقيقه لأهدافها ، وانضباطه بمقاصدها ، والقضاء على الجنوح والخروج الذي يكمن في طبيعة البشر ، والخروج من صور التعميمات والضبابيات التي تساهم بالضياع أكثر من مساهمتها بتحديد الخطوة وتصويب السير ورسم طريق العودة بعد الاتفاق والاقتناع بضرورة هذه العودة ...

وليست السيرة مصدراً للفقه التشريعي فقط ، إنها مصدر للحياة الإسلامية والتعرف على الحلول المنضبطة برعاية الوحي وحراسة السماء .

أما التاريخ الإسلامي فلا يصل بحال من الأحوال إلى هذه الدرجة ، إنه محاولات بشرية تخطىء وتصيب ، إنه ساحة ومختبر للدروس والعبر وليس مصدراً للتشريع ...

ولا شك أن العناية بالسنة ، صحيحها وضعيفها ، صادقها ومكذوبها ، والتأصيل لعلم « مصطلح الحديث » وقواعد الجرح والتعديل حمل لنا الخير الكثير من الحفظ والاطمئنان لهذه الثروة الهائلة من النصوص الإسلامية والأحكام التشريعية ، وسلامة النص الديني من أي تحريف أو تعديل ؛ الأمر الذي افتقدته الأديان السماوية السابقة عن الإسلام .. لكن يبقى المطلوب أن تأخذ السيرة العملية القدر نفسه من الدراسة والفقه ، لأنها المحل الرئيس لفقه الحركة والسلوك .

إن علم « مصطلح الحديث » وكل القواعد والدراسات التي أوصلت إلينا السنة صحيحة ، كانت مقدمة لا بد منها ، لكن لا يجوز أن تنتهي المهمة عند ذلك الإثبات ، بل قد يكون هذا الإثبات وسيلة للوصول إلى الثمرات والأهداف التي من أجلها كان هذا الإثبات ؛ وهي صياغة السلوك الإسلامي وفق مقتضيات الشرع .

والوقاية من أمراض الأمم : المفاخرة بالتراث والعجز عن تمثله والإفادة منه ، والمفاخرة بالماضي والعجز عن إسقاطه على الواقع وإضاءته للمستقبل ، إنه الانتصار العاطفي الذي لا يسمن ولا يغني من جوع .

إن أصول الدعوة ووسائلها وأهدافها ومقاصدها وتحديد الفهم الصحيح لها مركوز في السيرة العملية ، فهي المعين الذي يمد الدعوة ويحصن الدعاة بدروس الصبر وضوابط الظفر والانتصار ، ولعل في توقف الرسل واستمرار الرسالة وخلودها معنىً واضحاً على استمرارية المعاني والعبر لتستوعب وتشمل كل المواجهات التاريخية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، إنها الحقائق المجردة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان ؛ وهذا يعني من بعض الوجوه : القدرة الإسلامية على تنزيل وإسقاط ذلك على الحركة التاريخية والتحكم بمسارها في كل زمان ومكان من خلال الرصيد الكبير من التجارب والدروس التي شهدها عصر الرسول ﷺ .

وسوف نعرض في العدد القادم - إن شاء الله - لبعض المواقف من السيرة العملية وحياة الأصحاب ، ونلقي عليها بعض الأضواء التي نرجو أن تكشف لنا شيئاً من الطريق ، وتحدد لنا بعض المعالم من خلال المعاناة والتعثر التي يعيشها مسلم اليوم ؛ ولله الأمر من قبل ومن بعد .




# قبسات

□□ أشرنا في العدد السابق إلى أنه من الأمور التي أصبحت حقيقة لا مراء فيها أن نهوض مجتمع المسلمين اليوم لا يمكن أن يتم إلَّا من خلال توفير الظروف والشروط العامة نفسها التي تم فيها ميلاده : وهذا يعني أن أية محاولة للبعث وإعادة بناء المجتمع الإسلامي الجديد لا يمكن أن تتحقق بتجاهل الشروط والظروف العامة والبنية الأساسية التي تشكلت من خلالها الفكرة الإسلامية والقاعدة التأسيسية للمجتمع الإسلامي الأول ، كما أن أية نهضة إسلامية لا يمكن أن تؤسس على أصول غريبة عنها ، وهذا يعني - ببساطة - أن فترة القدوة هي فترة السيرة فقط ابتداءً من الخطوة الأولى في غار حراء بقوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ( العلق : ١ ) حيث جعلت القراءة مفتاح الأمر كله ، وانتهاء بيوم الحج الأكبر ؛ حيث استقرت الأحكام واكتمل الدين بقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾ ( المائدة : ٣ ) والآية الأخيرة التي نزلت قبل انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بأيام : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ( البقرة : ٢٨١ ) ذلك أن هذا الرصيد الضخم من المبادىء والممارسات - التي تمت على عين الوحي وتسديده - لا بد لحراستها الدائبة وعدم الخروج عليها من التقوى واستشعار المسؤولية واستحضار البعد الإيماني □□

من هنا فنحن مدعوُّون دائماً للعزمة الصادقة في العودة إلى التأسي والاقتباس من المرحلة التاريخية التي تم فيها ميلاد المجتمع الإسلامي الأول - مرحلة السيرة - وإدامة النظر في الظروف والشروط التي تم فيها ذلك الميلاد ؛ لنؤسس على ذلك نهوض مجتمعنا من جديد ؛ ولن يتحقق لنا ذلك إلَّا بالدراسة التحليلية للسيرة النبوية التي نستطيع من خلالها أن نمتلك الرؤية الإسلامية الشاملة التي تكسبنا تعدية الرؤية ، والقدرة على الحكم على الأشياء المستجدة ، والتعامل مع الظروف المتبدلة ، وإنزال القيم الإسلامية على واقع الناس ، والوقوف على منهج أصول الدعوة الإسلامية ، وفقه مراحلها ، واستشعار أهدافها ، وتصور مقاصدها العامة لتكون دليل عمل ، وضابط سلوك وكوابح لردود الأفعال ، فلا تغيب الأهداف ، ولا تتعطل المقاصد ، ولا تُفْتَقَدُ الحِكَم من خلال دفقات الحماس ، واهتياج العواطف ، واستعجال النتائج ، وتجاهل سنن الله في التدرج والأجل ، والقراءة الخاطئة ، وضغوط الصور غير الإسلامية .

وهناك حقيقة لا بد من تأكيدها والتنبه إلى أهميتها ، وهي أن لهذه الفترة من حياة المسلمين - فترة السيرة - قدسيتها وعصمتها ، ذلك أن رعاية السماء كانت مستمرة ، وتسديد الوحي كان مرافقاً لكل خطوة وخلجة نفس ، وهذا لم يتأتَّ ولن يَتَأتَّى لأية مرحلة تاريخية أخرى من حياة الأمة المسلمة ، ذلك أن الممارسات الإسلامية والتطبيقات الإسلامية فيما وراء ذلك لا تخرج عن كونها محاولات بشرية محكوماً عليها بالخطأ والصواب من خلال ما توفق باقترابها وابتعادها من مرحلة السيرة ، مرحلة الاقتداء ، إنما تبقى تاريخاً يمد المسلمين بالدروس والعبر بعيداً عن التشريع ، وتحقق صور الاقتداء الذي يختص بهذه المرحلة دون غيرها ... وبذلك يتحقق لنا اللقاء على الأصول الجامعة ، ويتوقف الانتصار والتعصب لأية دولة أو جماعة سواء أكانت تاريخية أو معاصرة تختلف في تقويمها وجهات النظر .

من هنا نقول : إن إدامة النظر في الظروف والشروط التي رافقت ميلاد المجتمع الإسلامي الأول - مجتمع القدوة - يكسبنا القدرة على تعدية الرؤية والاهتداء بقبسها ، ويغني تصورنا بالكيفيات التي تمكننا من الحكم على الواقع ، ذلك أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، فإذا لم نتحقق بالتصور السليم للظروف والشروط والممارسات للفترة المعصومة التي تم فيها ميلاد المجتمع الأول ، فكيف يمكن لنا أن نحكم على واقعنا ونحاكمه على ضوء ذلك ؟! وهذا لا يعني بحالٍ القفز من فوق التاريخ الإسلامي أو التاريخ العام ، وعدم التبصر بالحركة التاريخية واستفادة الدروس والعبر من صواب وخطأ المحاولات البشرية...

إن السيرة النبوية مرحلة تشكل بالنسبة لنا أنموذج الاقتداء الوحيد الذي يجب أن يحتذى ، والمعالم ووسائل الإيضاح للاهتداء على ضوئها والسير بوحيها ، لذلك نقول : إن تلك القدسية لا يمكن أن تكون لأية فترة ماضية أو حاضرة أو

# من موقع القدوة

عمر عبيد حسنه

قرأت عند بعض من كتبوا في السيرة النبوية حديثاً ـ في محاولة لاستكناه المنهج الحركي للسيرة النبوية ـ محاولات لإسقاط أحداث السيرة على سير بعض الأشخاص والجماعات والانتصار لفهمها ومنهجها ، حيث يرى فيها حركة الأمة الإسلامية ، وعلى الرغم أنه لم يتح لنا بعد قراءة المؤلَّف كاملاً ، ولكن نقـــول هنا : أليس من الخطر مجرد التفكير بأن انتظام أي مسلم ـ كائناً من كان ـ اليوم في جماعة ـ كائنة من كانت ـ يقاس بخروج سيدنا حمزة رضي الله عنه من الكفر إلى الإيمان ، أو أن استشهاده رضي الله عنه الذي أخبر عنه المعصوم ﷺ بأنه سيد الشهداء يمكن أن يُسقط على أي إنسان لأي سبب مهما كان فضله وجهاده وعلمه وعطاؤه ، فالله أعلم به ، ونرجوا الله له ولغيره أن يكونوا من الشهداء الأبرار ؟! لكن ما أظن أنه يحق لمسلم ديناً أن يقول : الشهيد ، أو المغفور له ، أو المرحوم ، أو ما إلى ذلك ، وإنما سبيل المسلم الدعاء لموتى المسلمين ... فيقول : رحمه الله وغفر له ورزقه الشهادة في سبيله ... إلخ .

وقد يكون من الأمور الخطيرة أيضاً المسلك الانتقائي ، ومحاولة أخذ جزئية أو موقف من السيرة وقطعه عن سياقه وظروفه وشروطه وموقعه من الصورة الكليّة ، ومن ثم توظيفه وإسقاطه على حادثة أو قضية من القضايا المعاصرة ، وهذا فعل كثير من الذين أتقنوا صناعة المبررات « وفبركة » المُسَوِّغات من فقهاء وعلماء سلاطين الاستبداد السياسي والتحزب السياسي على حد سواء ، حيث يعمدون إلى كتب السيرة ، يقلبون فهارسها ليقعوا على حادثة يمكن أن تبرر وتسوغ ما طُلب إليهم تسويغه أمام جمهور المسلمين فيكون التضليل ، ويكون الضلال ... وقد يقع هؤلاء في مفارقات محزنة حيث يوظفون الحادثة نفسها لموقفين متناقضين ، فنجد الإسلام على أيديهم يحرم الصلح مع الأعداء ـ أعداء الدين ـ ولذلك فتاواه ومسوغاته ، وتارة أخرى يبيح التحالف والصلح اهتداء بفعل الرسول ﷺ بصلح الحديبية ...

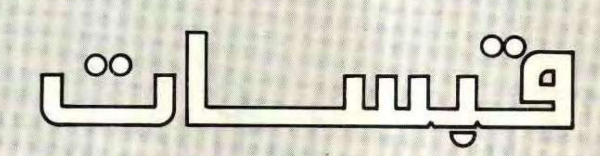
إنها المواقف الانتقائية التي تنقلب السيرة معها ، من دافع إلى النهوض إلى مانع منه ، تقر الواقع وتكرسه وتضفي عليه صفة الشرعية الإسلامية ، ولعل في هذا من الخطر ما يفوق العمل على إقصاء الإسلام صراحة ، ذلك أن تعطيل فاعلية الإسلام وهديه مستقبلة ، والعصمة لا يمكن أن تتحقق لأي شخص أو جماعة أو مؤسسة ـ مهما كانت جادة في التأسي والاقتداء ـ لتوقف تسديد الوحي ، ولأن البشر ـ أفراداً وجماعات ـ يجري عليهم الخطأ والصواب ، ولا تؤمن عليهم الفتنة .

إن عدم إدراك هذه الحقائق أوقع الكثير من الدارسين والباحثين بمغالطات وأخطاء على غاية من الخطورة عندما حاول بعضهم إسقاط حوادث السيرة والأزمنة التي حكمت مراحلها ـ وهي التي لا تتكرر بذاتها كما أسلفنا ، وإنما الاهتداء بها والاقتداء والتأسي هو المطلوب دائماً ـ على سلوك أشخاص وأوضاع وجماعات وكيانات ، ويجعل منهم محلاً للأسوة والاقتداء ، وليس هذا لأحد سوى المعصوم ، ولا لمرحلة سوى السيرة النبوية .

ولا أزال أذكر بكثير من الألم والمرارة أحد الخطباء عندما حاول القيام بعملية الإسقاط التاريخي ـ إن صح التعبير ـ حيث كان ذلك مترافقاً مع حوادث الاضطهاد والاعتداء على بعض العاملين للإسلام ، بقوله عنهم بعد أن عَرَض للعذابات التي تقع عليهم من الظالمين : « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض » دون أن يدري أن هذه الخاصية تفرد بها البدريون دون سواهم من الأصحاب ، على الرغم من المعارك الكثيرة والضحايا الكبيرة في الغزوات الإسلامية والفتوحات الإسلامية ، تفردت بدر بذلك لأن شهودها كانوا هم أجنّة المجتمع الإسلامي المنشود ، والبذور التي نمت من خلالها دوحة الإسلام ، وكانوا فيما بعد وسيلة التمكين له في الأرض ... إن هذه الخاصية لم تتحقق لمن شهدوا غزوة أُحد والخندق وحنين وتبوك وغيرها ... فكيف يمكن أن نسقطها على أفراد وجماعات تُصاب في سبيل الله ، ولها أجرها إن شاء الله تعالى ، لكن موتها واضطهادها لا يعني بحال أن الله لن يُعبد في الأرض ؟! وقد أتم الله دينه ، وتعهد بحفظه وخلوده ، وختم النبوة بالرسول الكريم ﷺ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ( الحجر : ٩ ) و ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ( الأحزاب : ٤٠ ) وما موقف هذا الخطيب لو هلك هؤلاء واستمرت عبادة الله تعالى في الأرض ، وهي مستمرة بعونه تعالى ؟!

وقضيـــة أخرى يمكن أن تشكل أنموذجاً آخر للفهم : فقد




أخطر من محاولات إقصائه وترك الناس في حالات من العجز والإحباط، حيث لا تتحقق النتائج التي سلكوا لها سبيل الإسلام.

نعود إلى القـــول: إن الفترة التاريخية المعصومة التي تشكل مرحلة الاقتداء والتأسي والقبس المضيء هي مرحلة السيرة، وإن أصول الدعوة ووسائلها وأهدافها ومقاصدها وتحديد الفهم الصحيح لها مركوز في السيرة العملية، فهي المعين الذي يمد الدعوة ويحصِّن الدعاة بدروس العبر وضوابط النصر والظفر، ولعلّ في توقف الرسول ﷺ واستمرار الرسالة معنى واضحاً ... إنها الحقائق التي يجب أن تستوعب ويتعامل على ضوئها مع كل المواجهات التاريخية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا يعني - من بعض الوجوه أيضاً - القدرة الإسلامية على تنزيل القيم على واقع الناس، وحسن التعامل مع السنن التي تحكم الحركة التاريخية من خلال الرصيد الضخم من الدروس والعبر التي شهدها عصر الرسول ﷺ، في إطار المحاولة الإسلامية التي لا تعني الإسلام على كل حال. والنماذج التي سنعرض لها سوف نحاول أن تكون من مواقع متنوعة علّها تكون معالم هادية على طريق الجيل المسلم ...

ولعلّ أولى هذه المعالم، التي كانت من الأبجديات الضرورية للعمل الإسلامي، والتي لا بدّ من إدراكها ابتداء: تميز طريق النبوة بوسائله وأهدافه وممارساته عن طريق المُلْك، وهذا لا يعني أن الإسلام عقيدة لا شأن لها بتنظيم الحياة، وإنما يعني أنه تنظيم للحياة متميز بالهدف والوسيلة والممارسة، فقد نخطىء القراءة وبالتالي نخطىء الفهم والممارسة وتتداخل الأمور في الطريق إلى تحقيق الهدف، فيصبح التميز لفظاً بلا معنى واسماً بلا مدلول، وبذلك تختلط الممارسة فتتحول النبوة إلى ملك، والهداية إلى جباية، والاحتساب إلى احتراف: يقول ابن إسحاق:

[ اجتمع زعماء قريش بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد - ﷺ - فكلموه وخاصموه حتى تُعْذروا، فبعثوا إليه، أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتهم. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أنه قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصاً، يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم ... وكان مما قالوا: فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا فنحن نُسَوِّدُك علينا، وإن كنت تريد ملكاً مَلَّكْناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. فقال لهم: «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وانزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فَبَلَّغْتُكُمْ رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبرْ لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم» ].

لقد كانت هذه المعالم واضحة من بداية الطريق، ترافقت مع خطوات الدعوة الأولى، ولازمتها حتى المواقع الأخيرة، وكانت الاستجابة واحدة في حالات الضعف وحالات القوة على السواء ... قال ابن إسحاق بمناسبة فتح مكة: [ حدَّثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح - فتح مكة - حتى إن عُثْنونه ليكاد يمس واسطة الرحل ...

أمر رسول الله ﷺ الزبير بن العوام أن يدخل مكة في بعض الناس من كدىً، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كَدَاء، قال ابن إسحاق: فزعم بعض أهل العلم أن سعداً حين وجه داخلاً قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة (ولعلّ سعداً رضي الله عنه رأى بطبيعته البشرية أنه يوم الجزاء والعقاب لمن حملوا الأذى للإسلام والمسلمين إحدى وعشرين سنة، لكن للنبوة موقعاً آخر ومنطلقاً آخر وفلسفة أخرى)، فسمعها رجل من المهاجرين - عمر بن الخطاب - فقال: يا رسول الله، اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة. فقال الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب: «أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها» - وفي رواية أنه دفع الراية إلى قيس بن سعد بن عبادة - ويروى أن الرسول ﷺ استدعى سعداً وقال له - مسدداً طريقه، موضحاً له طريق النبوة -: «اليوم يوم المرحمـــة» ... ] والفرق كبير بين الملحمة التي تنسب إلى الملك، وبين المرحمة عطاء النبوة ...

ومعلمـــــة أخــــرى:

# من موقع القدوة ٢

... قال أسامة بن زيد رضي الله عنه : فأتيتُ النبي ﷺ ، وقد أتاه البشير بالفتح ، فإذا هو متهلل الوجه ، فأدناني منه ، ثم قال : « حدِّثني » . فجعلت أُحدثه ، فقلت : فلما انهزم القومُ أدركتُ رجلاً وأَهْوَيْتُ إليه بالرمح ، فقال : لا إلــه إلَّا الله : فطعنتُه فقتلتُه . فتغير وجه رسول الله ﷺ وقال : « ويحك يا أسامة ، فكيف لك بلا إلــه إلَّا الله ؟ ويحك يا أسامة ، فكيف لك بلا إلــه إلَّا الله ؟ » فلم يزل يرددها عليَّ حتى لوددتُ أني انسلخت من كلِّ عمل عملتُه ، واستقبلتُ الإسلام يومئذ جديداً ؛ فلا والله لا أُقاتل أحداً قال : لا إلــه إلَّا الله بعد ما سمعت رسول الله ﷺ .

وفي رواية أخرى : قال أسامة رضي الله عنه : لا أقاتل رجلاً يقول : لا إلــه إلَّا الله أبداً . فقال سعد بن مالك رضي الله عنه : وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول : لا إلــه إلَّا الله أبداً . فقال لهما رجل : ألم يقل الله ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَـــةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ ؟ فقــالا : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله ...

وهذه معلمة من تسديد الوحي ، وبيان وسيلة الداعية وخصائصه ، قال ابن إسحاق : [ وخرج رسول الله ﷺ ، فيما بلغني ، يلتمس حمزة بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ، ومُثِّل به ، فَجُدِع أنفه وأذناه ... فلما رأىٰ ما رأىٰ قال : لولا أن تحزن صفية ، ويكون سنَّة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ؛ ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثِّلن بثلاثين رجلاً منهم ...

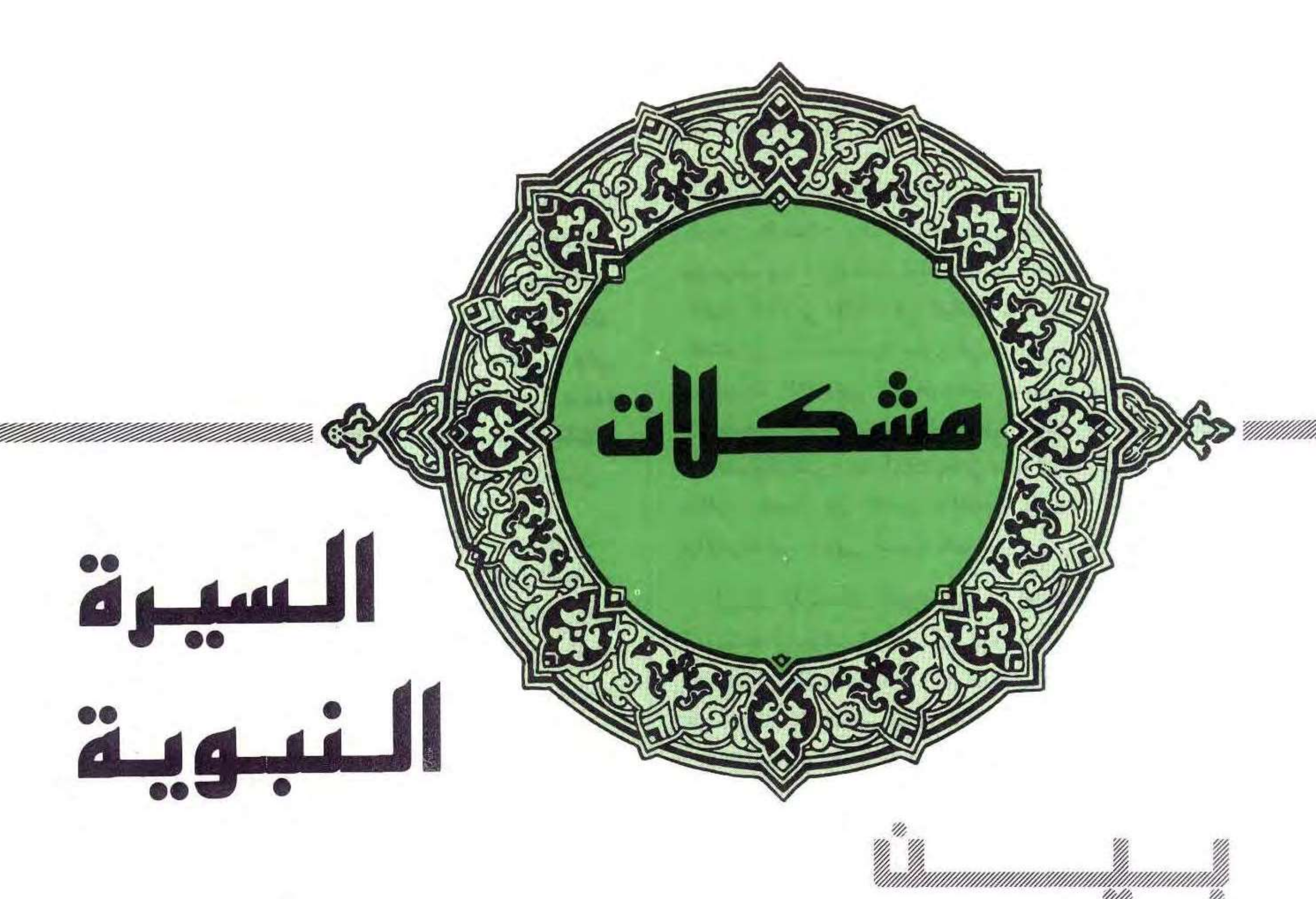
فلما رأىٰ المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل ، قالوا : والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثِّلَن بهم مُثْلة لم يمثِّلها أحد من العرب ...

قال ابن هشام : ولما وقف رسول الله ﷺ على حمزة قال : لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفاً قط أَغْيَظ إليَّ من هذا ؛ ثم قال : جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع : حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله عز وجل أنزل في ذلك ( في النهي عن المثلة ) من قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ( النحل : ١٢٥ ـ ١٢٨ ) فعفا رسول الله ﷺ ، وصبر ونهىٰ عن المثلة ] .

لقد سدَّد الوحي طريق النبوة ورعاها ، وبيَّن وسيلة الداعية وأنها ﴿ الْحِكْمَةَ وَالْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ ﴾ وكان لا بد من التدرج في الموقف ، فبعد بيان وسيلة الداعية انتقل إلى تأكيد العدل وهو التماثل بين العقوبة والجريمة ، ﴿ ...فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ... ﴾ ثم كان الندب إلى الصبر ، وهو مقام الإحسان الذي يليق بالنبوة ﴿ ... وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ... ﴾ ثم كان الأمر بالصبر للاحتساب ... ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ .

ويوم الفتح ، قال رسول الله ﷺ : يا عبَّاس ، احبسه ـ يعني أبا سفيان ـ بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها ... حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار لا يُرىٰ منهم إلَّا الحدق من الحديد ، فقال أبو سفيان : سبحان الله ، يا عباس من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار ، قال : والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ـ كذا ـ ابن أخيك الغداة عظيماً . قــال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوّة ...

نعم إنها النبوّة وليست الملك ، النبوة في الهزيمة ، والنبوة في النصر ، النبوة في الضعف ، والنبوة في القوة ، المرحمة وليست الملحمة ، الهداية وليست الجباية ... فهل نعيد النظر في التحقق من الأهداف والمقاصد التي نعمل لها ؟ وهل نختبر الوسائل والممارسات التي نعتمدها لتحقيق هذه الأهداف ؟ وكأن المطلوب إلينا اليوم أن نعيد النظر في المواقع التي ننطلق منها فننظر بعين العبَّاس رضي الله عنه حيث لا يزال كثير منَّا يقع في نظرة أبي سفيان أثناء الفتح ، فتكون الدعوة إلى الإسلام ـ وسائل وأهدافاً ـ على ميراث النبوة ، ويكون شعار دعوتنا وممارساتنا : إنها النبوّة وليست الملك .




# السيرة النبوية بين جهل الأصدقاء .. وافتراء الأعداء

بقلم : د. محمد الطيب النجار

□□ حياة الرسول ﷺ صفحة خالدة من الخير والبر والرحمة ، فأما العقلاء من المؤمنين الذين أنار الله بصائرهم فيدركون ما تنطوي عليه تلك الصفحة من المعاني الجليلة والأهداف النبيلة ، وأما الذين في قلوبهم مرض من الجهل أو سفه الرأي ، أو الحقد والضغينة ، أو الكفر والجحود فتختلف آراؤهم وتتعدد وجهاتهم فيما يمرُّ بهم من الأحداث التي تتعلق بالرسول ﷺ والأنباء التي قيلت عنه ، ولا شك أن هذه الأدواء جميعاً تغطي على الحقيقة ، وأحياناً تطغىٰ عليها ، ويقع البعض من المسلمين ضحية لهذه الأخطاء ، وقد يكون بعضها صادراً بِنيَّة طيبة أو عن اجتهاد خاطىء □□

وقضى الله بحكمته ورحمته أن يكون الأنبياء جميعاً منذ أبيهم آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ هم الظل الظليل الذي هيأه الله ليفيء النَّاس إليه ، وينعموا به جيلاً بعد جيل . بل هم المنارات الساطعة التي تظهر معالم الحق ، وتكشف المكنون من الأسرار ، وتضع أبصار النَّاس وبصائرهم على طريق الهدىٰ والنور . .

وعلى هذا الأساس كانت الأديان السماوية واحدة في جوهرها وأصولها ، حتى ليسوغ لنا أن نعتبر الكتب السماوية جميعاً من حيث ما تتضمنه من المبادىء الدينية الأساسية والمثل الأخلاقية كتاباً واحداً تتعدد أبوابه ، ولكن تتوحد أهدافه ومراميه ، وتختلف الأساليب في فصوله ولكن تتفق دلالاته ومعانيه . . ولعل هذا هو ما يفهم من القرآن الكريم حينما يتحدث عن الدين بوجه عام

○ الأديان السماوية واحدة في جوهرها واصولها حتي ليسوغ لنا أن نعتبرها جميعا كتابا واحدا تتعدد أبوابه وتتوحد اهدافه .

○ واجب المؤرخ الذي يتصدى لكتابة السيرة أن يستضيء بكتاب الله عز وجل يلي ذلك كتب السنة الصحيحة والمراجع الأساسية في التاريخ

فيقول :
﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ ﴾ ( آل عمران : ١٩ ) ويقول : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٨٥) .

ويذكر وصية إبراهيم لبنيه حينما قال لهم : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٢) .

فالاسلام هو الدين الخالص إلى عبادة الله ، والانقياد لأمره وتقواه مهما تعدد الأنبياء وكثر الدعاة .

ولأن مشيئة الله سبحانه قد سبقت بأن يجعل دين محمد ﷺ دين العالمين فقد أخذ الله العهد والميثاق علىٰ الأنبياء في عصورهم المختلفة بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن جاءهم مصدقاً لما أنزل عليهم ، وكان معنى ذلك تنبيه الأمم والشعوب التي ستدرك زمن محمد ﷺ إلى الإيمان به والتصديق بدعوته لأنها دعوة الحق الذي لا يأتيه الباطل ، ولأنها الدعوة العالمية التي كتب الله لها الخلود ، ما دامت السماوات والأرض وما بقي هذا الوجود ، وفي ذلك يقول الله عزَّ وجلّ :
﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّاهِدِينَ ﴾ (آل عمران : ٨١) .

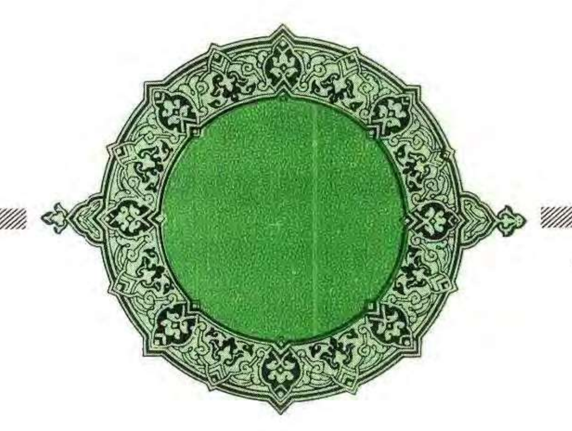
. . ولا ريب أن سيرة هذا النبي العظيم ﷺ إنما هي الأساس الكامل لدعوته الكريمة التي أضاءت المشارق والمغارب وملأت العالم بالهدىٰ والنور ، ومن أجل ذلك كانت أهمية هذه السيرة الوضاءة العطرة للمسلمين . بل للإنسانية جمعاء تناقلتها الأمم والشعوب جيلاً بعد جيل ، ثم سجلت بعد ذلك على مختلف العصور في كتب يضيق بها الحصر والتعداد ، وسوف تظل الكتابة فيها متصلة الحلقات إلى أن تنفطر السماء ، وتتكور النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات . .

وواجب المؤرخ الذي يتصدىٰ للكتابة عن سيرة الرسول ﷺ أن يستضيء - أول ما يستضيء - بكتاب الله عزَّ وجل ، ثم يلي ذلك في الأهمية كتب السنة الصحيحة ، ولكن القرآن الكريم والسنة النبوية لا يتعرضان إلَّا لبعض النواحي الخاصة من حياة الرسول ﷺ ، ويتعرضان لها في إجمال يحتاج إلى كثير من التوضيح والتفصيل ، ومن هنا كان لابُدَّ من المراجع الأساسية في التاريخ ، وأهمها : سيرة ابن هشام ، وتاريخ الرسل والملوك للطبري ، والطبقات الكبرىٰ لابن سعد في جزئيه الأول والثاني . . . إلى غير ذلك من المراجع الأصيلة .

ويبقى بعد ذلك ما كتبه المؤرخون المحدثون ، ولابد من الرجوع إلى كتبهم حتى يستنير بها إن كانت صحيحة ، أو يضيف إليها - بقدر المستطاع - ما يمكن أن يهتدي إليه من آراء جديدة ، أو يفنِّد ما جاء في بعضها من الآراء التي لا تستند إلى أساس سليم . .
ولا شك أن مثل هذه الآراء الفاسدة التي جاءت في بعض الكتب الحديثة يرجع بعضها إلى آراء قديمة دُسَّت إلى كتب المسلمين في عصور التدوين الأولى ، وكان أساسها يرجع إلى أناس أسلموا ظاهراً ولما يدخل الإيمان إلى قلوبهم ، أو دخلوا في الاسلام ولم تكتمل معرفتهم بكل مبادئه وآدابه ، ويرجع البعض الآخر إلى أناس من المستشرقين تناولوا في بحوثهم سيرة الرسول ﷺ ، وكانت روح التعصب والتحامل تطغى على معظم كتاباتهم ، ومنهم المستشرق « وليم موير » والمستشرق « كايتاني » . وقد نقل عنها بعض المؤرخين المحدثين متجاهلين سوء نيتها ونية غيرهما ، أو مخدوعين ببريق الأسلوب ، وغافلين عما يخفيه هذا الأسلوب من سُمٍّ زعاف وشرٌّ كبير . .

■■■■■■

وسوف نبدأ الآن سلسلة من البحوث حول المشكلات التي تعرض لها العلماء والباحثون في سيرة الرسول ﷺ ، واختلفت حولها الآراء يمنة ويسرة ، وقد يكون بعض هؤلاء العلماء من أولياء الرسول ﷺ ومحبيه ، ولكنهم انزلقوا إلى أخطاء غير مقصودة فضلُّوا عن الحق وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . . ومثل هؤلاء الأولياء أشد خطراً على سيرة الرسول ﷺ من الأعداء ، لأن العدو كثيراً ما يتسلح بالباطل ويفتري الكذب ، ولذا تكون آراؤه قلقة في نفوس النَّاس والثقة بها مفقودة ، أما الوليُّ والصديق فلا يتوقع منه شرٌّ أو خطر ، ومن هنا يكون الشرُّ أبعد أثراً وأشد خطراً .



## مشكلات السيرة النبوية

# بين جهل الأصدقاء . . وافتراء الأعداء

### مناقشة حول بشرية محمد ﷺ . .

وأول موضوع يجب أن نسلط الأضواء عليه ونتبين وجه الحق فيه هو ما روي من أخبار تتعلق بالزمن الذي وجد فيه الرسول ﷺ والعنصر الذي خلق منه ، وهي أخبار لا وجود لها مع الحق ولا وجود للحق معها ، لأنها تحمل في طياتها ما يهدمها من أساسها ، ولأنها فوق ذلك تتنافى مع ما جاء في القرآن الكريم ، وما ثبت في السنة النبوية الصحيحة ، ومن ذلك ما ذكره ابن كثير عن أبي نعيم في دلائل النبوة أن رسول الله ﷺ قال : « **كنتُ أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث** » وما روي عن كعب الأحبار[1] قال : « **لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق محمداً ﷺ أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي في قلب الأرض وبهاؤها ونورها فهبط جبريل في ملائكة الفردوس وملائكة الرفيق الأعلى فقبض قبضة رسول الله ﷺ من موضع قبره الشريف ، وهي بيضاء نيرة فعجنت بماء النسيم في معين أنهار الجنة حتى صارت كالدرة البيضاء لها شعاع عظيم ، ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسي والسماوات والأرض ، فعرفت الملائكة محمداً ﷺ قبل أن تعرف آدم أبا البشر ، ثم كان نور محمد ﷺ يرى في غرة جبهة آدم ، وقيل له : يا آدم ، هذا سيد ولدك من المرسلين . فلما حملت حواء بشيث انتقل النور عن آدم إلى حواء ، ثم لم يزل النور ينتقل في أبناء آدم من طاهر إلى طاهر إلى أن وُلد ﷺ**[2] » .

بل لقد وردت بعض روايات تقول : « **إن محمداً ﷺ أول خلق الله ، وأنه خلق من نور ، وأن هذا النور خلقت منه السماوات والأرضين والعرش والكرسي واللوح والقلم . . إلخ** » .

وإذا كان من واجبنا ـ نحن المسلمين ـ أن نقدر نبينا ﷺ حق قدره فإنه لحقٌ علينا ـ كذلك ـ ألّا نتجاوز الحدَّ أو نسيء الفهم فنبعد نبيَّنا عن منزلته وقدره ، ونخرج به عن نطاق البشرية ، ونجري وراء مزاعم واهية تضر ولا تنفع ، حيث تجعل محمداً مخلوقاً من النور لا من التراب ، أو من طينة أخرى غير الطينة التي خلق منها آدم ، وحيث تجعله موجوداً قبل أن يوجد آدم أبو البشر . بينما نقرأ كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تلكم الآيات التي يتبين منها الحق الذي لا ريب فيه حيث يقول الله عز وجل لرسوله :

**﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (الكهف : ١١٠)** ، فهو يأمره بأن يعلن للناسَ أنه بشر كسائر النَّاس ، وإنما يتميز عليهم باختيار الله له رسولاً يوحىٰ إليه . . ثم يؤكد الله ذلك المعنى في آية أخرى تشير إلى أن محمداً خلق من نفس الطينة التي خلق منها سائر البشر ، وذلك حيث يقول :

**﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨)** . . كما يروي في ذلك الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم** » .

وقد ذكر بعض المفسرين في تفسيرهم لقول الله عز وجل :

**﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة : ١٥-١٦)** . .

ذكر بعض المفسرين أن المقصود بالنور في الآية الكريمة هو محمد ﷺ ، ومن هنا ساغ لبعض ضعفاء العقول أن يقول : إن محمداً خلق من نور ، **جهلاً منهم بما يفهم من الآية . إذ لا شك أن النور الذي جاء في الآية الكريمة هو النور المعنوي الذي يضيء للناس طريق الحق ، وليس النورَ الحِسِّيَّ الذي تراه العين ، والذي يضيء كما تضيء المصابيح وكما تضيء الكواكب . . فالواقع الذي تطمئن له النفوس ، وتنهض به الحُجَّة أن محمداً نورٌ لأمته أضاء للناس طريق الخير بما آتاه الله من العلم والحكمة ، ولكنه مخلوق من التراب الذي خلق منه النَّاس جميعاً ، وليس يضيره في قليل أو كثير أن يكون مخلوقاً من التراب ما دام الله قد اصطفاه واختاره لرسالته الكبرىٰ التي أضاءت المشارق والمغارب ، وملأت العالم كله بالهدىٰ والرشاد . .**

**والواقع الذي نؤمن به ونطمئن إليه أن محمداً ﷺ أول خلق الله منزلة وأعلاهم قدراً ، وليس أول خلق الله وجوداً وأقدمهم**

○ الواقع الذي نؤمن به ونطمئن اليه ان محمدا أول خلق الله منزلة وأعلاهم قدرًا وليس أولهم وجودا وأقدمهم مولدا .

○ كان جند القرآن أعدل رجال وعاهم التاريخ وأحصى فعالهم في تدويخ المستبدين وكسر شوكة طاغية إثر طاغية .

مولداً . . ذلك بأنه في التسلسل الزمني خاتم الأنبياء والمرسلين . . ولا يستقيم مع المنطق السليم أن يكون محمد صلوات الله وسلامه عليه من أبناء آدم ثم يوجد قبل أبيه . . ولا يستقيم مع المنطق السليم ـ كذلك ـ أن تكون الأفضلية بين النَّاس بقدم الميلاد وإلاَّ لكان الآباء والأجداد أبداً أفضل من الأبناء والأحفاد . .

وما أبدع قول البوصيري عن بشرية الرسول وفضله على سائر البشر :

ومبلغ العلم فيه أنه بَشَرٌ     وأنه خَيْر خَلْق الله كلهم

■■■■■■■

## أنبـاء عن أحداث وقعت عند ميلاد الرسـول . .

وقد ذكرت بعض كتب السيرة أن إرهاصات وقعت عند الميلاد فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخمدت النار التي يعبدها المجوس ، وغاضت بحيرة ساوة ، وانهدمت الكنائس التي حولها . وتغنى بهذا المعنى كثير من الشعراء في قصائدهم ، يدفعهم إلى ذلك حبهم للرسول ﷺ دون أن يدققوا في هذه الأنباء ، ويعرفوا مدى صحتها ، فيقول صاحب البردة عن يوم الميلاد :

| | |
|---|---|
| يوم تفرَّس فيه الفرس أنهمُ | قد أنذروا بحلول البؤس والنِّقمِ |
| وبَاتَ إيوان كسرى وهو منصدعٌ | كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم |
| والنَّار خامدة الأنفاس من أسَفٍ | عَلَيْه والنَّهر ساهي العَيْن من سدم |
| وَسَاءَ ساوة أن غاضت بحيرتها | ورُدَّ واردُها بالغيظ حين ظمي |

ومثل هذه الأنباء لا تعتمد على التحقيق العلمي ولا تستند إلى المصادر الأصيلة في التاريخ الاسلامي ، وقد أعجبني ما ذكره الشيخ محمد الغزالي في كتابه « فقه السيرة » في هذا الصدد حيث قال : « **إن هذا الكلام تعبير غلط عن فكرة صحيحة ، فإن ميلاد محمد ﷺ كان حقاً ، إيذاناً بزوال الظلم واندثار عهده ، وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلي والمادي ، وكان جند القرآن أعدل رجال وعاهم التاريخ وأحصى فعالهم في تدويخ المستبدين وكسر شوكتهم طاغية إثر طاغية ، فلما أحب النَّاس بعد انطلاقهم من قيود العسف تصوير هذه الحقيقة تخيلوا هذه الارهاصات ، وأحدثوا لها الروايات الواهية ، ومحمد ﷺ غنيٌّ عن هذا كله ، فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرِّف يزهدنا في هذه الروايات وأشباهها** . . » .

ونحن نزيد على ما قاله الشيخ الغزالي فنقول : إن معظم الكتب والمصادر الأصيلة في التاريخ والسيرة ، وكتب السنة الصحيحة لم تذكر هذه الارهاصات فيما ذكرت من سائر الارهاصات والمعجزات التي رويت عن الرسول ﷺ .

ومثل هذه الحوادث الخطيرة لا يمكن إغفالها إذا وقعت ، ولو أن أعداء الاسلام رأوها لما أنكروها ، بل كانوا يسجلونها في كتبهم التي أرَّخوا فيها لتلك الفترة ، ويقولون عنها : إنها ترجع إلى أسباب كونية وعوامل طبيعية ، ويحاولون أن يلتمسوا لها أي تعليل يخرج بها عن إثبات الفضل لمحمد ﷺ ولدينه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، وبهذا يصبح واضحاً أن مثل هذه الروايات لا تحمل من أسباب القوة ما يجعلنا نطمئن إليها ونرجح وقوعها . .

وبعد فإن السيرة النبوية حافلة بالأحداث الجليلة والمعجزات الكثيرة التي لا يتطرق إليها ضعف أو وهن ، وسوف نبعثها إن شاء الله في البحوث الآتية حللاً منشَّرة ، وإلى جوارها ما يدعمها من حجج وبراهين تخرس ألسنة المنكرين ، ولسنا ـ والحمد لله ـ بحاجة إلى أن نتصيد الخوارق التي تعوزها الحجة ولا يؤيدها البرهان ، ولكن سنلقي المزيد من الأضواء على المشكلات التي تغيب فيها الحقائق بسفه الرأي من الأولياء أو بالكذب والافتراء من الأعداء .

هذا ، ومن الله العون وبه التوفيق .

## هـوامش

(١) جاء ذلك في كتاب « شرف المصطفى لأبي سعد النيسابوري » .
(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي .